د. خيرالله عصار

يوميات بعوضة كانت فتاة في الجنة

Kutub

يوميات بعوضة

كانت فتاة في الجنة

رواية

الدكتور خيرالله عصار

منشورات إي-كتب

لندن 2014

Diary of a mosquito that was a girl in Paradise
By: **Dr. Khairalla Assar**
Copyright: The Author
Published by E- Kutub.com
ISBN: **9781780581279**
* * * * *
PUBLISHED BY:
e- kutub.com on www.e- kutub.com & Google Books
All rights reserved
This e-book is licensed for your personal enjoyment only. This e-book is free and it can be given away to other people for free only. If you would like to share this book with another person, please refer to the publishers. If you're reading this book and found any concerns please contact e-kutub.com at:
ekutub.info@gmail.com
If you would like to contact the author, please write to
selma.leinenweber@free.fr

Thank you for respecting the author's work.

*** * * * ***

الطبعة الألكترونية الأولى
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.
مرخصة فقط للإستخدام الألكتروني، لا تجوز طباعة أي جزء من هذا الكتاب على ورق.
كما لا يجوز الاقتباس من دون الإشارة الى المصدر.
أي محاولة للنسخ أو إعادة النشر من دون إذن المؤلف تعرض صاحبها الى المسؤولية القانونية.
إذا عثرت على نسخة عبر أي وسيلة اخرى غير موقع الناشر (إي- كتب) أو غوغل بوكس، نرجو اشعارنا بوجود نسخة غير مشروعة بالكتابة الينا:
ekutub.info@gmail.com
يمكنك الاتصال بالمؤلف عبر العنوان التالي:
annarhaa@yahoo.fr

الإهداء

إلى فتاة صغيرة لم ألتق بها

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

"إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيَعلمون أنه الحق من ربِّهم وأَما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضلّ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضلُّ به إِلاّ الفاسقين" (البقرة الآية 26).

المقدمة

قبل اليوم الأول:

قال الرب: كيف أصبح حال الجنة يا ملائكتي؟

فردت الملائكة بصوت واحد

_ إنها الكمال التام!

لكني أرى نقصاً فيها!

بهت الملائكة ولم ينبس أحد منهم ببتت شَفّة،

فأكمل الرب قوله:

_ إني خالق بعوضة لتتم النقص الذي أراه.

اليوم الأول:

أذكر أني خرجت من تراب الجنة: فتاة صغيرة، جميلة ذات جناحين. لم تلدني امرأة ولم يكن لي أب. حدث هذا قبل أن يخلق آدم وحواء بزمن طويل. أزحت التراب عن جسدي ثم نهضت. كانت سحابة رقيقة بيضاء تدثرني. لمستُ جناحيّ ثم حركتهما برفق، فسمعت نغماً موسيقياً حلواً جعلني ابتسم فرحاً.

كان أربعة ملائكة بانتظاري قرب ربوة صغيرة تزينها زهور متنوعة الأشكال والألوان. وما إن وقع نظري عليهم حتى صاحوا بصوت واحد: مرحباً بك يا بعوضة في جنة الرب. لكني لذت بالصمت، فلم أدر ما أقول.

قال كبيرهم: أمرنا الرب أن نأخذك إلى القصر الذي بنيناه لك تفضلي...

سرنا معاً عبر مرج أخضر حتى وصلنا إلى ضفة نهر عظيم.

قال الملاك: هذا هو قصرك.

وأشار إلى بناء معلق في الفضاء فوق النهر، وأردف: طيري إليه. إذا احتجت إلى شيء فناديني من شرفة القصر.

ثم تلاشى الجميع عن نظري. رفرفت بجناحيّ لأجربهما، حلّقتُ، ثم هبطت عند باب القصر.

كان بناء من المرجان. لا يستند على أية دعامة. تظلله سحابة لها ألوان قوس قزح. فتحت الباب فرأيت السرير الذي سأنام عليه، مصنوع من الفضة والفيروز. وبجانبه كانت ألبسة مختلفة الأشكال صنعت من تويجات الورد والياسمين بانتظاري.

من شرفة القصر، بدا النهر ممتداً إلى آخر ما استطاعت عيناي أن تبصر. على سطح النهر كان هناك زهور كأنها مصابيح، بجانبها أوراق خضراء تشع بلون فاقع أصفر.

على ضفتي النهر احتشد بعض حيوانات وطيور وحشرات الجنة، وما أن لمحني الحشد حتى صاحوا جميعاً: مرحباً...مرحباً.

ابتسمت فرحة، لوّحت بيدي، وعدت إلى الداخل. تناولت تفاحة من طاولة في وسط القصر عليها فواكه متنوعة. قضمت التفاحة وارتميت بجسدي فوق السرير الذي حياني بنغمات موسيقية حلوة. وعبق المكان بأريج الزهور، ثم غفوت.

اليوم الثاني:

شمس الجنة دافئة؛ تنير برفق، وتتوارى برفق. تنتقل من مكان إلى آخر عبر السماء دون أن تغيب. شمس لذيذة تنعش باستمرار أجساد سكان الجنة وتجدد حياتهم. قمر الجنة صغير ومُدوّر. يبتسم دون أن يبدل شكله أو نوره.

من حوله تتلألأ نجوم الجنة على الدوام. تتخذ لنفسها مواقع جديدة كل يوم. عندما أتأملها اشعر كأنها تهتف قائلة: لستم وحدكم، فللرب جنّات وجنّات.

يهب نسيم عليل فتعبق الجنة بعطر سماوي، ونغمات موسيقية تحيي القلوب.

تضيء فضاء الجنة مصابيح معلقة فضاء الجنة ليلاً، وتختفي نهاراً.أما أنا لي ليلي الخاص أصنعه بنفسي ومصباحي الذي يسطع نوره ويخبو حسب رغبتي.

اليوم الثالث:

كل مخلوق في الجنة سيد نفسه. لا يأمره أحد ولا يأمر أحداً.

ينقل الملائكة أوامر الرب إلى مخلوقات الجنة، فالرب وحده هو الذي يأمر.

الجنة سلام في سلام من رب السلام. يسكنها أولئك الذين سلموا أمرهم بطواعية إلى رب السلام.

النفس في الجنة هي التي تأمر. لكنها لا تأمر صاحبها بالسوء أبداً. فالشر لا وجود له.

اليوم الرابع:

أحب كل شيء في هذه الجنة، وأعرف أن كل شيء يحبني. أحس أني في قلب كل مكان أذهب إليه هو في قلبي.

طعامي حليب وفواكه. لا يوجد لحم في الجنة. لابد من أن تقتل حتى تأكل من لحم من قتلت. لكن لا وجود للقتل في الجنة ولا الجريمة لها أثر. لا أحد هنا يؤذي أحداً، ولا أحد يكره أحداً ولا أحد يتجسس على أحد.

أنا لا أحس بعبء الزمن ولا ثقل الأيام. فلا طفولة ولا شيخوخة، ولا موت ولا فناء. أشعر أني شابة دوماً، وقوية وأن حياتي لا نهاية لها. بالتعرق أتخلص من فضلات جسدي. كل شيء جميل بذاته ولذاته.

لا توجد مراحيض ولا مجارير للمياه الملوثة. لا قمامة ولا فضلات.

أنا أعلم أني من تراب أرض الجنة، لكني أعلم أيضاً أني لن أعود إلى التراب. أنا باقية على قيد الحياة، مادامت إرادة الرب تشاء ذلك.

اليوم الخامس:

يحلو لي أن أتأمل أيام حياتي منذ البدء، وأحب أن أصلي. أردد دوماً المقولة: الحمد للرب أولاً وأخراً.

أنا أعلم أن ربي أكبر من أية كلمة أناديه بها، وأنه أعظم من أي رمز. أنا لم أره ولكني أشعر أنه داخل قلبي.

أنا أعلم أني أرقى من كل المخلوقات التي تعيش في الجنة. لقد فضلني عليها، في شكلي وتكويني وقدرتي على أن أتصوره. كم أنا سعيدة في ما أنا عليه! أنا لا أعرف الملل والضجرّ ولا أعرف الهم. أنا في الجنة في قلب الكمال، في خضم هذا الفضاء اللا محدود. شكراً لك يا رب!

اليوم السادس:

أحب أن أقوم بجولات طائرة استكشف بها أماكن جديدة، مروجاً جميلة، وأنواعاً غريبة من الزهور والأشجار. أصدقائي هم: قطة وسنجاب وأرنب. أطير نحوها، نلعب معاً، نغنى معاً. تقفز نحوي وأنا أطير، اقترب منها ثم أحلق فنضحك معاً.

الببغاء الأزرق يزورني في قصري. يحط على الشرفة يناديني ليخبرني أقاصيص عديدة. وأغنيته المفضلة التي يغنيها قبل أن يغادر الشرفة:

أنا الببغاء......أنا الببغاء

أتكلم كثيراً، وأعمل قليلاً

أضحك عندما أغضب

لذلك لا أغضب

لكني أضحك.......

هاهاها.............

اليوم السابع:

كان حلماً! تركت جسدي في مكان مجهول. أصبحت روحاً مجنحاً، نقياً لطيفاً، ورقيقاً. ورحت أتهادى في فضاء لا تحده حدود. اخترقت أفاق

الكون، وسافرت إلى ما وراء الشمس والقمر والنجوم. حملتني أجنحة لم أرها، وحطت بي عند المنابع الأبدية للموسيقى والحب والشعر، فسمعت ورأيت، تعلمت وفهمت.

لما عدت إلى بيتي، كان روحي مشبعاً بالألحان والحب والشعرية. فتحت عينّي فإذا ملاك بجانب سريري يبتسم. سألته: أين كنت؟ ومن أنا؟

فقال: لم يكن حلماً يا بعوضة. لقد نما روحك وزكا، وبقي جسدك كما هو.

واختفى عن نظري.

اليوم الثامن:

_ أنت الآن معلمة، فهيا إلى العمل لتعلمي سكان الجنة الموسيقى والحب والشعر. تلك هي إرادة الرب.

هكذا تكلم الملاك الذي زارني هذا الصباح.

اليوم التاسع:

غادرت قصري هذا الصباح إلى مرج أخضر أين اجتمعت حيوانات الجنة، فرحب بي الجميع وأحاطني كما يحيط السوار بالمعصم. حلّقت على ارتفاع منخفض ورحت أعزف بجناحي ألحاناً جعلت الحضور يتمايل طرباً، وهم يترنمون ويرددون الأنغام مبتهجين. ثم أسرعنا إلى مأدبة إفطار تتكون من العسل والحليب والفواكه كانت بانتظارنا. قبل أن نفترق قال الجميع بصوت واحد! شكراً لك يا بعوضة...ما أحلى موسيقاك!!

اليوم العاشر:

سمعت صوتاً يناديني من شرفة القصر. شاهدت سلحفاة وفأرة ونملة كانت واقفة على الضفة.

قال الجميع بصوت واحد: _ جئنا لنتعلم درساً في الموسيقى. فسألتهم: _ لماذا لم تحضروا درس البارحة؟

قالت السلحفاة: أنا بطيئة في سيري. عندما وصلت، كان الدرس قد انتهى. وقالت الفأرة: كانت هناك قطة غريبة، خفت أن تهاجمني. أما النملة فقالت: أنا دوماً أتجنب الحشود لأني أخشى أن تدوسني الأقدام. ضحكت من تلك الإجابات وقلت: لا بأس...هيا بنا. طرت نحو أصدقائي، وفي الفضاء بين قصري والضفة عزفت بجناحي مقطوعة موسيقية، بينما راح الجميع يتمايلون طرباً، ويقلدون الأنغام.

شكرني الجميع، وانصرفوا، وعدت إلى قصري مسرورة. آه، كم أحب أن أكون معلمة لأعلم دروس الموسيقى. و...وغيرها...الحب مثلاً...والشعر!!

اليوم الحادي عشر:

ومرّ زمن طويل. أصبحت الجنة فيه جنتين. جنة الهدوء والسكون وجنة الأنغام. فحيثما كنت اسمع موسيقى تسر القلب وتنشر السلام.

أعطيت دروساً للتماسيح والحيتان، للذئاب والضباع والأسود. ذات مرة شاهدت وأنا أطير ثورين يتناطحان. لكن حالما سمعا موسيقى جناحيّ، توقفا عن التناطح. رفعا رأسيهما نحوي، ابتسما وراحا يترنمان ويتمايلان. تابعت طيراني وقلبي مفعم بالبهجة والحبور.

اليوم الثاني عشر:

ذات يوم، كنت احلق صباحاً فوق شجرة تين ضخمة، كانت ثمارها تشع كأنها مصابيح من نور. وكانت موسيقاي تملأ فضاء الجنة حلاوة وعذوبة. فجأة وقع بصري على كائنين غريبي الشكل جالسين تحت الأغصان، لم يسبق أن رأيتهما من قبل. لوحا بأيديهما عندما سمعاني ورأياني.

- تفضلي يا بعوضة، قالا وهما يبتسمان.

فقلت في نفسي: يا للعجب! توجد كائنات في الجنة تشبهني وأنا لا أدري!

هبطت بسرعة، جلست قربهما ورحت أمعن النظر في وجهيهما وجسديهما.

- من أنتما ومن أين جئتما؟

سألتهما والحيرة تغمر كلماتي وأحاسيسي. كان لأحدهما لحية كثة، وللآخر نهدان غطيا بورقتي تين.

- أنا آدم، قال ذو اللحية.

- أنا حواء، قالت ذات النهدين.

ثم أردفا قائلين: لقد خلقنا الرب منذ وقت قصير.

- إني أحب موسيقاك يا بعوضة، قالت حواء، وتابعت: يا ليتني أملك جناحين مثلك، إنك سعيدة بجناحيك أليس كذلك؟

قالت: أجل أنا سعيدة كما أنا؛ لقد خلقني الرب منذ زمن طويل.

اليوم الثالث عشر:

أنا سعيدة أكثر من قبل، إن كان يوجد "قبل" أو "بعد" في الجنة. لكن سؤالين كان يقضان مضجعي: لماذا أنا كما أنا؟ ولماذا هما: حواء وآدم كما هما؟ لماذا خلقت وحيدة وخلقا معاً؟ على أية حال...حواء يا حواء، أنا احبك وأعلم انك تحبيني. آدم يا آدم، أنا احبك واعلم انك تحبني.

اليوم الرابع عشر:

قصري معلق في الفضاء فوق النهر، وقصر آدم وحواء على الأرض في وسط مرج أخضر. أطل من شرفة قصري فأرى الأسماك تحتي في الماء تسبح، ألوّح لها بيدي فترد التحية، ثم أعزف ألحاناً لها فترقص داخل الماء وهي في غاية السرور. وحواء وآدم لا يريان إلاّ زهور الأرض وأشجارها القريبة. أستطيع أن أطير من ضفة إلى أخرى، بينما يقفان على ضفة النهر يتأملان ما حولهما.

زرتهما في قصرهما مرات عدة، وكان لزاماً أن يركبا على ظهر ملاك لينقلهما إلى قصري بقوة جناحيه. وعندما نجلس معاً، أبدأ الجلسة بأنغام رقيقة تهز حواء طرباً. عيناها لا تفارقان جناحيّ. ثم تتنهد قائلة: ليتني أملك جناحين...ليت!...ما أحلى جناحيك يا بعوضة، يا صديقتي!!

اليوم الخامس عشر:

كان فطورنا عسلاً. اتصلت بالنحلة التي جعلها الرب في خدمتي. زارت ولثمت زهوراً لا تحصى. كنا نحن الثلاثة في الشرفة عند أقبلت "نحلتي"

حطت على الصحن المخصص لها بعد أن ألقت التحية. عزفت لها نغماً بجناحي فراحت تفرز عسلها وبعد حين امتلأ الصحن. استأذنت وغادرت. طلبت من الشمس أن تمدني بشعاع حار ففعلت، حول العسل إلى شراب دافئ، فشربنا حتى ارتوينا.

لم يكن الرب قد خلق النار، وجهنم لا وجود لها، لأن لا وجود بعد لمن يخالف أوامره. وُضع شعاع شمس تحت أمري ليدفئني وليُسخِّن ما أريد.

اليوم السادس عشر:

كانت البقرة تنتظرنا، وبحركة خاصة برأسها حيتنا عندما اقتربنا منها. قلت: يا بقرة، يا كريمة، نحن جائعون. جئت إليك مع صديقي، فهل تعطينا بعضاً من حليبك؟ فقالت: مرحباً بكم، ولكن كما تعلمين أنا أعطي الحليب وأنت تعطين الموسيقى. فهلاّ عزفت لي بعضاً من ألحانك؟

قلت: على الرحب والسعة.

قالت: من هما هذان المخلوقان اللذان برفقتك؟

قلت: هذه حواء وهذا آدم، خلقهما الرب منذ بعض الوقت!.

قالت: مرحباً بهما...ولكن عليهما أن يمصا ضرعي برفق...وأنت كذلك...لا تأكلوا كل حليبي...فلي ابن صغير، عُجيل، سيرجع من اللعب جائعاً بعد قليل، فاتركوا له ما يكفي من الحليب.

شرعت بالعزف بجناحي، فراحت البقرة تتمايل طرباً، بينما راحت حواء وبعدها آدم يرضعان الحليب، الواحد تلو الآخر.

شربنا جميعاً من الضرع مباشرة حليباً دافئاً، طازجاً أنعشنا. وأخيراً عاد عجيل البقرة، وأسرع إلى الضرع وهو يضحك عندما شاهد آدم بلحيته الكثة يمص ضرع أمه. عزفت مقطوعة أخرى، فدرّت الضروع مزيداً من الحليب. عندما شبع عجيل، تلمظ وقال: الشكر للرب. فرددنا وراءه جميعاً: الشكر للرب، الشكر للرب وحده.

اليوم السابع عشر:

قلت للملاك الذي يساعدني على تحقيق رغباتي: أريد أن أعزف لسكان البحر، وأنا لا أقدر أن أدعوهم إلى اليابسة، كما ولا أقدر أن اذهب إليهم، تحت الماء.

فقال: سمعاً وطاعة يا بعوضة، أنت التي ملأت الجنة بالألحان والأنغام، أن الرب وسائر الملائكة يشكرونك على ما فعلت.

طرنا معاً إلى شاطئ بحر، أخضر واسع. خضنا معاً قرب الشاطئ حتى وصلنا إلى أجمة من زهور بنفسجية عملاقة تبدل لونها كل يوم. قال الملاك: إذا وضعت بعضاً من تويجات هذه الزهور في أنفسك، تستطعين أن تتنفسي تحت الماء كما تفعل السمكة.

ثم توارى عن الأنظار. أسرعت إلى حواء وآدم لأخبرهما بهذا الاكتشاف حاملة بكلتا يدي التويجات البنفسجية. عدت معهما إلى الشاطئ، وبعد أن حشونا أنوفنا غطسنا تحت الماء. شرعت أعزف بجناحي فاجتمعت الأسماك والحيتان وراحت تترنم وترقص طرباً.

اقترب منا حوت كبير قائلاً: أدعوكم لزيارة بيتي

قلت: لا بأس، لكن هل هو قريب أم بعيد من هنا؟

قال: سأحملكم على ظهري ذهاباً وإياباً.

ركبنا نحن الثلاثة، فأبحر بنا إلى الأعماق المظلمة.

قال وهو يحاورنا: لا تخافوا سنجد سمكات مضيئة تنير الطريق. أعرف عدداً منها. هكذا عبرنا مناطق مكتظة بحيوانات البحر الغريبة الأشكال والألوان منها المضيء ومنها من لا يعرف النور.

كان الحوت يعيش مع زوجته داخل كهف تضيئه صخرة عجيبة.

قال الحوت مخاطباً زوجته: جئتك بضيوف من سكان البر. قالت: كيف يمكن لهم أن يعيشوا تحت الماء؟ فقال: إنها البعوضة الذكية.

قالت: مرحباً بهم جميعاً، تفضلوا

عزفت لها مقطوعة موسيقية عذبة، فوضعت بيوضاً من الكافيار، فأكلنا كافياراً طازجاً، لذيذ الطعم.

قلت لهما: تعالا زورانا. فضحك الاثنان من طلبي.

قالت الحوته: جدي لنا طريقة أولاً. كيف نستطيع أن نبقى أحياء في الهواء، على اليابسة!

قلت: هذا أمر صعب...سأسأل ملاكي.

اليوم الثامن عشر:

يحلولي أن أستلقي واضع رأسي على ركبة حواء ثم أغفو وأنا سعيدة ومطمئنة. ويحلو لحواء أن تتأمل جناحي وتلمسها برفق وأنا نائمة، متخيلة أن الرب وهبها جناحين لتطير بهما إلى أماكن بعيدة غي الجنة وخارجها.

بينما يحلو لآدم أن يتأملنا ونحن معاً، يبتسم ابتسامة خفيفة ثم يدير وجهه ويغوص في بحر أفكاره. أشعر أن آدم يحبني، وأعرف أنه يتمنى أن يضع رأسه على ركبة حواء ويغفو، لكن حواء لا تحبذ ذلك.

اليوم التاسع عشر:

كنت وحواء نتجول معاً تحت أجنة كثيفة من أشجار برية غريبة الشكل. فجأة نزل من الأشجار عدد كبير من القرود أحاط بنا. راحوا يمعنون النظر والتأمل في وجهينا، وانتصاب قامتينا وقدمينا. اقترب قرد كبير بدا وكأنه رئيسهم ولمس أحد جناحي. سألته إن كان جناحي يعجبه.

قال: أنتما مثلنا، لكن لماذا أنت تملكين جناحاً ونحن...لا...

فقالت حواء معقِّبة: أسمعت؟ حتى القرود تطرح سؤالي!

قلت: وأنتَ لك ذنب جميل تستطيع به أن تتعلق بأغصان الأشجار وتقفز بسرعة من شجرة إلى أخرى. لَم يَرُدْ، إنما راح يتأمل ذنبه ويحركه حركات بهلوانية ثم انفجر ضاحكاً فتبعه بقية القرود.

صمت الجميع فجأة عندما ارتفع صوت من بين الجمع قائلاً: اعزفي لنا يا بعوضة. لِمَ نسيت معشر القرود؟

ارتفعت قليلاً فوق المكان وشرعت اعزف لحناً جعل القرود تتمايل طرباً وتردد الألحان بطريقتها الخاصة.

لما انتهيت قال رئيسهم: شكراً يا بعوضة، تعالي عيشي بيننا، فالحياة على رؤوس الأشجار أحلى من الحياة في قصر.

فقلت ضاحكة: لكن لا أملك ذنباً استطيع به القفز من غصن إلى آخر!

فرد علي صوت من الجمع: نعطيك ذنباً، نعطيك ذنباً.

ضحكنا ثانية ثم افترقنا.

اليوم العشرون:

هذا يوم الاكتشاف الكبير عرفت فيه ما لم أكن اعرفه من قبل. اعرف أن "البعوضة" وهي أنا ليست كحواء التي بدون جناحين، لكنها مخلوق المعنى والفهم. آه! إني لست كما أفكر أنا...ومن أنا؟

كنا قرب قصرهما. كان آدم يغط في النوم داخل القصر. وكنت استرجع ذكريات تلك الحفلة التي أقمتها للقرود.

قالت حواء: أعجبتني تلك المعزوفة التي عزفتها للقرود، أكثر من أية معزوفة أخرى. قلت:

_ أنا مسرورة لذلك، لكن لماذا هي أفضل ما عزفت؟

_ أعجبني معناها، أحب معناها.

_ معناها؟...أنا لا أفهم ما تقولين!

_ الكلمات الموجودة وراء الأنغام!

_ الكلمات؟ أية كلمات؟

_ المعزوفة هي قصيدة شعرية رائعة. أتودّين سماعها؟

_ أكيد!

فراحت ترتل القصيدة وأنا أصغي متعجبة:

الحب ليس إلاّ حبنا

وجنة الرب نصيبنا

مهما ابتعدنا

مهما تفرقنا

الحب وحده يجمعنا

فشكراً لك يا ربنا

شكراً لك يا ربنا

قلت: آه يا رب! وأنا أتأمل حواء حالمة ونشوانة بالكلمات

ثم قالت حواء بعد صمت طويل: أخبريني يا بعوضة كيف تعلمت الألحان التي عزفتها؟

قلت: من مكان بعيد، من ينابيع الموسيقى والحب والشعر

قالت بدهشة بالغة: أين تكون، ينابيع الموسيقى والحب والشعر؟

_ سأخبرك...سأخبرك فيما بعد. أنا متعبة وجائعة فلم أذق شيئاً منذ حفلة القرود، هيا لتناول بعض الطعام.

مشينا صامتين. عندما وصلنا القصر كان آدم مازال يغط في نوم عميق.

اليوم الحادي والعشرون:

حوّاء تودُّ أن تعرف الحب كي تُحِب. وتود أن تُحب كي تُحَبْ. لكن أين الحب في هذه الجنة؟ أين الحب الذي لا تعرف شيئاً عن حقيقته؟

بدأ الأسى يغزو حياتنا نحن الثلاثة. ثمة مسحة من الحزن الصامت تكلل وجهها دوماً ودموع خفيفة مكبوتة تعرف عندما تهرب أحداهما من

الأعماق، ثم تترقرق في عينيها الجميلتين. أجل! لقد أَصبحتُ كمن وجد شيئاً جديداً، وأصبحت حواء كمن فقد شيئاً لا يعرف ما هو، ولا يعرف أين يبحث عنه.

شرعت حوّاء ذات مرة في البكاء عندما سمعتني أعزف مقطوعة لها، لأخفف من حزنها.

أيها الحبيب

لا تسل عن حبي إليك

فالحب ليس شيئاً نلمسه

فلا تحاول أن تمسكه

ولا تحاول أن تفهمه

الحب حب إذا عشته

فاهبط إلى أعماق القلب

وأبحث عنه...

إذا كان الحب في قلبك

فأنت في قلب الحب

دون أن تفهمه

فالحب حب إذا عشته

غصّت حَوَّاء وهي تترجم الألحان إلى كلمات. ثم أجهشت في البكاء. بكينا معاً. فلم تعد الجنة جنة كما كانت.

اليوم الثاني والعشرون:

- بعوضة...بعوضة...يا بعوضة.

كان صوت يناديني من خارج قصري. خرجت إلى الشرفة. كان آدم واقفاً على الضفة. لوّح بيده قائلاً: اهبطي إلى هنا، أنا بحاجة إليك.

جلسنا على العشب الأخضر وسط تغريد الطيور وزقزقة العصافير التي كانت تراقبنا عن بعد ظناً منها أننا بصدد القيام بعزف موسيقي.

قال آدم والقلق يغطي محياه:

_ حوَّاء حزينة يا صديقتنا يا بعوضة. إنها ليست على ما يرام منذ تلك الحفلة للقرود. تتكلم في نومها عن ينابيع الحب والشعر والموسيقى. أنا لا أفهم ما هي قصة هذه الينابيع. أنا لا أفهم شيئاً!

شرحت لآدم باختصار عما شاهدته في تلك الرؤيا، ثم أضفت قائلة:

_ أن حواء تريد الحب، وتريد أن تعرف ما هو. ولا يمكن الذهاب إلى الينابيع بدون أجنحة.

فأطرق آدم رأسه ولاذ بصمت غريب، ثم قال: ما العمل يا بعوضة إذاً؟

قلت: لا أدري...أجل لقد علمتني حوَّاء معاني الألحان التي عزفتها، وكان هذا اكتشافاً ودرساً عظيماً لا أنساه

قال آدم:

_ ما رأيك في أن نسأل أحد الملائكة عسى أن يأمر الرب...فيهبها جناحين كما أنت، فتذهبان معاً إلى الينابيع!!

قلت:_ جيد، سأحاول.

اليوم الثالث والعشرون:

استدعيت ملاكي إلى قصري، وقصصت عليه قصة حواء، وختمت حديثي بالسؤال: هل يمكن للرب أن يهب حواء جناحين كجناحيّ؟ قطب الملاك وجهه قائلاً:

_ أجل الرب قادر على كل شيء. بعد حفلتك للقرود طلب رئيسهم أن يخلق الرب له جناحين مثل جناحيك. حتى يعزف لقطيعه موسيقى كما تفعلين أنت. ولما نقلت طلبه إلى الرب أمرني أن أوَبِّخه لأن حكمة الرب تقتضي أن لا يخلق كائنات قرديه مزودة بأجنحة تعزف الموسيقى أو لا تعزفها. قلت: إذن ما العمل؟ حواء حزينة، ربما هي الكائن الوحيد الذي أصبح حزيناً في الجنة، أرجوك ساعديني.

ران صمت عميق، بعده قال الملاك: اذهبي وحدك إلى الينابيع واجلبي لها ما تقدرين عليه من الحب والشعر والموسيقى.

ثم تلاشى. بقيت وحدي أقَلّب الأمر. انتابني مزيج من رهبة وخوف من المجهول، من السفر إلى ما وراء تخوم الجنة. لكن كانت رغبتي في مساعدة حواء قد تملكت كياني. لقد سافرت بروحي وحدها إلى الينابيع، وبقي جسدي هنا. أعرف أن لا موت في الجنة لكن الضجر والحزن يمكن أن يتسربا إلى النفس...بسبب التوق إلى أكثر مما أعطاه الرب لنا. ماذا أقول؟...ماذا أقول لنفسي؟ أحمد الرب على ما أنا عليه.

لكن لابد لي من أن أعرف رأي حواء في الأمر.

اليوم الرابع والعشرون:

جلست وحواء على شرفة قصري. أخرجت غصن شجيرة البن. طلبت شعاعاً شمسياً خاصاً للطهي، قبلت الشمس طلبي. بينما كانت حبات البن المعلقة بالغصن تحمص، كانت حواء تراقب واجمة. سألتني عن نوع الشجيرة. فلم تكن رأتها من قبل، قلت:

رئيس القرود سماها: قهوة، فالكلمة تبدأ بالقاف كما تبدأ كلمة: قردة. ضحكنا ملياً. وما إن شرعنا في تناول حبات القهوة ومصها حتى انتابنا شعور بأننا أصبحنا أكثر حيوية. ثم أخبرت حواء عن مشروع السفر إلى الينابيع الثلاثة، فامتقع وجهها وقالت:

_ لا أكاد أصدق! حقاً ما تقولين؟

- أجل! أجل! وسوف أحضر لك ما أستطيع حمله من فيض نبع الحب ونبع الشعر ونبع الموسيقى.

قالت حواء:

_ اسمعي هذه القصيدة يا بعوضة. لقد سبق أن عزفت ألحانهما، دون أن تعرفي كلماتها:

إلى نبع الحب خذوني

وهناك وحدي اتركوني

أنا لست ما تراه عيونكم وعيوني

أنا لست كما تعلموني

إذا حبي العظيم سلمتموني

*   *

ها قد حضرت مركبة حبي
فيا ملائكة الجنة
أفسحوا الطريق ودعوني
دعوني أرحل
إلى نبع الحب دعوني

اليوم الخامس والعشرين:

قال الملاك:

_ إن مطراً سيأتي .سألته: ما المطر؟

قال: ستعرفين بعد قليل.

ما كاد أن يتم قوله حتى تساقطت قطرات من الماء، ما لبثت أن تحولت إلى زخات رقيقة ولطيفة أنعشت قلوبنا. كنا في مرج أخضر عندما اضمحلت زرقة الفضاء شيئاً فشيئاً وحلت محلها سحابة رمادية اللون داكنة، وزينت للحظات خاطفة بخيوط من نور ساطع أضاء الجنة من أقصاها إلى أقصاها. تبع ذلك همهمة صوت غريب أثار شيئاً من الخوف في نفوسنا.

قالت حواء:

_ هذا ليس ماءً، هذا حب الرب للبشر.

فتحنا أكفنا وجمعنا فيها قطرات بدت وكأنها جاءت لتغسل ما علق بنفوسنا وأجسامنا ما علت بها من آثار رتابة الحياة.

قال آدم:

_ أعزفي لنا لحناً يا بعوضة ولتحوله حواء إلى كلمات!

حَلَّقْتُ وشرعت أعزف مقطوعة المطر. التحمت الأنغام بالقطرات، واخترقت السحب فوقنا والمروج التي لا حدود لها من تحتنا. راحت حيوانات الجنة، طيورها، حشراتها، زهورها وأشجارها وسمكها تتمايل طرباً وهي تترنم بنشوة لم أعهدها من قبل.

قالت حواء:

_ يصعب تحويل كل هذا إلى كلمات! ربما يمكن هذا عندما نلتقي ثانية إثر عودتي من رحلتي إلى الينابيع، لعله يصبح ممكناً أن نفهم معنى مقطوعة موسيقية سماها الرب: مطر، هذا إن شاء الرب

اليوم السادس والعشرون:

برز فجأة. يقال في الأصل انه كان ملاكاً، لكنه لم يكن ملاكاً عندما قابلته من قبل. فقد غطى جناحيه بثوبه المصنوع من أوراق شجرة الموز، أما رأسه فقد ستره بقلنسوة من أوراق الصبار تزينها ثلاث زهرات قرنفل سوداء. لم يسبق أن رأيته من قبل، وأدركت أنه ليس من أهل الجنة، بدا كأنه دخلها خلسة بالتواطؤ مع حراسها. تقدم نحوي محيياً: خلع قلنسوته وانحنى بهامته المديدة ملوحاً وقال:

_ نهارك سعيد يا بعوضة.

ثم ضحك ضحكة متصنعة، ضحكة من لا يقدر أن يبتسم ابتسامة نقية وصادقة.

ألقيت نظرة فاحصة عليه من أعلى رأسه حتى أخمص قدمه وقلت:

_ من أنت؟ وماذا تريد مني؟

قال بخبث:

_ جذبتني موسيقاك منذ أمد بعيد لكن كنت مشغولاً بأمور ستعرفين عنها يوماً، واخترت اليوم لهذه الزيارة آملاً أن تقبليها مني مع أني لا أجيد لغة الحب ولا لغة الموسيقى والشعر.

قلت:

_ أنت في جنة الرب، لكن لا تبدو من أهلها. فمن أنت؟

قال مراوغاً: ذاك الثنائي الفريد في جنة الرب

ثم صمت برهة وتابع:

_ أشفق على آدم فهو في مأزق مع حواء. إذا رأته عبست، وإذا لم تره اكتأبت، إذا حدثها صمتت، وإذا لم يكلمها بكت. إذا أقبل نحوها أدبرت، وإذا هجرها جنت، تطلب الحب ولا تعرف ما هو...مسكين آدم، فهو لا يتقن إلاّ اللعب بلحيته والعبث بشعرها.

قلت محتجة:

_ وما دخلك في هذا الأمر؟

قال بخبث:

_ بودي أن أفعل خيراً لك...لا تتعبي نفسك في رحلة شاقة. قلت متعجبة:

_ آه! انك تدري!

قال:

لا تتعجبي من هذا. كل العجب إنك لم تسمعي بإبليس حتى الآن. قلت وقد زاد تعجبي:

إبليس؟

_ نعم يا بعوضة...أنا هو...لا أعزف لكني أعرف، لا أحب لكني أعرف ما الحب!

وما هو الحب في نظرك؟

_ لا ضرورة للجواب الآن، أنت مسافرة عن قريب إلى ينبوع الحب.

شعرت أني ورطت نفسي مع هذا الكائن الغريب والمقيت.

تابع يقول: _ لا تضيعي وقتك مع حوَّاء. حتى لو كان الحب عنقود عنب لتلتهمه، أو صحن طعام لتأكله، أو كأس ماء لتشربه، فلن تتوقف أبداً عن البحث عنه..

قلت:

_ عندما أحضر لها بعضاً مما يتدفق من ينبوع الحب ستكون على ما يرام.

قال: _ ستندمين!...ستندمين...

وتوارى عن الأنظار. بينما غصت في تأملي. كان المرج من حولي مبتهجاً بماء المطر وطيوره تغرد فرحة بينما شاهدت في مخيلتي نجوماً لا حصر لها ترنوا إليَّ، قلت: الشكر لك يا رب.

اليوم السابع والعشرون:

بأمر من الرب العظيم رسمت الملائكة الطريق لي. فتمنوا لي رحلة طيبة يا أصدقاء الروح. طريقي مصنوع من نور ابيض ساطع، أوله في الجنة وآخره في الفضاء البعيد. خيوط النور أخرجتها الملائكة من صندوق هو نفسه من نور، ثم قذفتها نحو الفضاء، فالتأمت مع بعضها ممتدة حتى ينابيع الحب والموسيقى والشعر

كنت أطير مع شعاع النور. حَيّاني القمر باسماً والنجوم من بعيد ثم لاذت بالصمت الأبدي. تركت الجنة خلفي وأنا الآن أطير...أطير...أطير.

مررت بالشمس وهي في مدارها، وعبرت الفجر فالغروب فالفجر، فالغروب...كنت وحدي على الطريق نحو الأبدية وقلبي. آه قلبي انه مفعم بالعزيمة والغبطة والأمل.

جاءني ملاك بشراب طهور أنعش مني الجسد والروح. اخترقت غابة كأن أشجارها من المرجان والياقوت، وأخرى كأن أشجارها من الفضة والفيروز. اجتزت صحاري الكون وبحاره حَلَّقْتُ فوق قمم جبال لا تراها العيون. رأيت ديناصورات غريبة الأشكال هائمة في الفضاء تبحث عن طريق يؤدي بها إلى الجنة. تطلعت نحوي وهي صامتة تنتظر الخلاص من فضاء لا تحده حدود.

إني أطير وأطير وأطير،...الحب بعيد وأنا كلي تصميم. كان في البدء حلماً وهو الآن من هذا الوجود.

تذكرت قولاً لحواء: الجنة موحشة بدونك يا بعوضة، فتمنوا لي عودة سعيدة إلى أصدقاء الروح.

اليوم الثامن والعشرون:

أخيراً وصلت.

ما إن اقتربت حتى أضيئت السماء بنور أبيض ساطع ودافئ. ترامى إلى مسمعي همساً ناعماً أختلط بأنغام عذبة، لم تلبث أن تحولت إلى موسيقى كونية اخترقت الفضاء من أقصاه إلى أقصاه. رفرفت بتؤدة وأنا أقترب من الينابيع الثلاثة. كان هناك نور أبيض سائل ينبعث من أعماق ثلاث زنبقات عملاقة، معلقة في الفضاء، كانت ألوانها تتغير عندما أمعنت التأمل فيها. توحدت رزم الضوء المتدفقة في شعب ثلاث، وشكلت شلالاً عظيماً من نور ملون كقوس قزح، انتصب من أعلى الكون إلى أدناه، راح يصب في الأبدية. انفصلت سحابة من نور، صغيرة ولطيفة، عن الشلال واتخذت طريقاً نحوي. دثرتني، أدفأتني، طهرتني من كل ما الم بي من تعب وإرهاق.

لمست الشلال المتدفق وأنا أرفرف، فاخترق النور كفي، وأصبحت نوراً في نور الحب والموسيقى والشعر. أنا؟ من أنا الآن؟ كان النور يخترق صدري ورأسي، جناحي وذراعي وقدمي. آه لقد أصبح جسدي روحاً وما هو بروح، وأصبح روحي جسداً وما هو بجسد. كما لاحظت وجود براعم دقيقة نمت على جناحي كأنها فقاعات، ثم اختفت بسرعة.

أجل! كان كل عضو من أعضائي يختزن شيئاً من موسيقى الكون ومن حبه وشعره. حانت مني التفاتة نحو الأعلى وتلت بعدها صلاتي:

يا رب!

كيف يتسع قلبي لحبي العظيم؟

وأنا كائن ضعيف

ساعدني لأضع قلبي في بحر حبك

ساعدني لأضع حبك في قلبي

ساعدني حتى أكون جديرة بحبك العظيم.

تذكرت حواء وآدم آه! لقد أصبح قلبي مفعماً بالأمل في أن أراهما عمّا قريب.

اليوم التاسع والعشرون:

بدأ طريق العودة أقصر. كنت أطير وقلبي مفعم بأمل أن أرى أصدقائي، فاعزف لحواء وآدم لحناً لم يسبق أن سمعه كائن من قبل؛ واستلقي ورأسي على ركبة حواء ثم أغفو بينما هي بيدها الرقيقة تغني وتتلمس جناحي ثم تسافر في خيالها إلى ينابيع الأبدية. كنت أتمنى أن أصل قصري وأجلس على شرفته فأطل منها على المروج والحيوانات في الجنة ثم أعزف لها مقطوعة فيتمايل الجميع طرباً كما عهدتم خارج الماء وداخله.

عبرت الديناصورات؛ كانت ما تزال تنتظر أن تفتح لها أبواب الجنة. وداعاً أيتها النجوم، تلألأت عن بعد ترد التحية، ولاذت في صمتها الأبدي. وداعاً يا قمر وداعاً يا شمس، سأراكما غداً في حفل موسيقاي الكونية. ابتسم القمر وراح يتابع مسيرته حول الشمس يرنو إليها صامتاً وهي تنير سطحه الذهبي.

كانت نفسي تهفو إلى أن أرى السنجاب وابتسامته، البقرة وضرعها الذي لا يفسد، كم أنا مشتاقة لها، والببغاء لأخبره بعضاً مما رأيت وسمعت.

لكن الجنة لم تعد كما كانت قبل رحلتي. رجعت أصداء ألحاني إليّ خالية من رونقها وجمالها وحبورها. كان كل شيء واجماً، كان كل شيء ساكناً، كان كل شيء حزيناً. ترى هل هجرها أهلها!!

تملكني قلق عظيم. أحسست بغشاوة على بصري. هل ضللت الطريق؟ سألت نفسي، فبدرت مني صيحة: يا أهل الجنة! يا أصدقائي، أين أنتم؟

فجأة لمحت الببغاء يبرز من بين أغصان شجرة قريبة. حلق نحوي.

قلت:

_ أخبرني أين حواء وآدم؟

رأيت في عينيه حزناً وقلقاً مكتومين. قال: أنظري هناك إلى اليمين.

عن بعد رأيت سحابة من دخان تخيم فوق قصر حواء وآدم. انتابتني قشعريرة الخوف لأول مرة في حياتي. سألته: ما هذا؟ ما حدث؟

قال الببغاء: لا أدري...

حلَّق بعيداً واختفى عن الأنظار.

اليوم الثلاثون:

هبطت قرب القصر؛ كان محاصراً بملائكة غلاظ شداد. اقتربت من أحدهم ودونما تحية خاطبته:

_ أين حواء؟ أين آدم؟

فقال مستغرباً:

_ من أنت؟

_ أنا البعوضة، صديقة حواء وآدم.

_ هما في الداخل.

_ دعني أدخل. كنت في رحلة إلى الينابيع الأبدية، كي أجلب للجنة حباً وموسيقى وشعراً. دعني أدخل.

فقال بحزم:

_ لا أسمح لك، لقد منع الرب أن يتصل بهما أحد.

_ لكن لماذا هذا الحصار. ماذا فعلاً؟ ماذا قالا؟

_ لا أدري.

_ هما أحبائي. ألا تعرف معنى أن تحب شخصاً أو ملاكاً أو أي شيء آخر!

فقال بحزم ثانية وقد بدا الغضب يتسرب إلى وجهه.

_ لا أخالف أمر ربي.

في هذه اللحظة حانت مني التفاتة نحو باب القصر المفتوح قليلاً، رأيت من خلاله آدم وحواء واقفين في البهو يبكيان، سترت عورتيهما بأوراق التين. كانت مسحة من الخجل والندم تغطي وجهيهما. لم أتمالك نفسي، فصحت بأعلى صوتي:

_ حواء...حواء...آدم...

التفتا نحوي، ثم عادا إلى إطراقتهما في صمت وأسى.

قلت للملاك:

_ دعني أدخل، لا بد من أتكلم إليهما. أرجوك..

_ يا بعوضة! أنت من أهل الجنة ومن يسكن في الجنة لا يخالف أمر الرب.

_ إلى متى يدوم الحصار؟

_ لا أدري...

ما كدت أتم كلامي حتى شعرت بأن الأرض زلزلت، ورأيت جدران القصر تنهار، تبع ذلك صوت غاضب مزمجر يخاطبها:

_ يا آدم! يا حواء..

أمر ربي من الجنة أن تطردا.

لأنكما أمره عصيتما.

من الشجرة المحرمة أكلتما

أمر ربي إلى الأرض أن تهبطا

أنتما وذريتكما فيها تتكاثرون.

تعيشون وتموتون

فمن آمن بالرب وأحسن صنعاً

ذكراً كان أو أنثى

وعاش حياة بحب وسلام

فالجنة مأواه

واليها يعود

ثم اختفى الجميع وبقيت في المكان وحدي. كان القصر الخراب وما احتواه من ذكريات يدعوني إليه. وقفت في البهو أين وقف آدم وحواء قبل حين وصرخت بأعلى صوتي: حواء...حواء...آدم...آدم.

اختفى صدى صوتي بين الركام. ورحت كالمجنونة أحدث نفسي: في هذا المكان جلست و أحبائي وعزفت. هناك استلقيت ذات مرة ووضعت رأسي على ركبة حواء. هنا تعلمت منها معنى الألحان، تعلمت لغة الإنسان. لم تعد قدماي قادرتين على حمل جسدي، سقطت على الأرض وبكيت... وبكيت.

اليوم الحادي والثلاثون:

عدت إلى قصري حزينة ومكسورة الخاطر. مشيت ببطء وتجولت على غير هدى. توقفت عن العزف وعن الطيران تماماً. لاحظ أصدقائي من الحيوانات والطيور حالتي. تبادلنا نظرات صامتة يكتنفها الحزن والعطف.

عادت صورة حواء وآدم المذنبين، المخذولين، النادمين في أحلامي. استيقظت مرات من نومي وصرخت في الظلام: حواء...حواء...آدم...آدم. وفي أوهامي تصورت أنهما سيرجعان إليّ محمولين على ظهر ملا كين يطيران بهما خلسة في ظلمة الليل إلى قصري.

طلبت من الملاك أن أزودها، أو أن يأتيا لزيارتي فقال أن الرب لا يسمح بذلك. لذا صرت ألوم نفس واردد أنه كان لزاماً أن أبقى معهما، أن لا أسافر إلى الينابيع بدونهما، أن أطلب من ملاكين أن يحملاهما فنغادر معاً

ونعود معاً. آه كم كنت غبية عندما رضيت أن أفارقك يا حواء!! سامحيني أينما كنت.

أما الآن، فلمن أعزف ألحاني؟ ما جدوى الموسيقى والحب والشعر وأحبائي منفيون في كوكب لا أعرف أين هو؟ أأعزف للسنجاب والببغاء والقردة وابن آوى بعيداً عن حواء وآدم؟ كيف يمكن أن أعيش دونما حواء أتعلم منها الكلمات ومعانيها وأعزف على ركبتيها عندما أرغب؟ لا موت في الجنة! فما أنا فاعلة بأيام حياتي التي لا نهاية لها؟

لقد أخبرت أنهما في الأرض، وأين تكون هذه الأرض؟ لقد سبق وأن مررت بالشمس والقمر وسائر النجوم في تجوالي عبر الفضاء اللانهائي، فلماذا لم أر الأرض؟ ترى أين تكون!

كان يمكن أن يرسلهما الرب إلى القمر. أليس القمر هو الأجمل والأكثر نوراً وبهاءً من أية أرض؟ لو كانا في القمر لقمت بزيارتهما، وعندما أعود أخاطبه قائلة: حافظ على أحبائي يا قمر.

وما هي تلك الشجرة التي حرّم الرب ثمارها؟ لقد اجتزت الجنة من أقصاها إلى أقصاها ولم أعثر على هذه الشجرة! فانا لا أعرف لونها ولا أعرف شكلها! ولماذا اختارا هذه الشجرة بالذات ليأكلا من ثمرها، والجنة ملأى بالأشجار والثمار؟ ولماذا حرَّم الرب ثمارها عليهما؟

كثرت الأسئلة وقلّت الأجوبة، فنمت حيرتي واشتدت آلامي ولا سبيل إلى الحوار مع أحد في هذا الفردوس الذي أعيش فيه. فالجنة لم تعد الجنة ولم أعد أنا أنا!

ومر زمن لا أعرف طوله.

ذات يوم سمعت قرعاً. كان الملاك الذي كلمني أثناء حصار قصر حواء وآدم في الباب. بدا باش الوجه وودوداً. اختفت تلك السحنة الغليظة القاسية التي شاهدتها يوم الحصار والفراق.

قلت:

_ مرحباً بك!

قال وهو يبتسم ابتسامة عريضة:

_ جئت حاملا أخباراً سارة إليك.

قلت ببعض الاستخفاف:

_ وما هي؟

_ أمر الرب الملائكة أن يبنوا قصراً لك سماه الرب "قصر السعادة" قصر لا مثيل له كي ينسيك همومك وآلامك ويجعلك في غاية الفرح والسرور. تعالي معي.

خيم صمت مطبق علينا، لاحظت أثناءه أن الدهشة تسربت إلى وجه الملاك الذي كان ينتظر ابتسامة على وجهي.

قلت لنفسي أعلم الآن أن الملائكة لا يفكرون. الملائكة كائنات طاهرة لا تعصي أمراً، تنفذ كل ما يطلبه الرب منها، ولا شيء غير ذلك. الملائكة لا يحبون، ولا يكرهون، لا يصادقون لا يعادون إلاّ إذا أمرهم الرب بذلك.

قلت ببرودة:

_ أفضل أن أبقى هنا.

ثم خرجت إلى الشرفة فتبعني قائلاً:

_ يا بعوضة هذا أمر ربنا.

_ أنا أشهد أن الرب أحد، وهو ربي ولا رب غيره. لكني لا أرغب في أن أنتقل لأعيش في قصر غير هذا القصر الذي أنت فيه الآن.

قال: إذن سأحيط ربي علماً بذلك

استدار وحاول أن يرفرف استعداداً للطيران قلت:

_ يا ملاك الرب مهلاً.

فاستدار نحوي وعلى وجهه بارقة أمل، لعلي غَيّرت رأيي، وقال:

_ نعم يا بعوضة! هل من جديد؟

مرّت لحظات استجمعت خلالها قواي وسألته بتحدٍّ وإصرار:

_ أين تقع الشجرة المحرمة تلك التي أكل من ثمارها آدم وحواء؟

فانتقض من سؤالي كما لو أن صاعقة أصابته وقال غاضباً:

_ لماذا تطرحين هذا السؤال؟ وماذا تقصدين من ورائه يا بعوضة؟

قلت بتحد شديد:

_ أريد أن آكل من ثمرها. أريد أن التحق بأحبائي.

ما كدت أتمم كلماتي حتى زلزلت الأرض، سقط جدار الشرفة في النهر وتداعت جدران القصر. قبل أن يغمى عليَّ، سمعت صوتاً مرعباً يخاطبني.

_ يا بعوضة، أمر ربي من الجنة أن تطردي وحشرة أن تصبحي.

أمر ربي، إلى الأرض أن تهبطي،

وأن تحبي البشر ولا يحبوك،

أن تفهمي لغتهم ولا يفهموك،

أن يكون دمهم غذاء لك،

وأينما يجدوك يقتلوك.

اليوم الثاني والثلاثون:

في البدء لم أطلب من الرب أن يخلقني. هو وحده اختار أن يأتي بي إلى الوجود واختار أن أسكن جنته. أما الآن، فأنا التي اخترت مصيري، وحدي. كان وجودي في الجنة نعمة من الرب، أما الآن فوجودي خارج الجنة عقوبة منه.

أنا لم أمت لأني من سكان الجنة، فسكان الجنة لا يموتون. بعد أن ضرب الزلزال قصري داهمتني قوة هائلة فصلت روحي عن جسدي. شاهدت روحي يخرج من جسدي: كان شعلة لطيفة من أبيض وزرقة لطيفة تشوبه، يتغير شكله دوماً. كان كقلب صنع من نور ينبض، راح يرتفع ببطء نحو الأعلى ثم ثبت في الفضاء على مقربة مني، ويتبع جسدي حيثما توجه في حركته وسكونه.

كنت أهبط داخل سرداب ضيق ومظلم، بسرعة مخيفة. لقد سبق أن مررت بالقمر والشمس والنجوم في رحلتي إلى الحب والشعر والموسيقى، أما الآن فأنا أعبر خلال ظلام دامس كان يغلفني كأنه ثوب ضيق حيك على قد جسدي وفي غمرة فزعي سألت نفسي: لماذا فعلتِ ما فعلت يا بعوضة؟ أما كان من الأفضل أن تبقى في الجنة بعد رحيل الأحباب تصلين وتبتهلين إلى الرب كي يسامح حواء وآدم؟

فجأة شعرت بقشعريرة تجتاح جسدي، لاح نور خافت في نهاية السرداب بعدها. قلت لنفسي أرجو أن تكون رحلتي قد اقتربت من نهايتها. ما كدت اتمم عبارتي حتى رأيت روحي ينزل ويعود إلي، ويدخل جسدي.

أنا حية الآن. ها قد وصلت الأرض.

اليوم الثالث والثلاثون:

سقطت في مستنقع مترامي الأطراف، تشكل عند مصب نهر نضب ماؤه. بهذا تكون رحلتي من الجنة إلى الأرض قد انتهت.

أنا الآن بعوضة _ حشرة كما أرادني الرب أن أكون، أطرافي كالخيوط المعدنية رفيعة ومدببة، جناحاي شفافان ورقيقتان، وفي فمي ثبتت إبرة أتناول الطعام بها. أما وجهي فكان يشبه وجه قرد صغير جداً جاء رفقة أمه إلى درس موسيقي ألقيته ذات مرة عندما كنت في الجنة.

كنت أقف على سطح ورقة نبات صفراء جافة كانت تطفو على سطح الماء الآسن بجانب قطع خشبية مهترئة متنوعة الشكل واللون وزجاجات بلاستكية مهشمة وعلب معدنية صغيرة صدئة. كانت السماء زرقاء تظلل المكان زينت بأشتات سحب متكسرة مبعثرة تحجب وجه الشمس تارة وتكشفه تارة أخرى. مضت برهة، اكفهرّت السماء أثرها، ورسم البرق أشكالاً بديعة خاطفة في الفضاء. زمجر الرعد وانهمر المطر فَشَكَّل تياراً مائياً جرف كل ما وجد في طريقه إلى البحر القريب.

حلَّقت بصعوبة وسط العاصفة، واتجهت نحو ضفة النهر. هناك وجدت ملاذاً في شجرة كستناء وارفة. اختبأت بين أغصانها ريثما تهدأ العاصفة ويتوقف المطر.

اليوم الرابع والثلاثون:

استيقظت عند منتصف الليل. كان القمر يرسل أشعته الفضية عبر أغصان شجرة الكستناء وأوراقها. هب نسيم عليل أنعشني، راح يهز أوراق

الشجرة ويلعب بها. أنا لم آكل ولم أشرب شيئاً منذ غادرت الجنة. دفعني الجوع إلى الطيران نحو المستنقع بحثاً عن شيء يؤكل. كانت هناك علبة معدنية طافية فوق الماء، ومن بقايا طعام كان فيها أكلت ومن ماء المستنقع شربت.

لدى عودتي إلى الشجرة، سمعت حفيفاً خافتاً. تلفت حولي فإذا بعوضة بجواري تمسد ذراعيها ورجليها وتغسل وجهها. قلت أخاطبها:

_ أبعوضة أنت؟

فأجابت بحدة:

_ أن لم أكن بعوضة فماذا أكون غير ذلك؟ ألا ترين التشابه بيني وبينك يا غبية؟

_ سامحيني، أنا لم أقصد الإساءة.

_ هل أنت غريبة؟

_ نعم! وصلت بالأمس.

_ وأين كنت؟

_ في مكان بعيد جداً لا تعرفينه!

قالت دونما اكتراث:

_ لا يهمني أن أعرفه.

وبينما كانت منهمكة في صقل جناحيها وتنظيفها، سألتها ثانية:

_ هل تسمحين لي بسؤال؟

فأجابت بلهجة ساخرة:

_ ما هو: تفضلي اسألي.

_ لِمَ أنت تتزينين؟

_ سؤال سخيف، لكن بما أنك غريبة عن هذا المكان، أقول لك: أنظري إلى الأعلى تجدين الجواب هناك. تحت ضوء القمر الذي كان بدراً، كان سرب من البعوض يرقص بحماس. وكان وطواط يطير، فيخترق السرب بسرعة هائلة، يلتقط إحدى الراقصات ويفر بها بعيداً نحو المستنقع. وبعد أن يلتهمها يعود ثانية ليلتقط أخرى وهكذا دواليك.

قلت:

_ لكن....

فقاطعتني بوقاحة!

_ لكن ماذا؟

_ أقصد الوطواط، ألا ترين أنه يصيد الراقصات واحدة تلو الأخرى؟

أطلقت ضحكة ساخرة وقالت:

_ ولِمَ لا؟

ثم تابعت قائلة:

_ البعوضة الشاطرة هي التي تهرب قبل أن يخطفها الوطواط أما التي هي غير شاطرة فهذا شأنها الخاص...أتعلمين أن الرقص في ضوء القمر وهو بدر متعة ولذة لا مثيل لهما. لو تعلمين ما أحلى أن يخطفك الموت وأنت ترقصين؟ جربي ذلك مرة...

قالت هذا وانطلقت بسرعة لترقص مع زميلاتها وبقيت وحدي.

اليوم الخامس والثلاثون:

كنت غارقة في حلمي السعيد. رأيت حواء جالسة في مرج أخضر شاسع، تدعوني لأركن رأسي على ركبتها. كان آدم يعبث بلحيته بيد، وبالأخرى يلاعبني. حاول أن يجرني ضاحكاً، لأبتعد عن حواء. آلمتني أصابعه وهي تقبض على قدمي فصرخت في نومي: آه...كفى يا آدم، كفى!

فتحت عيني مذعورة. لم يكن هناك آدم ولا حواء. إنما كانت وجهاً لوجه مع عنكبوت أسود قبيح المنظر منهمكاً في صنع شبكته حولي. رمقني بعينين حمراوين ملتهبين جوعاً وشبقاً وهو يغني:

لحمك طري وأنا جائع،

فخذك شهي وأنا جائع،

وصدرك رائع، رائع، رائع،

أنا أنتظر، أنا أنتظر...

عشاءً فاخر، فاخر، فاخر

كان يفرز لعابه اللزج الذي كان يتحول بسرعة إلى خيوط دقيقة ليحكم قبضته على جسدي. لقد علق قدمي بخيوط شبكته لكن لم ينته منها بعد.

حاولت تخليص قدمي مرة وثانية وثالثة دون جدوى. فتح فاه استعداداً لالتهامي. لكن قبل أن يصل احد اذرعه إلى جسدي استجمعت قواي وسحبت قدمي مرة أخرى بكل ما أوتيت من عزم. أنا حرة الآن قلت لنفسي وبخفة تامة قفزت نحو غصن عال لا يمكنه الوصول إليه. أثار هذا غضبه الشديد، فراح يشتمني: آه يا ملعونة! كيف استطعت أن تهربي

مني!! أين انت يا خبيثة. أين؟ تطلع في كل الجهات وهو يصرخ: أنا جائع، جائع...آه يا ويلي!... لجسدك نكهة خاصة...لذيذة، لذيذة...أين أنت يا ملعونة؟

راح يدور حول نفسه كالمجنون وهو يتلوى غضباً وغيظاً. لم أرد عليه، لكن كنت أرتجف فزعاً، بينما راح الفجر يرسل أشعته الأولى إلى الشجرة.

اليوم السادس والثلاثون:

سمعت صوتاً رقيقاً يحييني: صباح الخير يا بعوضة، فانتفضت فزعاً. لم يكن العنكبوت بل بعوضة لطيفة كانت قربي. تابعت تقول:

_ لِمَ الخوف يا بعوضة؟ وجهك شاحب وجسمك يرتجف وعيناك زائغتان! ماذا حدث؟

تنفست الصعداء وأنا أتأملها. قلت:

_ آه ظننتك العنكبوت الذي كاد يلتهمني بالأمس!

ضحكت من جوابي، وقالت:

_ لكن نحن البعوض لا نخشى الموت. إذا ماتت أحدانا، تحل أخرى مكانها وكأن شيئاً لم يحدث. أتدرين؟ أيضاً حاول حرذون أن يبتلعني ذات مرة. هل أنت غريبة؟

_ نعم!

_ مرحباً بك في ديارنا. لا تقلقي

توقفت برهة وتابعت تقول:

_ بالمناسبة أسمحي لي أن أدعوك إلى حفلتنا السنوية الكبرى التي ينظمها بعوض هذه البلاد

فتذكرت الوطواط وحفلة ضوء القمر، لم أر سبباً لأرد عليها. تابعت عرضها قائلة:

_ سيشارك ملك البعوض، نصره الرب، في هذه الحفلة. سينكح الملك كل البعوضات الحاضرات ثم يختار واحدة لتصبح زوجة له، فتصبحين ملكة الجميع. وبالطبع ستصبحين في حماية ملكنا، نصره الرب...لن يجرؤ أحد أن يمسك بأذى.

_ شكراً للدعوة...أنا متعبة، هذه هي الحقيقة.

فغرت فاها دهشة وقالت:

_ أترفضين دعوة ملكنا نصره الرب؟ تعالي إلى الحفلة ولن تندمي، ستنسين كل همومك وأحزانك. أنا متأكدة من هذا.

_ لا..لا شكراً.

_ ستندمين أشد الندم.

مرّت برهة صمت قلت وأنا أحاول تغيير موضوع الحديث:

_ إذا طلبت منك المساعدة، هل تساعديني؟

_ طبعاً، طبعاً...نحن أسرة واحدة.

_ إني أبحث عن حواء وآدم...أريد أن تساعديني كي أجدهما. صمتت برهة ريثما تستوعب المطلوب منها ثم قالت:

_ هل هما من البعوض؟

استفزني سؤالها فقلت غاضبة:

_ ما الذي تقولين؟ هما من البشر! ما هذا يا بعوضة؟!

_ طيب وما طعم دمهما؟

_ اتسخرين مني؟ ما علاقة دمهما بالرغبة في أن نعثر عليها؟

ضحكت من سؤالي وأردفت تقول:

_ نحن معشر البعوض في هذا الجزء من الأرض نتعرف على البشر بوساطة طعم دمائهم. فهناك فئة الدم البصلي، الدم الفلفلي، الدم الجعوي (جعة) والدم الويسكوي (ويسكي) وفئة الدم الحشيشي،... لكل دم طعمه ونكهته المميزة. وفئة الدم الحشيش...فإذا كان وجبة عشائي من دم شخص دَخَّن الحشيش، أسكر مباشرة وأرى أحلاماً حلوة ولذيذة. عجيب أمرك؟ لِمَ لَمْ تتذوقي دم صديقيك؟...أي نسيت اسمهما، ذكريني...

_ آدم وحواء!

_ أجل! أجل آدم وحواء، كان يجب أن تذوقي دم أحدهما على الأقل...أنا آسفة لكن بدون معرفة طعم دم شخص لا يمكن التعرف عليه أو عليها...

قبل أن أقول شيئاً، ضرب حجر الغصن الذي كنا جاثمين عليه. اهتزّ جسدانا وكدنا نسقط. صرخت مذعورة:

_ ما هذا؟ يا ويلي!

بصوتها الهادئ الرزين أجابتني:

_ لا تخافي! إنهم الأطفال...أطفال يرمون الحجارة على ثمار الكستناء كي تسقط فيأكلونها...هيا نهرب..

وقبل أن أتحرك من مكاني، حلقت بسرعة، ولم يبق لها أي أثر.

اليوم السابع والثلاثون:

_ أنا هنا...صباح الخير.

التفتت نحو مصدر الصوت، رأيت بعوضة على غصن قريب تناديني. قلت:

_ صباح الخير

_ اسمحي لي يا أخت...لقد سمعت حديثكما، أنت والبعوضة الأخرى.

صمتت لحظة كانت أثناءها تحاول أن تقرأ أثر طلبها على وجهي. ثم تابعت:

أنا أعطف عليك يا أخت وأتمنى لك كل الخير. هل ترغبين في أن أخبرك ما أعرف عن حواء وآدم؟

_ طبعاً...طبعاً.

وثبت من مكانها إلى الغصن الذي كنت جاثمة عليه وقالت:

_ علمت من جدتي التي كنا نلقبها: ذات الرأسين نقلاً عن جدتها التي لُقّبَت: ذات الذيلين أن حواء وآدم عاشا على الأرض فعلاً، لكنهما ماتا منذ زمن طويل، بعد أن أنجبا أناسا كثيرين يسكن بعضهم في المدينة القريبة من هذا المكان، و...

قبل أن تتم كلامها قاطعتها قائلة:

_ مستحيل لا أصدق كلمة مما قلت...لقد كنت مع آدم وحواء قبل أيام!!

أطلقت ضحكة ساخرة وقالت باستهزاء:

_ أين كنتم؟

_ في الجنة!

حوّلت إجابتي ضحكتها إلى قهقهة عالية وتابعت:

_ أنت مجنونة!

تملكني غضب شديد فجأة، فصرخت:

_ لا...لا..لست مجنونة، أنت المجنونة. أنا أعرف حواء وآدم جيداً، وكنت غالباً ما أضع رأسي على ركبة حواء وأغفو. كيف تقولين أنهما ماتا منذ زمن بعيد؟

بدا أنها لم تأبه لاعتراضي فهتفت:

_ هل تسمحين لي بسؤال؟

_ تفضلي

_ هل شربت من ماء المستنقع المجاور؟

_ نعم شربت.

_ أيه ماذا أقول لك!!، أتدرين أن كل من يشرب من ماء هذا المستنقع يصاب بالجنون، ففي مائه بقايا حشيش مخدر، وجعة وأوساخ وفضلات أخرى، تفسد الماء، وتجعل كل من يشرب منه يفقد عقله.

توقفت برهة عن الحديث، بينما كنت أتمنى في قرارة نفسي أن يكون ما تقوله غير صحيح. ثم عادت لتقول:

_ صدقيني يا أخت هذه هي الحقيقة بما أنك غريبة فأنت لا تعرفين هذه المنطقة...على أي حال ستجدين في المدينة الكثيرين الذين يشبهون حواء وآدم.

مرّت برهة كانت كافية لتسترجع أنفاسها وتابعت:

_ أعرف بعوضات أصيبت بالجنون جراء شرب ماء المستنقع لكن لم يصل الجنون بإحداهن لدرجة تدعي أنها كانت في الجنة مع آدم وحواء وكانت تضع رأسها على ركبة حواء وتغفو...هذا جنون ما بعده جنون...رأيي...عودي إلى بلدك الأصلي وعيشي مع أمثالك،...كل واحدة منكن تصدق الأخرى والكل في أوهامهن سواء.

أجبتها بحزم:

_ لست بحاجة إلى نصيحتك.

_ لا بأس سأفعل، مع ذلك أقول: احذري آدم وحواء وغيرهما الجدد، أبناء وبنات هذا الزمان، فالكل يريد قتل كل بعوضة يُعْثَر عليها...أنت جميلة وشابة، فلا تخاطري سنحزن حزناً شديداً إذا حدث لك مكروه...فنخسر أطفالك الجميلين والمتفوقين أمثالك.

لم أفهم إلا القليل مما قلته. لذت بالصمت. لحظات بعد ذلك رأيتها تنهض من مكانها قائلة:

_ علي أن أذهب إلى المدينة. أنا جائعة وأعطش. هل تأتين معي؟ سنجد طعاماً وشراباً شهيين.

قبل أن تسمع جوابي، انطلقت وحدها لا تلوي على شيء. لقد كانت متأكدة أني لن أقبل دعوتها.

اليوم الثامن والثلاثون:

يا صديقتي، يا شجرة،

طوال هذا اليوم، لم أكلم أحداً ولم يكلمني أحد. لم أر أحداً ولم يرني أحد. لم أعلّم أحداً ولم أتعلم من احد.

اعرف ما أريد ولا اعرف ما استطيع. اعرف ما كنت عليه ولا اعرف ما سأكون. لني لا اعرف أين أنا، ولا اعرف أين سأكون.

يا صديقتي، يا شجرة،

عبير الفردوس في داخلي أما جسدي فأضحوكة وعبرة في غربتي...في هذا الزمن المر هو زمني، عن يميننا مستنقع وعن يسارنا حجرة، تضربك، تضربني، وأنا لا أملك للحياة إلاّ إرادتي ودموعي وأنت تملكين حباً وثمرة.

اليوم التاسع والثلاثون:

انتهي زمني المر عندما سمعت كلمات الحب الحلوة، رفرف جناحي طرباً وعزفاً ونغماً. عمت البهجة المقام وابتسمت شجرة الكستناء.

هل أنا في حلم؟

رأيت آدم وحواء جالسين، آدم راكناً ظهره على جذع شجرة الكستناء، وحواء مستلقية، رأسها على ركبته. كانا يتحدثان عن الحب همساً.

قال آدم:

_ اعتيادي على غيابك صعب

واعتيادي على حضورك أصعب

آه! كم أنا أحبك؟

حتى أن نفسي من نفسها تتعجب

يسكن الشعر في حدائق عينيك

فلولا عيناك لا شعر يكتب

فردّت حواء باسمة:

_ أظن هذه الأبيات من قصيدة لنزار قباني. أليس كذلك؟

_ صحيح

_ أكمل القصيدة..

_ آسف يا حبيبتي، لا أتذكر البقية.

_ على كل قلت لي ذات مرة أنك كتبت قصيدة. هيا اقرأها لي. لم يدم تردد آدم طويلاً، قال:

جاء حبي جاء

فأفرح يا قلبي

وحبيبي يطرق الباب

فافتح يا قلبي

لتستقبل الأحباب

فافرح يا قلبي

ما كاد آدم يتم قراءة تلك الأبواب، حتى شرعا يضحكان بكل عفوية وبصوت عالٍ.

كنت على كتف آدم أَتأمل شاربيه الدقيقتين، شفتيه القرمزيتين، عينيه السوداوين ووجهه الجميل المستدير.

إنه ليس آدم، قلت لنفسي. كان لآدم لباس من تويجات الياسمين والورد، ولباس هذا الكائن البشري سروال أزرق ضيق وقميص أبيض. كان لآدم لحية، وليس لهذا أية لحية. كأنه آدم لكن ليس آدم الذي عرفته

في الجنة. جذبتني أنفاسه الدافئة كما يجذب النور فراشات الليل. فوثبت نحو عنقه الأبيض. استنشقت عبيراً ذكورياً جعل إبرتي تتصَلّب دون قصد مني، لم تلبث بعد لحظة أن أصبحت كسلك معدني جاهزاً لاختراق تلك البشرة الدافئة التي كانت حبيبات من عرقه تزينها. فقلت أخاطبه: حبيبي أعطني قبلة! لكنه لم يسمع شيئاً. كررت طلبي دون جدوى. على النقيض من ذلك، طبع قبلة عابرة على شفتي حبيبته.

شعرت فجأة كأن ناراً اشتعلت في جوفي. قلت مستعطفة والشهوة تحرقني: وأنا كذلك!! قبلة صغيرة يا حبيبي. لكنه لم يأبه لطلبي.

بغتة، ودون وعي أو قصد من لدني، انغرست إبرتي في عنقه وامتصت جرعة صغيرة من دمه الحار، أنعشتني كما تنعش قطرة ماء بارد زهرة عطشى في صحراء قاحلة. تأوّه من الألم، فرفع ذراعه ثم هوى به على عنقه. لكن قبل أن يحطمني بكفه الثقيل طرت مبتعدة. نهضت حواء على إثر ذلك مذعورة وصرخت:

_ ماذا حدث؟ ما بك؟

لم اسمع جوابه، لأني كنت على غصن من أغصان الكستناء ألحظ وأتأمل وأتلمظ.

اليوم الأربعون:

استيقظت باكراً. اليوم أنا أقوى وأشد عزيمة. تمطيت وأنا استرجع ذكريات الأمس. قلت لنفسي: ما أشهى دمك أنت الذي يشبه آدم!! لذيذ،

منعش، دافئ! لولا دمك لأمسى جسدي كتلك الجيفة التي رأيتها تطفو على سطح المستنقع وهي في طريقها لتكون غذاءً لسمك البحر وحيتانه.

في البدء كان حبي في الجنة. بالحب وحده كنت احيى. هكذا خُلِقْت، هكذا عشت، هكذا كنت. أما هنا، فليس بالحب وحده احيا. هناك عنكبوت يترصدني، ومستنقع قربي ووطواط ينتظر ليلتهمني. فلا تلوموني يا أصدقائي أن كنت تغيرت. سامحني يا آدم، سامحيني يا حواء، سامحني يا ضميري.

نمت باكراً. أما ضميري فلم يتم ولم يهدأ. كان بخشونة يخاطبني ويوبخني: أبهذه السهولة تتحولين إلى مصاصة دماء!! بهذه السرعة تسفكين الدم!! كيف تسمحين يا معلمة الحب والموسيقى والشعر، كيف تسمحين لنفسك أن تتغذي من دم كائن آخر!!

ارحمني قليلاً يا ضميري، ارحمني، أنا ما قتلت، ما نحرت، ولا دماً سفكت. كل ما فعلت، جرعة صغيرة أخذت، قطرة دم امتصصت. أليس من حقي أنا أحيا؟ أنا التي ضحيّت بالجنة، ضحيت بحياتي الفردوسية في سبيل حبي لصديقين لا أعرف أين هما! ارحمني يا ضميري، ارحمني...أين أنت يا حواء؟ أين أنت يا آدم؟...ساعداني أرجوكما باسم الحب، باسم الموسيقى والشعر...وبكيت

اليوم الحادي والأربعون:

منذ أن عرفت بشر الأرض، يعذبني ضميري في يقظتي، والكوابيس تلاحقني في نومي.

كان حلماً. رأيت فيه تلك التي تشبه حواء، ذات الجسد الوردي الذي يقطر حباً وأنوثة جالسة تحت الشجرة. حمل نسيم الليل عبيرها فدوخني. تصلبت إبرتي ثم انتصبت استعداداً لتناول طعام عشاء شهي. اقتربت بتؤدة وهدوء حتى كادت إبرتي تلامس عنقها الدافئ. قلت: أيتها الحبيبة! أنا صديقة حواء، كنت معها في الجنة. الآن أنا في الأرض جائعة ومتعبة ومشردة. أرجوك ساعديني، لا تبخلي عليّ بما عندك منه الكثير. لم تكترث بما قلت. وبينما كنت أنتظر جوابها برز صديقها فجأة من خلفها. كان له شكل عنكبوت ضخم، مجنح وله أذرع ذات مخالب وأشواك حادة. أما جسده فكان مرصعاً بعيون حمراء ملتهبة راحت تحدق بي بصورة مخيفة. سرت قشعريرة في جسدي، فوثبت نحو الأعلى وحلقت. تبعني حيثما طرت: في الفضاء، فوق الشجرة، عبر المستنقع،...حلقنا فوق البحر ثم عدنا نحو الشجرة. مدّ ذراعاً فتاكاً راح يطول تدريجياً حتى كاد يلمسني. نَدّت عني صرخة بصوت مذعور. قلت: ساعديني يا حواء! ساعديني.

حين أفقت كان القمر قد اختفى وتلبدت السماء بسحب سوداء. هبت ريح باردة زادت من هلعي. من حسن حظي، قلت لنفسي: إن كل ذلك كان مجرد حلم. تكررت على نفسي والمطر يتساقط. راح الليل يسخر من خوفي، أما شجرة الكستناء فكانت تضحك من دموعي...

اليوم الثاني والأربعون:

بالأمس رأيتك في حلمي، يا شجرة الكستناء يا صديقتي. رأيتك شجرة مجنحة تطير، وأنا الفتاة الصغيرة، الجميلة ذات الجناحين نائمة بين

أغصانك على سرير من تويجات الزهور، كما كنت في الجنة تماماً. حَلّقْتِ بي فوق جبال الأرض ومدنها وقراها وبحارها وغاباتها. ثم هبطت في صحراء قاحلة فوجدنا حواء وآدم بانتظارنا. فرحنا جميعاً بهذا اللقاء. وبينما كانت حواء تضمني إلى صدرها، كان آدم كالعادة يعبث بلحيته ويتفرّج باسماً، وكانت جذورك تنمو بسرعة هائلة فتخترق الأرض لتستقر فيها. وكانت أغصانك تطول وتطول لتصنع سقفاً أخضر غطى صحاري العالم وجباله وسهوله. أفقت من نومي وناديتك: يا أمي!

يا صديقة، علي أن نرحل. تعالي معي يا ابنة الأرض فلنرحل في اليقظة كما رحلنا معاً في الحلم لعلنا نجد حواء وآدم. تعالي لنرحل، فلن ينقذني من محنتي إلاّ الأحبة...

أنت تعلمين أنك في قلبي كما أعلم أني في قلبك. دليني على الطريق دليني. إني أفهم معنى همساتك وإشاراتك وحديثك الأزلي مع ضياء النهار وظلمة الليل وغضب العواصف والأعاصير. إني أعرف فحوى ابتسامتك وعطائك اللا محدود حتى لأولئك الذين يضربونك ليحصلوا على ثمارك..

لن أقول وداعاً فالأحبة لا يغادرون قلوبنا. سأعود إليك كما يعود خروف إلى أمه بعد أن أضاع الطريق.

اليوم الثالث والأربعون:

_ نملة...يا نملة...

عندما ناديتها توقفت قليلاً وتلفتت حولها، فسألتها:

_ من فضلك...أين الطريق إلى المدينة؟

وضعت جانباً حبة قمح كانت تحملها وأجابتني:

_ يوجد عدة طرق، أحدها للبشر، وآخر للنمل، وثالث للبشر والخيول والحمير.

_ أنا لا أفهمك!!

فأجابت توبخني:

_ ماذا جرى لك يا بعوضة؟ ألا ترين أني والنملات الأخريات مشغولات في نقل حبوب القمح إلى عشنا؟ ليس لدينا وقت نضيعه. لقد تأخر موسم الحصاد هذا العام، وحَلَّ الخريف ولم نستكمل جمع مؤونة كافية للشتاء بعد.

ثم التفتت نحو النملات الأخريات وراحت تخاطبهن:

_ هيا يا (نامولة)، يا عزيزتي، وأنت الحلوة (ينمالا) وأنت يا(ناميلا) يا حبيبة، هيا أسرعن، فالسماء توشك أن تمطر.

إنها ملكة النمل، كانت تسير على رأس صف أسود طويل يتكون من أجساد النملات المنهكات في نقل حبات القمح إلى عشهن.

قلت:

_ ولكنك لم تجيبيني على سؤالي!! أين الطريق الذي أسلكه إلى المدينة؟

_ آه منك يا بعوضة! للمرة الثانية أقول إني لا أملك وقتاً أضيعه معك. نحن جميعاً مشغولات، ألا تفهمين؟ لديك أجنحة، طيري إلى الأعلى، فتظهر كل الطرق واضحة من تحتك!

_ وأيهما أحتار؟

_ إذا رأيت أعمدة من دخان كثيف، سيري نحوها بخط مستقيم وسوف تصلين المدينة...لكن عجباً لماذا تريدين الذهاب إلى هناك؟

طرحت السؤال علي وهي تتفحَّص شكلي باهتمام زائد، وأكملت قائلة:

_ أنت غريبة عن هذا المكان. أليس كذلك؟

_ صحيح، أنا غريبة.

_ وهل تعرفين أحداً في المدينة؟

_ لا...لا أعرف أحداً.

_ م م م...ابق هنا معنا...فهنا أفضل من المدينة ومن هوائها الخانق

_ لكني جائعة! لقد قيل لي أن في المدينة طعاماً وافراً، وهنا لا أملك أي طعام.

_ وما هو طعامك المفضل؟...أقصد ماذا يحب البعوض أن يأكل؟ فعلاً أنا لا أعرف ما تأكلون!

قلت على استحياء:

_ طعامنا المفضل دم البشر!

_ دم البشر؟؟ آه يا ستار يا رب! أشعر بالتقزز أما نحن معشر النمل فطعامنا المفضل هو حبوب القمح الناضجة التي أحمرّت بأشعة شمس الصيف الحارة. أتدرين؟ نحن نجمع حبَّات القمح التي تسقط من أكياس القمح وهي في طريقها من الحقل إلى المدينة. فبدلاً من أن تدوسها أقدام البشر والغنم والبقر، ننقلها إلى أعشاشنا لنأكلها في أيام الشتاء...نحن معشر النمل لا نأخذ شيئاً من مخازن القمح في المدينة إلاّ إذا لم نجد

شيئاً آخر نأكله...تفضلي إلى بيتنا، وسأعلمك كيف تأكلين حبات القمح بدلاً من الدم...

توقفت قليلاً ثم تابعت:

_ عليك أن تتخلصي أولاً من تلك الإبرة من تلك الإبرة المخيفة التي تمتصين الدم بها، ومرحباً بك في عشنا.

كنا وحدنا وشمس الخريف التي غطت وجهها بحجاب فضي من غيمة رقيقة، كانت تراقبنا من بعيد. وكانت ريح الجنوب تثير في جسدي الرجفة تلو الأخرى.

قلت لها:

_ وداعاً

حلّقت بعدها مباشرة واتجهت نحو المدينة، ولا أدري ماذا قالت بعد ئذ.

اليوم الرابع والأربعون:

دخان المدينة دليلي. أنا مسافرة نحو الدخان. لكن لا دخان ولا نار في الجنة. لذا فأنا عن الجنة ابتعد، ومن المدينة اقترب. طرت لمدة طويلة. ولما تعبت سقطت. سقطت على كتف فلاح راكباً حماره، وإلى المدينة حاملاً غلته. لم يرني، لكني رأيته. شمس الصيف حَمّرت وجهه والشيخوخة غضنته. بقماش مزركش غطى رأسه. كان بيده عصاً يلكز بها حماره، وعلى السير قُدُماً يحثه.

_ "أسرع، أسرع يا حماري، لقد سبقتك الحمير"

قال له هذا، ثم ضربه، ثم لكزه. قلت له:

_ لا تضربه، ألا ترى أننا نحن ثلاثة محمولون على ظهره؟ نحن مرتاحون، وهو يعمل وحده. أرفق بالحمار يا راكب الحمار.

لم أر دخان المدينة. رأيت أشجاراً وبغالاً وكلاباً على جانبي الطريق. وفي وسطه رأيت سيارات وعربات بالبضائع محملة. سمعت أصواتاً بشرية غاضبة، وصرخات شاتمة وأخرى تسبح باسم الرب...ها هم البشر!!. وفي كل مكان. بعضهم يحتسي الشاي والقهوة، وبعضهم يلعب النرد وآخرون يدخنون، يتشاجرون، يضحكون ويسخرون.

"هل أنت آدم؟" سألت الفلاح. وأنا أتأمّل قسمات وجهه. كررت السؤال لكن لم ينبس. فقلت لنفسي "انه ليس آدم! فلم يكن آدم يركب حماراً ولآدم لحية كثة، وهذا البشر لا لحية له. من الأفضل أن أسأل الحمار بخفة تامة نحو أذنه قفزت وعليها وقفت ثم فيها همست:

_ صباح الخير يا حمار!

_ صباح الخير يا بعوضة.

قالها بلطف، بلع ريقه وأردف يقول:

_ رأيتك على كتف صاحبي تتحدثين إليه، وخشيت أن يضربك بعصاه، إنه يتقن حرفة الضرب جيداً. آه، يا بعوضة، يا صديقه، في فخذي جرح يؤلمني ليل نهار بسبب ضرباته الموجعة.

_ وماذا تفعل لتدافع عن نفسك؟

فضحك ساخراً من سؤالي وقال:

_ أدافع!! وماذا يمكن أن أفعل مع بشر شعاره الضرب للحمير؟ لكن صدقيني هو وحده يستحق الضرب. إنه كسول، لا يعمل شيئاً طوال النهار...أنا وحدي أنقل الخضروات إلى السوق، والماء إلى الدار، وأحمله وزوجته وأولاده للنزهة ولزيارة أسواق المدينة...ومع هذا لا يكف عن ضربي باستمرار يقولون أني لا أفهم...ولكني أفهم كل ما يقولون، لكن لا أستطيع الكلام معهم، كما الآن أنا أتكلم معك.

كان ضجيج السوق من حولنا يكاد يصم آذاننا. بعد تردد قلت:

_ عندي سؤال، هل تجيبني عليه؟

_ طبعاً، أنت صديقة، اسأليني أي سؤال.

_ هل تعرف أين أجد آدم وحواء؟

_ أجل! أجل...بالأمس ولد لأحد الجيران توأمان، ذكر وأنثى أسماهما آدم وحواء. استطيع أن أدلك على بيتهما.

ندَت عني ضحكة مفاجئة، لم يستسغها فقال معترضاً:

_ لم تضحكين؟ أنا أتكلم بجدية.

_ لا شيء...دعنا من هذا!

_ ولماذا؟ عجيب أمرك يا صديقتي، تسأليني عن آدم وحواء، ولما أقول أني مستعد لأن أقودك إليهما ترفضين!!

وبينما كنا نتبادل نظرات العتاب والاستغراب، اغرورقت عيناه بالدموع وبكى. فقلت بدهشة:

_ لِمَ تبكي يا صديقي؟

_ ألم تسمعي؟

_ ماذا أسمع؟

_ أصغي جيداً...

ترامى إلى سمعي نهيق أتان من الجهة الأخرى للسوق. فقال متنهداً:

_ إنه صوت حبيبتي، حبيبتي الوحيدة على الأرض تناديني.

_ هيا أجبها يا حمار، سيسعدها بلا شك أن تسمع صوتك..

فقال هو يتنهد:

_ لا أستطيع!...لا أستطيع!

_ لماذا؟

_ لأن صاحبي سيضربني بتلك العصا التي بيده. هو لا يحب سماع صوتي أبداً...أنا محروم من الحب يا صديقتي، محروم من العطف، محروم من كل شيء...تصوري أن الحب ممنوع في هذه المدينة...حتى الحمير لا يسمح لها أن تحب!!

وتابع:

_ مع كل هذا أنهق يا صديقي، أنهق سواء أعجبهم هذا أم لم يعجبهم!

_ هيا أدخل السرور على قلب حبيبتك.. هيا.. فرفع رأسه إلى الأعلى، وكشّر عن أسنانه وأصدر صوت نهيق للحظات. فما كان من صاحبه إلاّ أن انهال عليه بالعصا صائحاً: أسكت...أسكت.

عند هذا شعرت بالدم يفور في رأسي وقلبي واجتاحتني نوبة من الغضب لم تمر على من قبل، وقلت:

_ أنا مسافرة، وداعاً.

_ إلى أين؟

_ سترى حالاً، ربما نلتقي ثانية.

قفزت إلى عنق الفلاح الذي مازال ينتظر دوره لتسليم غلته، فملأت رائحة العرق والغبار منخري. ودون انتظار غرست إبرتي في الجلد الأسمر وشطفت جرعة من دمه. صرخ من الألم. وما إن سقطت قبضته على عنقه في محاولة لقتلي، حتى فقد توازنه فسقط على الأرض. هرع شباب ومراهقون وأطفال نحوه وراحوا يضحكون ويسخرون، بينما كنت أراقب من عل ما يجري على الأرض من تحتي.

اليوم الخامس والأربعون:

أنا في المدينة، على غصن شجرة أكاسيا يطوقها الصخب والبشر والغبار. لست جائعة، فمازال في فمي آثار من دم ذاك الذي ضرب حماره لأنه غنى لحبيبته.

كنت منهكة فغلبني النوم. وفي نومي عدت إلى ما قبل أن تحل لعنة الرب عليَّ. أمسيت في حلمي تلك الفتاة، أنا، ذات الجناحين. كنت في حفلة موسيقية لحمير الجنة. وكانت أغنيتي رقيقة أدخلت السعادة والأمل إلى قلوب تلك الكائنات التي تضرب وتحرم من التعبير عن الحب وممارسته:

يا حمير الجنة اعملوا...اعلموا.

حتى أحلامكم تُحَقِّقوا

لا تهنوا، لا تيأسوا

فالمستقبل لكم إن صممتموا

فكل حمار لا اسم له

يصبح "الباشا" اسمه
نهيقه يبقى نهيقه
لكن بأنغام حلوة يعزفه
مخاطباً، مغازلاً من يحبه
يا حمير الجنة اعملوا...اعملوا...
حتى أحلامكم تحققوا
لا تهنوا لا تيأسوا
فالمستقبل لكم إن صممتموا
هيئة الحمار تبقى له
وكذلك طعامه وشرابه
لكن تتطور طباعه
فمن حمار يحمل أثقالاً
إلى حمار يبحث عَمّن يحمله
ومن حمار لا رأي له
ومن حمار مستضعف
إلى حمار قوي يأمر
يا حمير الجنة اعملوا...اعملوا.
حتى أحلامكم تحققوا
لا تهنوا، لا تيأسوا...
فالمستقبل لكم إن صمَّمتم

غير أن نومي لم يدم طويلاً. استيقظت على صوت وطواط كان يخاطبني غاضباً، قال:

_ أنت يا بعوضة النائمة...استيقظي. لقد أزعجتني بغنائك.

استيقظي...تنام الحشرات لترتاح وتريح، أما أنت!!...آه منك! تملأين الدنيا بأصواتك.

قلت وأنا بين النوم واليقظة:

_ اعذرني...لكن كان حلماً لذيذاً.

_ أحلمي كما تشائين، بدون أن تزعجي الآخرين.

فنحن معشر الوطاويط ننام في الشتاء ونستيقظ في الربيع فإذا...نشعر بجوع شديد...آه.إني جائع، إني جائع.

_ اذهب وابحث عن شيء لتأكله...

_ لا أستطيع، أنا نائم وجائع...جائع.

_ وماذا يجب أن أفعل لمساعدتك؟

_ ها قد فتحت فمي...هيا أدخلي إلى فمي، ومنه إلى معدتي...حتى لا أموت جوعاً.

ضحكت ساخرة وقلت:

_ هذا مستحيل...كن مثل النملة التي تخبئ طعاماً من فصل الصيف إلى فصل الشتاء...وداعاً...أنا ذاهبة.

_ إلى أين؟ أنت المسؤولة عن حالتي...لا تهربي مني يا ملعونة...لن تفري مني أبداً...سأبحث عنك وسأجدك أينما كنت وسأقتلك وآكلك...آه...إني جائع...جائع...

قال هذا بينما كنت على غصن بعيداً عنه أراقبه وأضحك.

اليوم السادس والأربعون:

إني في المدينة، وإني أبحث عن أحبائي. أنا بعيدة عن المستنقع والظلام ونباح الكلاب. أحب المدينة. أحب لياليها المضيئة وصخبها وحركتها وأبنيتها الشاهقة. وأعرف أن لا مثيل لهذه المدينة في الجنة. هذه هي مدينة الأرض، صنعها آدم وحواء ومن تبعهما من البشر.

أقف على غصن شجرة الأكاسيا وأصغي إلى زقزقة العصافير وهي ترحب بشروق الشمس وتودعها عند المغيب. أعود إلى مخبأي في ساق الشجرة. تنعشني زهورها الخريفية الذابلة المحيطة بي فأغفو. تطاردني أحلام وكوابيس الليل فاستيقظ قبل الفجر. أتسلل إلى مطعم صغير على رصيف الشارع. آكل شيئاً وأشرب دون أن يرني حارس الليل.

إني في المدينة،.. إني أبحث عن أحبائي. أرقب البشر يسيرون في اتجاهات عدة، زرافات ووحدانا، ضاحكين، باسمين ومبتهجين أو عابسين. أتأمل الوجوه، ويراودني السؤال: كيف تمكَّن آدم وحواء من إنتاج هذه الجموع الفقيرة؟ أفكر بجواب، لكنه يَفِرُّ مني في كل مرة.

آه، هذا وجه يشبه وجه آدم! لكن أين اللحية الظريفة، الجميلة، وأين اليد التي تعبث دوماً بها. وذاك وجه حواء، أقول لنفسي. لكن لِمَ اختفت ابتسامتها الفضية التي تزيل الكرب عن قلبي! لا،لا أنا واهمة. فأغوص في بحر اليأس تارة، ويدفعني حبي إلى شاطئ الأمل، تارة أخرى.

تعيش المدينة طقوس الحياة، وأنا أعيش طقوس العزلة والخوف من الحياة. أتوق إلى قبلة من وجنة، من عنق أبيض جميل، من شفة دافئة رقيقة، واهتز هلعاً من صورة قبضة عنيفة تهوي عليَّ فتحطمني.

أتوق إلى هيئتي الأولى وأتذكر زماني الأول، أتمنى أن أعيش مثل حواء الأرض، أتجول حيثما أشاء، أمرح، ابتسم، أحب، أقبّل،....لكن هيهات!...هيهات!

أعود إلى نفسي وأتأمل فيما أنا عليه...ثم أجهش في البكاء.

اليوم السابع والأربعون:

صرخت في الظلام:

_ عنكبوت...عنكبوت يا ويلي!

لكنه لم يكن عنكبوتا. كان فحيحاً لأفعى ضخمة تتسلل بين أغصان الأكاسيا. في طريقها إلى مسكني. قفزت في الهواء وأنا أسألها بصوت مرتجف:

_ ماذا تريدين مني؟

لم تأبه لسؤالي، بل راحت تخبئ جسدها الطويل شيئاً فشيئاً في مسكني، داخل جذع الشجرة حتى لم يبق إلاّ رأسها المثلث الشكل بارزاً، تلمع فيه عيناها الصغيرتان كأنهما نقطتان ضوئيتان.

_ لِمَ استدليت على مسكني يا كوبرا؟

سألتها محترمة.

_ هذا ليس مسكنك! اسكتي يا بعوضة!

_ إذن هو مسكن من؟

_ وليس مسكني أيضاً!!

_ وكيف ذلك؟ لا أفهم شيئاً من كل هذا الحديث!

_ هذا مسكن صنعه صديقي الطائر نقّار الخشب. فكيف سمحت لنفسك أن تستولي عليه دون موافقة صاحبه؟

_ وهل سمح لك أن تأخذيه؟

_ نعم! بالتأكيد. لقد حدثني عنه بعد أن ألقى الحراس القبض عليه وأرجعوه إلى سجنه.

تبادلنا للحظات طويلة نظرات مريبة قلت بعدها:

_ هل كنتما في السجن معاً؟

_ صه! لا ترفعي صوتك لئلا يسمعنا حراس السجن، فهم بلاشك يبحثون عني.

_ ومن هم أولئك الحراس؟

حدّقت في وجهي ملياً ثم قلت:

_ أأنت غريبة، يا بعوضة؟

_ نعم، أنا غريبة!

_ مرحباً بك في هذه المدينة، لكن قبل أن أجيبك على سؤالك هيا طيري إلى الشارع تحتنا قليلاً وانظري إذا كان هناك أحد يراقب هذه الشجرة.

كنت على وشك أن أرفض غير أن سحنة وجهها المأزوم ولسانها الذي يظهر ويختفي أفزعاني. لذا نفّذت ما طلبت فوراً وعدت إليها قائلة:

_ لا أحد في الشارع.

_ شكراً لك. اقتربي مني فأنت صديقتي من الآن فصاعداً، لا تخافي مني.

_ لكن لسانك يخيفني. أخشى أن يلدغني.

_ لا عليك! يظن البشر أن الكوبرا تلدغ كل من يقترب منها....هذا كذب وجهل...أنا لا ألدغ إلاّ من يؤذيني أو يحاول أن يؤذيني...اسمعي، أريد أن أنام، فأنا منهكة بسبب الركض والزحف والقفز مدة ثلاثة أيام متتالية، سنتابع حديثنا غداً.

_ أنت تنامين داخل المسكن، أما أنا فأين أنام؟

قلت معترضة، فضحكت من سؤالي وقالت بلطف:

_ يمكن أن ننام معاً، فالمسكن واسع وعميق، يتسع لكلينا. ثم أردفت تقول:

_ أنت بعوضة طيبة...يمكنك أن تنامي على رأسي فجسمك صغير لا يثقل علي، وسأخبأ لساني، ولن ألدغك أبداً. ثقي بي.

_ لا! لا مستحيل.

فقالت بدهشة بالغة:

_ ألا تصدقينني؟

_ بل أصدقك...ولكن...أقصد أن أقول...أننا معشر البعوض معتادون على لدغ الآخرين لنحصل على غذائنا منهم...أخشى إذا نمت على رأسك، أن أتعشى من دمك. أنا جائعة، إذا أخطأت وأخذت شيئاً من دمك، فستقتلينني وتقطعين جسدي إرباً.

قهقهت لما سمعت مني وقالت:

_ حتى لو لدغتني فلن أغضب...أعتبر ذلك مداعبة من صديقة صغيرة جداً وجدت دمي شهياً، اطمئني لن يؤثر ذلك بي أبداً.

بعد تردد، طرت ثم هبطت على رأسها وأنا أرتجف. قلت لها وأنا أستنشق رائحة جلدها والدم الساخن تحته:

_ أريد أن أخبرك شيئاً!

_ تفضلي.

_ رائحتك يا صديقتي تشبه رائحة حواء. حقاً أن هذا لأمر غريب جداً!!

اليوم الثامن والأربعون:

الضّيفة التي قدمت لي رأسها فراشاً ناعماً ودافئاً لليلة كاملة مازالت تغط في النوم. أما أنا فقد أيقظني الجوع. فتحت عينيَّ وصرخت:

كوبرا...كوبرا...استيقظي.

فردت بصوت نائم:

_ ماذا تريدين؟

_ أشرقت الشمس وأسمع صخباً في الشارع.

فتحت عينيها وتأهبت للقفز والهروب.

لكني أضفت قائلة:

_ سأنزل إلى الشارع لا ستطلع ما يجري. فإذا كانت الأمور عادية سأنتقل إلى المطعم المجاور لآكل شيئاً ثم أعود. لكن الكوبرا ألقت علي نظرة عتاب وتساؤل وقالت:

_ ماذا قلت؟ تذهبين إلى المطعم؟

_ نعم! أنا جائعة. آسفة إني لا أستطيع حمل شيء.

_ لست جائعة الآن. أنا متعبة فقط. ليتني أستطيع النوم حتى الليل.

ثم أردفت:

_ اسمعي! لا تذهبي إلى المطعم؟

_ لماذا؟ هل عندك شيء يصلح للأكل؟

_ طبعاً عندي فطور رائع لك.

فاعترضت على قولها قائلة:

_ آه يا كوبرا...ليس الوقت مناسباً للفكاهة!

_ إني لا أمزح.

_ كيف ذلك؟ لا أرى أي طعام حولنا!!

_ اذهبي أوّلاً وانظري ما يجري تحتنا، ثم عودي فتجدي فطورك عندي جاهزاً...هيا.

في الشارع لم أجد إلاّ شاباً يقرأ إعلاناً ملصقاً على جذع الشجرة جاء فيه:

"احذروا...احذروا...هربت أفعى سامة من نوع كوبرا من حديقة حيوانات المدينة...مكافأة قدرها 500 دولار لكل من يقبض عليها حيّة، أو يدلي بمعلومات تؤدي إلى القبض عليها. إذا شاهدتموها اتصلوا بأقرب مركز للشرطة".

رجعت إلى الكوبرا وأخبرتها بما رأيت وسمعت فقالت:

_ شكراً...أشعر بالطمأنينة الآن...هيا إلى الفطور.

طيري على جسدي واغرسي إبرتك في أي نقطة منه تشائين وخذي حاجتك من دمي...هدية مني إليك.

أذهلني عرضها الكريم، فتلعثمت وأنا أعقب على ما قالت:

_ يا للمفاجأة! لكن...أقصد...لكني لم أذق دم كوبرا من قبل. أنا غير متأكدة من أني أحبه...وأيضاً...أنا خائفة.

_ هيا لا تخشي شيئاً...دمي لذيذ جداً...

_ لا...لا أريد.

_ لا تغضبيني يا بعوضة، أنت صديقة...هياًّ

هبطت قرب عنقها. غرست إبرتي في الجلد الدافئ (الذي يذكرني برائحة حواء) وارتشفت جرعة، توَقفّت إثرها، متوقعة رد فعل غاضب أو عمل مجنون. على العكس، شرعت الكوبرا تضحك بأعلى صوتها. قلت:

_ عجيب أمرك!! ألم تشعري بالألم؟

_ يا حسرة! إنها مجرد مداعبة خفيفة ولذيذة يا بعوضة، هيا خذي جرعة ثانية وثالثة وأكثر...حتى تشبعي تماماً.

_ وأنت ألست جائعة؟

_ لا! فقد تناولت وجبة كبيرة قبل هروبي من سجني في حديقة الحيوانات..

سكتت قليلاً وأضافت:

_ فالمكافأة التي أُعلن عنها ستجعل كل سكان المدينة يبحثون عني..لذا أنا بحاجة إلى أن تكوني قربي ما دمت نائمة. أيقظيني حالما تشاهدين أناساً يحيطون بالشجرة، أو أحد يحاول تسلقها.

قلت وأنا أتلمظ بالدم الحار المنعش:

_ سأفعل! نوم الهناء يا كوبرا...يا صديقة.

اليوم التاسع والأربعون:

معدتي لم تهضم ذاك الفطور. فهي لم تألف دم الأفاعي طعاماً أو شراباً. أحسست بألم شديد كسكين يضرب بطني وصدري. تبعه خدر تسرّب إلى رأسي وأطرافي، ثم تشنجات التقيُوء فنوبة سعال حاد شعرت خلالها كأنّ قلبي على وشك أن يخرج من صدري. أخيراً تقيّأت دماً أسود اختلط بسائل أصفر كريه الرائحة، بعدها خَفّت وطأة السّعال وبدأت أشعر ارتياح عام. ألقيت نظرة على الكوبرا وقلت مخاطبة نفسي:

_ هذه النائمة في بيتي متطفلة لم أدعها. احتلت مسكني، طردتني استبعدتني لأخدمها وأحرسها بينما هي تغط في لذيذ نومها.

يا ويلي! ها قد أصبحت كائناً مثلثاً على شاكلة رأسها. جذوري من لدن الرب، وهيأتي من لعْنة عليّ أنزلها. في قلبي، في عروقي يسري شيء من الأفعى ومن دمها. هذه لعنة أخرى تحل بي أنا التي صنعْتها.

اقتربت منها ورحت أتأمل وجهها، الوجه الذي لم أرغب قط أن أنظر إليه. كانت تتلمّظ وهي نائمة. فحيحها الذي كان يقوى ويضعف بين آونة أخرى، كان يزيدني هلعاً. فجأة فتحت عينيها وسألتني:

_ بعوضة...كيف تسير الأمور؟

_ كل شيء على ما يرام.

_ هل شاهدت أحداً يقترب من الشجرة، أو يحاول التسلق عليها؟

_ لا، أبداً.

بعد ذلك ألقت نظرة خاطفة عَليَّ وسألتني:

_ لماذا وجهك شاحب؟

_ لا شيء...أشعر ببعض التعب جرّاء مراقبة ما يدور حولنا طوال النهار!

_ تعالي، سأخرج لأحرّك جسدي وأتمطى، نامي في المسكن لترتاحي، فأمامنا الليل بطوله.

_ لا! لا! أفضل أن أنام داخل زهرة من هذه الزهور حولنا فلها عبير يريح أعصابي.

بينما كان جسدها ينسل شيئاً فشيئاً من المسكن، وتتمدد على طول غصن قريب، وَلُجت إلى داخل زهرة أكاسيا واختفيت عن نظرها. قلت لنفسي قبل أن أغفو:

_ ينبغي أن أغسل جسدي وروحي من كل آثارها، حتى ألقى أحبتي في مكان ما على هذه الأرض التي نفانا الرب إليها.

اليوم الخمسون:

كان فراشي هذه الليلة من تويجات الأكاسيا. استقبلتني احتضنتني وبقطرات الندى غسلتني. شربت منها حتى ارتويت وتناولت طعام عشائي من غبار طلعها المعطر فنمت بهدوء.

رأيتني أعود إلى ما كنت عليه. وقفت على شرفت قصري وبجناحي عزفت. رأيت زهرة الأكاسيا تنمو، تتسع وتمتد حتى صارت زهرة عملاقة

فضاؤها يغطي الأرض من مشرقها إلى مغربها. عزفت وعَزَفَ معي سكان الأرض وحيواناتها وطيورها وحشراتها.

بينما كنت في قلبي حلمي، لعلع صوت الكوبرا من الخارج يدعوني. قالت:

_ لقد تجاوز منتصف الليل يا بعوضة، وأشعر بالوحدة. تعالي لنتحدث قليلاً.

خرجت ببطء من الزهرة، وأنا أتحاشى النظر إلى وجه الكوبرا. فأردفت تقول:

_ ألا توافقيني أنك أوفر حظاً مني؟ فلا توجد زهرة تتسع لجسدي الطويل، فليس لي إلاّ كهف صنعه نقار الخشب ذات مرة، أما أنت..

توقفت فجأة، قهقهت وقالت:

_ أخبريني...ألم تري حلماً؟

قلت معترضة على سؤالها:

_ أحلامي ملك لي، ولا أريد أحداً أن يشاركني بها.

_ ولماذا؟

_ الحلم يتلاشى إذا تحدثت عنه، وأنا أريد حلمي أن يبقى معي.

_ أما أنا فأرغب أن أتحدث عن أحلامي...أتدرين؟ أن أي حلم من أحلامي يكون دوماً حول آخر حدث مررت به قبل النوم..

_ لا أفهم ما تقصدين؟

_ مثلاً عندما نمت بالأمس، حلمت بحديقة الحيوانات التي كنت فيها...والآن بما أننا نحن معاً فلن أراك في حلمي حتى تمضي أيام عديدة

_ اسمعي يا كوبرا...لقد ذكرت حديقة الحيوانات "مرات عديدة. ما هي حديقة الحيوانات؟ فأنا لا أعرف عنها شيئاً!

_ اسمعي، باختصار، حديقة الحيوانات أرض شاسعة عليها أقفاص حديدية ضيقة داخلها حيوانات حزينة تتألم بينما يمر عبرها أناس كثيرون ينظرون إليها، يتحدثون ويضحكون.

_ وأنتِ؟ كيف عشت هناك؟

_ كان قفصي سجناً مصنوعاً من زجاج شفاف صلب. وكان ضيقاً، فلم يكن باستطاعتي أن أمد كامل جسدي فيه ولا يمكن أن أتحرك حسبما أرغب، لذا كنت دوماً وأنا داخله غاضبة وحزينة.

شعرت بالعطف نحوها فقلت باهتمام:

_ هيا تابعي، وبعد ذلك؟

_ ذات مرة أثار غضبي شيخ، كان معه طفل يمسك بيده. تأملني الشيخ ملياً، كشر عن أسنانه المهترئة وقال للطفل: انظر يا ولدي هذه حية الكوبرا...أنظر إلى لسانها المخيف، وكيف تلعب به...لسان كله سم...تقتل به كل من يقترب منها...الكوبرا يا ولدي حيوان لا نفع منه...الخروف والدجاجة والأرنب كلها حيوانات مفيدة لأننا نستطيع أن نأكل لحمها، أما الكوبرا فلا يأكل لحمها، لذا لا فائدة منها.

أغضبني كلامه بشدة، فانتصبت واقفة في القفص ورحت أضغط على الزجاج بكل ما أوتيت من قوة لعلي أستطيع كسره لأخرج حتى أفتك بهذا الشيخ. لكني لم استطع كسر الزجاج أبداً، فسقطت على أرضيته مقهورة

وباكية...هكذا هم البشر يا بعوضة، لا يحبون شيئاً إلاّ إذا كان فيه فائدة لهم فقط.

ابتسمت وقلت لها بهدوء:

_ لكن لا داع للغضب يا كوبرا...فلو كان لحمك يؤكل، لما أبقاك البشر على قيد الحياة حتى الآن.

_ صحيح! لم يخطر هذا ببالي...شكراً.

_ وبعد ذلك؟ كيف وصلت إلى هنا؟

_ يوجد عامل يجيء كل صباح ليقد لي الطعام وينظف القفص. لقد جاء منذ أيام كعادته حاملاً سلة الطعام. وبينما كان يحاول نقل الطعام إلى القفص، نسي بابه مفتوحاً، قفزت بغتة قفزة عالية، فكنت في لحظات خارج القفص. ركضت بأسرع ما يمكنني باتجاه شجيرات وأعشاب اختبأت داخلها حتى الليل. وفي الظلام الدامس تسلقت جدار الحديقة ووثبت منه إلى الشارع، رحت بعدها أجري على غير هدى حتى وصلت إلى هنا..

اليوم الحادي والخمسون:

بعوضة تبحث عن آدم وحواء، وأفعى تبحث عن الحرية هي هاربة من سجن المملكة، والأخرى من الجنة منفية.

* * *

قلت: يا كوبرا!

قالت: نعم يا بعوضة.

_ هل رأيت أو سمعت بآدم وحواء؟

_ نعم! رأيت آدم.

_ عظيم، أخبرني عنه، وأين ألقاه من فضلك.

_ لماذا أترغبين في الزواج منه؟

_ لا...لكنه صديق عزيز.

_ هو ليس بعيداً من هنا.

_ خذيني إليه أرجوك.

_ هل أنت متأكدة من أنك ترغبين في لقائه؟

_ نعم بالتأكيد.

_ أما أنا فلا أرغب بذلك...اسمعي اذهبي وحدك إلى المكان الذي هربتُ أنا منه، وستجدينه هناك.

_ لكن لِمَ لا تريدين لقاءه؟

_ هو لا يعجبني، كما أني لا أحبه.

_ لماذا؟

_ لأن له رائحة الفئران الميتة.

_ ماذا تقصدين بذلك؟ ماذا يفعل بالفئران الميتة؟

_ يأكلها.

(أصابتني كلماتها بنوبة هستيريا، جعلتني أبكي ثم أضحك)

_ آه يا بعوضة! ماذا حَلّّّ بك يا صديقة؟ تبكين وتضحكين في آن واحد، هل جننت؟

_ بل أعتقد أننا، مجنونتان!

_ أنا لست مجنونة! لماذا تعتبرين نفسك مجنونة؟

_ لا شيء...لاشيء..

_ آه! ما المشكلة لديك مع آدم؟ ربما تبحثين عن ذكر_البعوض، لأنك تريدين أحداً من جنسك!!

_ لا! آدم الذي أبحث عنه ليس ذكر_البعوض، وليس له أي علاقة بالبعوض أبداً.

_ أنا آسفة،...أعتقد أن سوء تفاهم كبير قد حصل بيننا.. على أية حال دعيني أخبرك، أن آدم الذي قصدته هو زوجي الذي طلقته...قصتي مع آدم بدأت عندما أعجب زوّار حديقة الحيوانات بجمالي وذكائي، فقدموا عريضة إلى مدير الحديقة يطلبون بها أن يزوجني حتى أنجب عدداً من أفاعي الكوبرا الجميلة والذكية، ليوزعوها على حدائق الحيوانات في العالم حتى يتمتع الزوار بمشاهدتها والتفرج عليها، هكذا وضعوا ذكر_الكوبرا الذي سموه آدم في قفصي أملاً أن نتعارف ثم نتزوج ثم ننجب الكثير من حيات الكوبرا، لكني رفضت آدم هذا رفضاً باتاً.

_ لماذا رفضته؟

_ سبق أن قلت أنه لا يأكل....

_ لماذا رفضته؟

_ سبق أن قلت أنه لا يأكل إلاّ الفئران الميتة، وأنا أكرهها. فبدأت سلسة من المعارك بيننا ليلاً نهاراً، شاهدها الآلاف من زائري الحديقة، وأخذوا صوراً تذكارية وأفلاماً خاصة عندما كنت أحاول أن أعضه وهو يحاول أن يعضني. بعد أسبوع من العراك تمكنت من إصابته بجرح عميق في عنقه.

_ وبعد ذلك؟

_ دعا مدير الحديقة خبراء الأفاعي في المملكة إلى اجتماع طارئ لدراسة هذه المشكلة العويصة، وقال كبيرهم أنه متأكد أن لا وجود لأي حب بيني وبين آدم، لكن توجد كراهية شديدة. وأخيراً بعد نقاش طويل اتفق جميع الخبراء على أن الحل الأمثل هو أن يفصلونا عن بعضنا. وقد تم ذلك بالفعل، فنقلوا آدم إلى قفص آخر، وبقيت وحدي في قفصي الذي هربت منه. تلك هي قصتي مع آدم يا بعوضة هل أعجبتك؟

_ كفى...كفى أرجوك. دعينا نعود إلى قصة حياتك، أخبريني كيف استطاعوا أن يمسكوا بك ويضعوك في القفص الزجاجي؟

_ أنا متعبة الآن، فلنرجئ الحديث حتى يوم غد. ليلتك سعيدة يا بعوضة!

اليوم الثاني والخمسون:

قلت والغيرة تنهش قلبي:

_ أنت محظوظة يا كوبرا. يحبك البشر ويريدون التفرج عليك ويبحثون عنك إن أضاعوك...أما أنا، يا صديقتي فلا أحد يرغب أن يراني ولا أحد يريد أن أقترب منه. خلقت في مستنقع، وجئت وأنا مختبئة في أذن حمار. إذا حدث أن رآني أحد، يسارع في تحطيم جسدي...حتى في حديقة الحيوانات لا يوجد قفص لعرض البعوضات، لأن أحداً لا يرغب في رؤيتنا أصلاً...

_ صحيح يا بعوضة!

_ لو لم تكن الكوبرا جميلة، لما اهتم بها أحد!

لو لم تكن الكوبرا لطيفة، لما خافت بني البشر

هكذا حال الدنيا، السجن للجميلة، والحرية للقبيحة.

توقفت قليلاً، ثم تابعت قولي ساخرة:

_ ألا ترين يا كوبرا إني حرة، ومتحررة من كل بني البشر. فلا أحد يهتم ببعوضة سواء كانت حرة أم سجينة. ثم أجهشت في البكاء حزناً على حالي.

فقالت الكوبرا:

_ لا تبكي أيتها الصديقة...على كل حال، اسمعي سأخبرك بقية قصتي، وبعد ئذ إما نفرح معاً أو نحزن معاً. ما رأيك؟ قلت وأنا أحاول تجفيف دموعي:

_ لا بأس...لا بأس..

_ نشأت في بلاد بعيدة اسمها الهند. وكانت البداية ذات ليلة في حفل زواج جماعي لأفاعي الأدغال، التقى أبي بأمي داخل أجمة متشابكة من أشجار جوز الهند، فوقعا في الحب مباشرة منذ النظرة الأولى، وتزوجا تلك الليلة. بعد أسابيع وضعت أمي بيضة واحدة فقط كنت أنا بداخلها. ولحرصها على ما في داخل البيضة، حفرت حفرة في تفاحة وخبأت البيضة تحت طبقة كثيفة من أوراق الشجر الجافة، ثم غادرت المكان مع أبي لقضاء شهر اللذة، والبشر في الهند يسمونه شهر العسل، ولا أدري لماذا.

قلت مقاطعة:

_ أما نحن معشر البعوض فنحب حفلات الرقص في ضوء القمر. فتأتي طيور الليل لتصطادنا الواحدة تلو الأخرى، ومع ذلك ننتظر نور القمر بفارغ الصبر لنرقص ونموت معاً.

_ طيب... لكن اسمعي بقية قصتي يا صديقة!

_ آسفة للمقاطعة!

_ من عادة فقراء الهند أن يخرجوا في الربيع بحثاً عن بيضات الأفاعي. وحدث أن طفلاً ووالديه خرجوا إلى الغابة لهذا الغرض، فعثر الطفل على التفاحة التي كانت البيضة فيها والتي كنت في داخلها. جاءوا بالبيضة إلى بيتهم في قرية فقيرة ثم وضعوا البيضة في داخل جزة من الصوف حتى البرد لا يؤذيني. ولما حَلَّ الصيف صنعوا بيتاً صغيراً من أوراق وزهور اللوتس وخبأوني فيه، وشرعوا يعزفون على المزمار، واحداً تلو الآخر ويغنون لي حتى أخرج من البيضة:

هيا يا كوبرا...هيا،هيا!

أيتها الأفعى العزيزة...

نحن بانتظارك...

أكسري البيضة وأخرجي،

أكسري البيضة وأخرجي

البيت بيتك،

والأهل أهلك

تعالي لترقصي معنا

ونعزف لك على مزمارنا...

نحن بانتظارك، نحن بانتظارك.

وأخيراً خرجت وأنا أتمايل على أنغام المزمار، فعمّت الفرحة في الأسرة والحي بأكمله. راح الجميع يرقص طرباً. ولما كبرت، شرع صاحب البيت وابنه يخرجاني إلى السوق لأرقص على أنغام المزمار للمتفرجين مقابل بعض الدراهم يستخدمها لإعالة الأسرة، وعشت معهم سعيدة.

كانت الزوجة امرأة جميلة، وعطوفة وعازفة على المزمار كزوجها. كانت تغسلني وتطعمني وتسقيني، وتحافظ عليَّ من البرد. وما زلت أشعر بآثار يديها اللطيفتين على ظهري وصدري ورأسي. وأنا أحبها جداً جداً جداً.

قلت مقاطعة:

_ ما اسمها يا صديقتي؟

_ الجميع يناديها حواء.

قلت بدهشة بالغة:

_ حوّاء حوّاء قلتِ؟

_ نعم حواء

_ خذيني إليها أرجوك.

_ مستحيل. إنها بعيدة جداً..

_ إذن كيف استطعت أنت المجيء إلى هنا؟ وأنت بلا أجنحة!!

_ بالطائرة.

_ قلت الطائرة؟ وما هي الطائرة؟

_ الطائرة طير من الحديد كبير جداً جداً جداً؛ في صدره باب يدخل الناس منه إلى قلب الطائرة، ثم تطير حاملة إياهم إلى مكان بعيد جداً جداً جد.

_ أما لأنا فلي جناحان، وأستطيع أن أطير بها إلى الهند، إلى حوَّاء.

_ مستحيل...تموتين على الطريق، فالهند بعيدة، بُعْدَ القمر حسبما أظن..

ذكرتني كلماتها برحلتي الأبدية إلى ينابيع الموسيقى والحب والشعر، فانقبض قلبي حزناً. قالت:

_ ماذا بك يا عزيزتي؟

_ لا شيء...لا شيء، أرجوك أكملي القصة أنا متشوقة لأسمع بقيتها...

_ لكني أصبحت متعبة، وحزينة أيضاً.

_ لماذا؟

_ لأنّ بقية قصة حياتي حزينة. أرجوك انتظري حتى يوم غد.

اليوم الثالث والخمسون:

طوال هذا اليوم كنت أردد لنفسي، أن تلك المرأة التي ربَّت الكوبرا هي حَوَّاء الأصلية التي أبحث عنها. لقد جعلت من أفعى سامة صديقة لها، تُحِبّ وتُحَبُّ.. وسأسافر يوماً ما للبحث عنها. إذاً كان جناحّاي لا يستطيعان حملي إلى ذلك المكان البعيد، فسأركب على ظهر طير يهاجر إلى الهند.

كانت الكوبرا ما زالت مستغرقة في النوم، جسدها ملتفاً على غصن يابس من شجرة الأكاسيا، بينما غطست الشمس في الأفق الغربي واهبة المدينة ستاراً من العتمة. نحو الشمال كانت نجمة الزهرة تطل متلألئة وهي تقول لي: ستحققين يا بعوضة ما تصبين إليه لأن الحب وحده يوجهك ويقودك. ناديتها: هيأً استيقظي يا كوبرا. ففتحت عينيها وقالت: شكراً يا صديقة؛ لقد أنقذتني من كابوس مخيف. رأيت آدم يلاحقني وأنا أعدو خوفاً وهلعاً. قلت مداعبة:

_ إذا طاردك آدم التجئي إلى حَوَّاء!

_ آه منك! آدم في الحديقة، قريب، بينما حواء بعيدة هل تمزحين؟

_ اسمعي...أنا متشوّقة كثيراً لسماع بقية قصتك.

قالت وهي تتثاءب وتتمطى:

_ لم يخطر ببالي يوماً أن ألقى بعوضة لها هذا الاهتمام الكبير بقصة حياة كوبرا تخافها حيوانات وحشرات لا حصر لها. أمرك غريب حقاً!...إذا صادقت بعوضة كوبرا وتفاهمت معها، فلابد من أن يكون عند البعوضة بعضاً مما عند الكوبرا. فما هي قصة حياتك يا عزيزتي؟

قلت وأنا أحاول التملص من الإجابة:

_ عندما تنتهي قصتك، سأخبرك قصتي

_ لا بأس...الآن أصغي إلي

قالت هذا واعتدلت في جلستها على الغصن ثم انطلقت تروي بقية قصتها...كنت أنام قرب فراش حواء، أو قرب فراش ولدها حسبما يحلو لي، ولم يحدث أن شعر أحدنا بالخوف من الآخر...وكنت أثناء النهار أخرج من

البيت عندما أرغب في ذلك، فأتجول في الحقول والمروج وأتسلق الأشجار دون خوف من أحد. وعندما يخيم الليل كنت أعود أدراجي إلى البيت. أما بعد العشاء، كان أحد أفراد الأسرة يلعب على المزمار فأبدأ الرقص. وعلمني الأب القيام بحركات إيقاعية على أنغام المزمار، ومع مرور الوقت أصبحت ماهرة، أتثنى تارة وأقفز تارة أخرى وكأني إحدى أمهر راقصات الباليه في العالم. وبعد شهر تقريباً ذهبت إلى السوق مع صاحبي حيث كان هناك أناس كثيرون اجتمعوا لمشاهدة رقصاتي.

ذات مرة، مرّ موكب أحد المهراجات وشاهدني المهراجا وأنا أقرص رقصة إيقاعية رائعة، فأعجب بذلك. كان يحب القرية وأهلها حباً جماً، فأمر بتشكيل "فرقة باليه لأفاعي الكوبرا الهندية"، كانت تتألف من أربع أفاعي كوبرا. قدمنا عروضاً عديدة أدهشت حاكم القرية وضباط الجيش السامين وأمراء مسؤولين في الحكومة ودبلوماسيين وغيرهم. وتطوع أحد الموسيقيين المرموقين فألف " سيمفونية الأفاعي العالمية " عزفها على البيانو بينما كنا نرقص رقصة الحياة السعيدة في القرية العالمية. وبسرعة فائقة تحولت القرية إلى مركز سياحي عالمي جذب إليه عشرات الألوف من السياح والمسافرين. فأصبحت القرية عن جدارة قرية عالمية يحج إليها كل من يبحث عن أعجوبة العصر أو يبغى الاستجمام واللذة والراحة. وبعد مُدّة قصيرة، اتصل أحد المهراجات بصاحبي عارضاً عليه أن يشتريني منه مقابل مبلغ مالي ضخم، لأرقص في قصره وأعيش فيه مدللة مكرمة. لكن صاحبي رفض العرض رفضاً قاطعاً قائلا لرسول المهراجا: " أسرتي تتكون من زوجتي وأنا وابني وابنتي " وأشار إليَّ بأصبعه وأردف يقول: لن

أتخلى عن ابنتي أبداً أبداً ثم امتقع وجهها فجأة، وغطته سحابة من القلق الشديد وقالت:

_ لقد سمعت شيئا!

_ لكني لم أسمع شيئاً!

فقالت وهي ترتجف خوفاً:

_ أفضل الآن ألزم الصمت لما تبقى من الليل حتى لا نفاجأ بما لم يكن بالحسبان.

اليوم الرابع والخمسون:

قالت الكوبرا:

_ والآن استمعي إلى ما تبقى من قصتي. مرَّت أشهر وأنا والقرية في غاية السعادة...حتى اجتاح القرية مرض غريب أصاب أطفالها بإسهال وتقيء شديدين. وكان ابن صاحبي من بين المرضى. فاضطر أبوه أن يبيعني لتاجر الأفاعي، لأن المهراجا الذي عرض أن يشتريني من قبل، خسر ماله في إحدى حفلات القمار. وكان ثمني قليلاً من المال اشترى به صاحبي أدوية وأغذية خاصة لمعالجة ابنه. كان لتاجر الأفاعي الذي اشتراني علاقات تجارية مع منظمة عالمية لحماية الأفاعي والعقارب والعناكب التي تزود حدائق العالم بما تحتاجه من حيوانات عجيبة وغريبة. فباعني بمبلغ كبير لم يفصح عنه لأحد.

كان يوم الوداع مؤثراً. لم يغمض جفن طوال الليل لأحد من أفراد أسرة صاحبي، حزناً وشوقاً. وفي الصباح استسلمت ليدي صاحبي الذي

حملني بهدوء، ثم دخلت القفص الزجاجي بمحض إرادتي...قبعت في إحدى زواياه وأنا أتحاشى النظر إلى الوجوه الحزينة من حولي قبل إغلاق باب القفص. قالت حواء تخاطبني: اعتني بنفسك يا بنتي. لا تقلقي ففي حديقة الحيوانات طعام كثير وإذا مرضت يمكنهم معالجتك. لن ننساك أبداً يا صديقتنا. ما دمنا على قيد الحياة. وداعاً.

وحملت السيارة القفص إلى المطار، نقلت بعدها إلى طائرة كانت تنتظرني...طارت مدة طويلة ثم هبطت في مطار مدينة كبيرة، نقلت منه فوراً إلى حديقة الحيوانات والتي هربت منها منذ أيام. وهناك نقلوني إلى قفص زجاجي أكبر، ووضعوا القفص في مكان بارز كي يتمتع الآلاف من زوار الحديقة برؤيتي داخل سجني.

قلت والدهشة تكاد تعقد لساني:

_ شكراً يا صديقتي الكوبرا...كانت تلك قصة مشوقة وحزينة في الوقت نفسه.

فقاطعتني قائلة:

_ كنت سعيدة مع حواء وزوجها وولدها؛ والآن غير سعيدة، ولا أدري متى سأصبح سعيدة مرة أخرى بعد أن فقدت من أحبوني وأعطوني حريتي.

_ لا تضخّمي همومك، فكل حيوانات وحشرات الأرض تعاني...المهم أنك حية ترزق...فابتسمي...

أنظري إليَّ، فأنا ابتسم دائماً.

_ يصعب علي أن أبتسم الآن. نحن معشر الأفاعي لا نبتسم تصنُّعاً...أنا مشغولة البال لأنَّ حراس الحديقة يبحثون عني وفي كل مكان في المدينة...

_ سأدافع عنك بكل ما لدى من قوة..

_ شكراً لك...أتدرين لقد نسيت شيئاً!...في الحقيقة يا صديقتي عندما يشتد حزني، أحاول أن أردد كلمات قصيدة جميلة ألفها شاعر القرية بمناسبة عيد ميلادي...هيا استمعي:

/القصيدة العظمى بمناسبة عيد ميلاد الكوبرا العظمى في القرية العظمى/

يا قريتي، يا قريتي

أفعى ذكية هديتي

أعطيتي المباركة

أغلى من الذهب

* *

أميرة حسناء

ذات فحيح، ميساء

على نغم المزمار ترقص

تتثنى تارة

وتارة تقفز

لقريتي المعولمه

وروحها المسالمة

كوبرا ليس لها مثيل

لا في التوراة ولا في الإنجيل

*   *

يا قريتي، يا قريتي

جاءَك الروح جاءَك

هيا انهضي، تحركي

غني للعالم وارقصي

قلت: آه شكراً لك شكراً، طبعاً أنا أحب الموسيقى والحب والشعر

قالت: من أين لك هذا؟ فثقافة البعوض أدنى من ثقافة الأفاعي والثعابين.!

فقلت غاضبة: هذا ليس صحيحاً!!

اليوم الخامس والخمسون:

قلت غاضبة:

_ ليس صحيحاً ما ذكرته بالأمس يا صديقتي: أن ثقافة الأفاعي أسمى من ثقافة البعوض!

فردت الكوبرا بسخرية:

_ هل سمعت قط ببعوضة ترقص على أنغام المزمار كما أفعل أنا؟ وهل لديك في حياتك غير المستنقع الذي نشأت فيه، ثم هاجرت منه إلى هذه الشجرة؟

قلت بتحد صريح:

_ نعم...حوَّاء...عندي حوَّاء!

فانتفضت الكوبرا قائلة: حوَّاء؟ هذا الاسم يحرك لدى مشاعر الحب والشوق، كما أنه ينسيني همومي.

ثم أردفت تقول:

_ كيف تعرفت عليها يا بعوضة؟ هذا أمر لا يصدق!!

_ لكنه الحقيقة بعينها.

_ وكيف تم ذلك؟ متى وأين؟

_ في جنة الرب.

_ الرب براهما؟ ذلك الرب الذي رأيت صورته في معبد هندي زرته مرة برفقة الأسرة الهندية.

_ لا...لا...الرب الذي أعرفه لا صورة له، لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء.

_ هل رأيته؟

_ لا! لكنه خاطبني بواسطة ملاك

_ آه، لقد جعلتني الآن أكثر تشوقاً لسماع قصتك يا صديقتي ومع ذلك فقد يكون كل ما في الأمر مجرد حلم من أحلامك المثيرة للعجب!

_ لا، ليس حلماً...بل حقيقة

توقفت قليلاً وأنا أحاول البحث عن نقطة في حياتي لأبدأ بها قصتي...وأخيراً قلت:

_ خلقني الرب من تراب الجنة في بداية الزمن. صوَّرني على شكل فتاة صغيرة وجميلة ذات جناحين...كنت أطير بهما في الجنة حيث أشاء، كما كنت أعزف بهما ألحاناً جميلة وبهيجة لسكان الجنة...

فجأة قاطعتني بإشارة برأسها تطلب مني أن أصمت. قالت:

_ اصغي.. لقد سمعت صوتاً غريباً من داخل الشجرة وفعلاً ترامى إلى سمعي صوت خافت يناديني. قلت:

_ لا تخفي...إنه وطواط

صاح بأعلى صوته: أنا جائع يا بعوضة...تعالي أدخلي فمي تعالي لألتهمك...يا ويلي...جائع، أنا جائع...

انتصبت الكوبرا، واتخذت ملامحها ذلك الشكل القبيح الذي رأيتها عليها أول مرة فقلت بهدوء تام:

_ ولِمَ كل هذا؟ مجرد وطواط صغير جائع، لا يؤذي أحداً.

فردت بإصرار:

_ ألم تسمعي؟ أنه يدعوك ليأكلك.

_ فليقل ما يشاء، لن أذهب إليه ولا يستطيع الحركة

_ لكنه عشائي الشهي.

رأيتها تتلمظ، كما أشتد اللمعان في عينيها في الظلام.

فقلت بلهجة التهديد والغضب:

_ إياك يا كوبرا...إياك أن تمسيه بسوء...إنه وطواط مسكين يقضي الشتاء نائماً، وقد أزعجه حديثنا فاستيقظ ليكتشف أنه جائع.

_ أمرك عجيب يا بعوضة! ألا تعطفين على صديقتك الوفية. أنا جائعة فعلاً، فلم أذق شيئاً منذ أن جئت إلى هنا..

دعيني أتناول عشائي، وسوف يكون كل شيء بيننا على ما يرام.

_ لا...لا يا كوبرا...إن فعلت هذا فسنفترق إلى الأبد..

فكري قليلاً...إذا دخل الوطواط فمك فسوف يتعذب وهو تحت أنيابك. إني أسألك: هل تريدين أحداً أن يفترسك؟ مثلاً ذئب، نمر أو طائر جارح أن يمزقك بأسنانه؟

_ أنت تحرمينني من طعام العشاء وليس لديك البديل.

_ آسفة، فأنا لا أحب القتل.

_ لكن تحبين مص الدماء، أليس كذلك؟

_ صحيح...وبدون قتل.

_ هكذا إذن؟...أظن أنه أفضل أن نفترق...لا يمكن العيش مع من تريدني أن أموت جوعاً بينما الطعام في متناول يدي. في خضم هذا الجدل، طرق سمعي صوت غريب آخر، كان مصدره هذه المرة مكان ما خارج الشجرة. قلت بصوت خائف:

_ اسمع شيئاً...أصغي..

_ إنه الوطواط بلا شك!

_ لا...أصغي جيداً معي، الصوت آت من تحت الشجرة.

تملّك صديقتي خوف شديد ارتسم على وجهها. وراح جسدها يرتجف بصورة لم ألحظها من قبل. قالت:

_ أتظنين أن حراس الحديقة حضروا ليأخذوني إليها؟

_ لا أدري، سأستطلع الأمر. لا تتحركي حتى أعود.

ما إن حلّقْتُ قليلاً خارج الشجرة حتى وقع بصري على رجلين تحت الشجرة. كانا يحملان منشاراً، وشرعا في تثبيته على الجذع تمهيداً لقطعها.

(قال الأول: هل أنت متأكد أن الكوبرا مختبئة في شجرة الأكاسيا هذه؟

فرد الثاني قائلاً: أجل رأيتها بعيني هاتين.

قال الثاني: فلنقطعها إذن. عندما تقع الشجرة على الأرض، ستحاول الفرار. عندئذ نقبض عليها ونحصل على المكافأة)

طرت راجعة إلى الكوبرا. وبصوت مبحوح متقطع قلت:

_ يوجد رجلان في الأسفل يحاولان قطع الشجرة ليقبضا عليك، هيا لنهرب.

غير أن الكوبرا بقيت صامدة، وردت عليَّ بحزم:

_ لن أهرب، سنهجم عليهما

_ موافقة.

هبطنا نحو غصن أدنى. على ضوء خافت من مصباح كهربائي صغير كان يحمله أحدهما، شهدنا الرجلين جاثيين على ركبتيهما استعداداً للنشر. تبادلنا نظرات خاطفة ثم قفزنا معاً نحوهما. نزلت على وجنة الأول وشرعت ألدغه. أما صديقتي الكوبرا فوجهت بجسدها القوي ضربة خاطفة لوجه الثاني فسقط مغشياً عليه، ثم التفت حول عنقه. مضت لحظات، شاهدت بعدها الكوبرا تجري بأقصى سرعتها في الشارع المقفر، اختفت بعد ذلك بين الأبنية على جانب الشارع بينما كان الفجر يضيء بأشعته البنفسجية الأفق الشرقي للأرض.

اليوم السادس والخمسون:

هذا يوم في حياتي بدون الأفعى. وهذا يوم الأفعى بدوني. هي تنتظر وتترقب الذي سيأتي ليقبض عليها، وأنا في مسكني البارد أبحث عن دفء لا وجود له. غَفْوت قليلاً. أنا الآن مع جسدي الذي أنهكه الجوع والتعب. أغلق جفوني فيختلط حلمي بواقعي. تمر المشاهد أمام عيني كأنها سحاب تذروه الرياح، يحمل بعضه الغيث، وبعضه مثقل بالدخان يخنق من يستنشقه.

أنا على الشجرة التي حرّم ربي ثمرها على آدم وحواء. زهرها قناديل من النور تضيء العالم الموحش حولي. أعزف ألحاناً بجناحيّ. تعالي يا حواء علميني معنى هذه الأنغام! بين الشجرة المحَرّمة وشجرة الأكاسيا فروق كتلك التي بين موت تتوجه حياة، وحياة يتوجها الموت. يحاصرني التمرد والنفي والتَشَرّد...وهموم ثقيلة تجثو على قلبي...هموم بعوضية، وطواطية وأفعوية. أما أنا! من أنا؟ وأين أنا؟

ثمة قوة لا تقهر تحثني على البحث عن أحبتي. هذا آدم وهذي حواء...يقتربان من الشجرة المحرمة. أتناول ثمرة من الشجرة وأرميها إليهما قائلة: كلا مما حُرّمَ عليكما...يمعنان النظر في وجهي ويسألاني باستغراب: من أنت؟ أأنت النبيه المزيفة؟ وأجيب: إني أبحث عنك يا حواء لتنقذيني من محنة حب لا تحده حدود.

أنت بعيدة عني. لكن حبي يقربك. أغمض عينيّ وألمس وجنتك وأقول: أخيراً،...أنت هنا. لا توجد أرض لينفيكما الرب إليها، ولم يخلق ربي جهنم بعد. عودا إلى الجنة عقوبة لكما.

آه، يوشك رأسي أن ينفجر. لكن محنتي ليست في رأسي، بل في قلبي. من يدري من أكون. أنا بعض من حب وهموم وجنون. وأعرف أن الرب يعرف أني أهذي؛ ويعرف أيضاً أن حمى أفعوية مجنونة أصابتني. أفتح عيني فلا أجد إلاّ الظلمة وبرد آخر الليل، فأبكي حزناً على حالي.

حوّاء...حوّاء...هل تسمعين صوتي؟ لا جواب إلاّ عواء ريح الليل، تلعب بأغصان الأكاسيا وتؤزها أزاً. وقبل الفجر تقدم لي الريح ثوبا أبيض من الثلج ليدثرني. أعرف الآن أن جسمي تجمد...فاصرخ: وطواط...يا وطواط...هل تسمعني؟ كلانا في السبات الشتوي؛ في انتظار الربيع.

اليوم السابع والخمسون:

هذا اليوم هو يوم غرام القططة. بعد منتصف الليل جاءتني قطة صغيرة، بيضاء، والثلج يتساقط عليها ومن حولها. راحت تنادي حبيبها الذي لم يكلف نفسه عناء الرد عليها. بادرت بدعوتها إلى النزول إلى مسكني اتقاء من الثلج والبرد. لكنها رفضت طلبي قائلة:

_ لا أستطيع...أخشى يا بعوضة أن لا أسمع صوت حبيبي إذا كنت في الداخل.

كان مواءها يحمل نبرة عشق وهيام تثير الشفقة. قلت متسائلة:

_ أيتها القطة الجميلة، ألا تشعرين بالبرد؟ إني أكاد أتجمد مع إني أقيم في هذا الكهف العميق.

_ حبي يدفئني! أما أنت فليس لك حبيب يدفئك حبه وانتظارك حضوره!

_ أنا في حب دائم!...وحبي ملتهب وعميق...من فضلك لا تتكلمي في أمور لا تعرفين عنها شيئاً!

فضحكت ساخرة، وأجابت:

_ لا! حبك ليس ملتهباً وليس عميقاً حبي فقط هو الحب الملتهب العميق، شئت أم أبيت! وفي الحقيقة....

لكن قبل أن تكمل كلامها، توقفت فجأة. انتصبت أذناها وهمست:

_ أسكتي! إن أسمع صوتاً!...

كان ذلك صوت قط من بعيد: نَوْ...نَوْ...نَوْ...

فأجابته القطة على طريقتها: نوي...نوي...نوي...

لكنه كرّر نداءه على نحو مختلف: ناو...ناو...ناو...

فأجابته بلحن جديد: نوي ي ي....نوي ي ي ي...

وما انتهى هذا الحديث حتى التفتت نحوي بوجه حزين وقالت:

_ حبيبي...حبيبي لن يأتي إليَّ هذه الليلة...

_ لماذا؟

_ مشغول...مشغول مع ثلاث قطات...آه يا حسرتي!!

وتابعت:

_ لقد اتفقنا مسبقاً على هذا الموعد...لقد أقسم لي أنه لن يتخلف كما فَعَلَ العام الماضي. آه! آه! يتركني وحدي بينما شهر الحب المقدس يقترب من نهايته!

توقفت برهة في محاولة لاسترجاع أنفاسها وأردفت:

_ يا بعوضة! لا تثقي أبداً بالذكور...دائماً يخونون أحبتهم..

_ إذا كان مشغولاً بغيرك إذهبي إلى غيره...ألا يوجد ذكور على شاكلته هنا؟...دقة بدقة.

فأجابتني بصوت مكتئب :

_ أجل يوجد الكثيرون...لكني أحبه...أحبه أحبه أحبه..

_ هل تسمحين لي بسؤال؟

_ تفضلي

_ أين تسكنين يا صديقتي؟

_ في بيت أو بيتين...ليس بعيداً من هنا..

_ يمكن أن تلتقيا هناك...ولم لا؟

_ لا يمكن!

_ لماذا؟

_ من عادة حبيبي أن يترك أثراً من ماء حبه في أي مكان يزوره، كي يحذر القططة الآخرين من دخول منطقته.. هذا هو قانون الحدود المتعارف عليه عند كل قطط الدنيا...المشكلة...أنا صاحبة البيت تضربني إذا شمت رائحة ماء حبه على جدار بيتها...

ضحكت من جوابها، فاستشاطت غضباً وقالت:

_ لا أجد أي سبب للضحك، على العكس يوجد كل سبب للحزن والغضب...لقد تركت صاحبة البيت تحتفل بعيد الحب...لرجل...أيه! الآن أتذكر اسمه...عيد حب فالنتينو يأتي عشاقها إلى البيت ويمضون الليل يمارسون العشق وغيره...أما أنا...القطة الصغيرة البيضاء التي يحبها كل أبناء الحي...أنا...أنا لا يحق لي أن استقبل حبيبي لبضع دقائق

فقط...عاشقي الوحيد، ذنبه الوحيد أنه تعوَّد منذ الصغر أن يترك علامة حبه...يقصد أن يقول للآخرين: هذا المكان لي، فلا تقتربوا...أترين قسوة قلوب البشر ونفاقهم؟ آه يا ويلي!

لم تكد تكمل حديثها، حَتّى شق هدوء الليل وسكونه مواء قط حضر بدون سابق إنذار. ومن غصن عالٍ، قفز نحوها. ركب ظهرها. أنشب أنيابه ومخالبه بعنقها وخاصرتيها دون أن يخدشها، فاستسلمت له مغمضة العينين وسط سيل جارف من الآهات والأنين والهمهمات. ابتعد عنها بسرعة كما فعل في البدء، ثم اختفى وسط أغصان الأكاسيا.

بعد لحظات رأيت صديقتي تستعيد هدوءها وقد غطت وجهها ابتسامة مشحونة بفيض من اللذة والسرور.

التفتت نحوي وقالت بصوت هادئ.

_ هيا نذهب معاً إلى البيت. تعالي اختبئ في فروتي فالبرد قارص هذه الليلة.

اليوم الثامن والخمسون:

في قلب فرائها الدفيء المشوب بعبير الحب وأثر العشق، كنت أنعم بنوم هادئ، بينما كانت صاحبة الفراء تسير في الطريق إلى صاحبتها.

قالت القطة:

_ يا بعوضة إننا على وشك أن نصل إلى فيلا صاحبتي الثرية، والتي أشبع في بيتها من اللحم والطعام المخصص للقططة، تشتريه لي من السوق العالي...آه، ما هذا؟

خاطبت نفسها ثم جمدت في مكانها بغتة بينما جسدها راح يرتعش. وأردفت:

_ أنظري...هناك كلب ضخم عند باب الفيلا...لكنه مربوط بحبل...يعني لا بد من الانتظار هنا على الرصيف المقابل ريثما يخرج صاحبه ليأخذه معه...أيضاً أنظري...ذلك ظل يتراقص على زجاج النافذة، أعرف جيداً أنه ظل عشيق صاحبتي...إنه يلبس قناعاً يغطي وجهه...وكذلك المرأة التي ترقص معه،...هذا حتى لا يعرف أحدهما الآخر، تماماً كما يفعل بعض القطط...اسمعي هذه الموسيقى الصاخبة...أتعجبك هذه الألحان؟ كل ذلك من أجل هذه الليلة من شباط، شهر الحب المقدس...

سكتت برهة وهي مازالت تسير:

_ أتعلمين! نحن معشر القططة...أقصد قبيلة بني هريرة، هي التي احتفلت بعيد الحب الأول مرّة في مصر منذ أكثر من أربعة وأربعين قرناً...أخذ فالنتينو منا، معشر القططة فكرة الاحتفال بهذا اليوم...آه! لكن ما أكثر الجاحدين من البشر في القديم والحاضر...ينكر فالنتينو والمعجبون به أنهم تعلموا شيئاً منا...وسموا العيد باسمه بدلاً من اسمه الأصلي وهو "عيد حب القطة المقدسة"...ها قد وصلنا...يجب أن ننتظر هنا وراء برميل الفضلات حتى يغادر الكلب مكانه...آه! الخادمة،...أراها تخرج حاملة بقايا من طعام الحفل...أنظري رمته قرب البرميل...هذا رجل وأبنه يسرعان لالتقاط بعض الطعام المرمي...آه! هناك...لقد خرج العشيق، وهو ضابط كبير في جيش الملك...لا حظي...ألا يشبه ثوراً مرقطاً؟

يترنح تحت تأثير ما في معدته من الشمبانيا...لقد شرع يداعب كلبه...لا حظي كيف الكلب يلعق يده...يا للقذارة! نحن أحفاد بن هريرة الأصلية ذات الجذور الضاربة في التاريخ،...نحن لا نلعق يد بشر...نحن نلعق أجسادنا كي نحافظ عليها نظيفة دائماً...

ثم انتبهت إلى نفسها فجأة وصاحت:

_ بعوضة يا بعوضة...هل أنت نائمة؟ لم أسمع صوتك منذ غادرنا الشجرة ماذا بك؟

_ ماذا؟ أتناديني يا صديقتي؟ أجبتها وأنا أقاوم سلطان النوم. ضحكت من جوابي وقالت:

_ لقد أخبرتك الكثير...صح النوم...لقد فاتك الكثير من المعارف والحكمة...

خرجت من بين الشعر الأبيض الكثيف، وحاولت أن أفتح عيني. قلت:

_ ما أروع فراءَك يا صديقتي؟

_ لا وقت لدينا...هيا أسرعي لنأكل شيئاً قبل أن يخطف هؤلاء الفقراء كل الطعام...أنظري هناك، قطعة لحم وأرز هيّاً!

لكن ما كدت أفارق الجسد الأبيض نحو قصعة مكسورة من الخزف تحتوي على بقية من مرق اللحم والأرز، حتى تصدت لي يد أوقعتني أرضاً، وخطفت القصعة وما فيها...في هذه الأثناء، خرجت من باب الفيلا صاحبتها وهي ثملة. راحت ترسم بأصابع يدها إشارات غريبة في الهواء. فقلت:

_ يا قطة، يا صديقتي، ما هذه الإشارات؟ ماذا تعني؟

_ لا أعرف بالضبط...انتظري قليلاً...أجل! أجل إنها بالفرنسية /V.V/ أي يحيا فالنتينو.

_ أنظري...هناك...عاشقها يطلق سراح كلبه.

زعقت القطة مذعورة:

_ هيا...هيا إلى ظهري.

نبح الكلب كذئب مجنون، وقفز عبر الطريق متجهاً نحونا وهو يعوى. وبدأت مطاردتنا. بضع دقائق بدت كأنها ساعات طويلة والقطة تعدو بأقصى سرعتها، عبر الطريق المزدحم بالمركبات والناس، والكلب الشرس من ورائها...أخيراً، وصلت جدار حديقة، تسلقته ثم قفزت إلى الجهة الأخرى، بينما وقف عند أسفل الجدار الكلب وحده ينبح...ثم ينبح...

اليوم التاسع والخمسون:

قالت القطة بنبرة افتخار:

_ ها قد وصلنا يا بعوضة...هذا هو البيت الذي ولدت فيه. هنا الطعام قليل والحب كثير، لكن لا مكان فيه لكلاب المدينة.

في البهو الضيق، شاهدت امرأة عمياء، مقطوعة القدمين، تبدو في العقد الخامس من عمرها. كانت جالسة على وسادة راكنة ظهرها إلى الجدار وتحيك قميصاً من الصوف. كانت من وقت لآخر، تمد يديها نحو مدفأة صغيرة بجانبها طلباً للدفء. بصوت خافت لطيف، قالت المرأة:

_ عدت يا زهرة؟ تعالي لقد اشتقت إليك.

فأسرعت القطة إلى حضن المرأة، بينما حلَّقتُ عالياً بحثاً عن مكان مناسب في أعلى الجدار الذي غطاه الغبار. استقبلت المرأة القطة بلطف بالغ، وطبعت قبلة حارة على وجهها، ثم بدأت تتلمس بطن القطة قائلة:

_ جسمك بارد يا زهرة! لم ترتجفين هكذا؟ على كل حال، أنا أعلم أنك كنت عند حبيبك، وأتمنى أن أرى صغارك يلعبون حولي عما قريب.

من تحت الأريكة في الجهة الأخرى، برز فجأة فأر صغير. تلفت نحوه ثم أسرع نحو حضن المرأة، متخذا مكاناً له بجانب القطة. وبلهجة عتاب طريفة قال يخاطب القطة:

_ أنا زعلان منك يا زهرة!

_ لماذا؟

_ لم تخبريني أنك ستسافرين...لقد بحثت عنك في كل مكان فلم أجدك...

_ لا تزعل يا زهر! ألا تعلم أنني في شهر الحب؟ لقد ذهبت للقاء حبيبي.

فرد الفأر معترضاً بصوت حزين:

_ لكن نحن الفئران، ليس لدينا شهر للحب كما عندكم أنتم القططة.

_ كل شهور السنة شهر حب عند الفئران.

_ وما الفائدة! فأنا لم أجد فأرة تحبني حتى الآن.

فأجابت الفأرة وهي تحاول أن تخفف من حزنه:

_ لا تيأس يا زهر؟ ستجد حبيبتك ذات يوم...بدون شك، ولا تنسى أنك مازلت في بداية الشباب.

فاعترض شاكياً:

_ المشكلة يا صديقتي أني فأر أبيض. وكل فئران الحي الذي نسكن فيه لا تحب إلاَّ الفئران السوداء أو الرمادية، التي تكون مثلها.

كانت صاحبة البيت تصغي إلى الحديث دون أن تفهم شيئاً مما يقال. وكمن تذكر أمراً هاماً على حين غارة، ألقت القميص الصوفي جانباً، وضعت راحتيها على الأرض، ثم ضغطت بذراعيها ورجليها فتحرك جسمها. قالت:

_ أظن أنكما جائعان، سأعدّ لكما شيئا تأكلانه

وبينما كانت تزحف ببطء نحو المطبخ، تثاءبت القطة وتمطت ثم التفتت نحو الأعلى وصاحت:

_ أين أنت يا بعوضة؟

فقلت لها:

_ أنا هنا!

_ الست جائعة؟ هيا انزلي لنأكل شيئاً.

فقال الفأر مستغرباً.

_ من تكلمين يا زهرة؟

_ صديقتي البعوضة! أنظر هاهي تطير وتحط على ظهري.

فقال الفأر وهو يرمقنا بنظرات الدهشة والاستغراب:

_ أنا لم أسمع من قبل أن بعوضة تتكلم!

فرددت عليه بتملق حلو لطيف:

_ أما أنا فلأول مرة أقابل فأراً أبيض جميلاً وذكياً...بما أني استمعت إلى حديثك مع زهرة، سأساعدك بما أستطيع حتى تجد فأرة تحبك وتحبها.

فقال الفأر بإصرار:

_ يجب أن تكون فأرة بيضاء.

_ بيضاء،....كما ترغب.

فتدخلت القطة لتؤكد:

_ وأنا سأساعدك أيضاً في هذه القضية.

رد الفأر بخبث:

_ أخشى إذا وجدت فأرة بيضاء، سمينة وذكية وجميلة كما أرغب أن تأكليها قبل أن أراها...

فاعترضت القطة بغضب:

_ لقد علمتني الحبيبة صاحبة هذا البيت أن لا آكل أي فأرة تكون صديقتي، ولن أنسى هذا الدرس أبداً.

_ شكراً لك يا زهرة، أنت فعلاً صديقة مخلصة.

بعدئذ خيَّم صمت مطلق علينا، بدا الفأر أثناء ذلك غارقاً في خضم أفكاره، لكن عينيه مازالت ترمقني بتلك النظرات المفعمة بالتَّعجب. قلت:

_ ماذا بك يا زهر؟ أما زلت تجدني أمراً عجيباً؟

فقال وهو يغص بكلماته:

_ لو كان لي أجنحة مثلك، لبحثت في أرجاء الأرض عن الفأرة التي تحبني وأحبها...أما الآن...آه! فأنا أعيش حياتي في ظلام ثقب صغير مظلم، انتقل منه إلى ثقب مظلم آخر، وهكذا دواليك...فلماذا الرب خلق للبعوضة أجنحة ولم يخلق أجنحة للفأر!

قطع نداء صاحبة البيت الحديث، وهي تصيح من المطبخ:

_ هيا الطعام جاهز...أنا ذاهبة لقضاء بعض الأشغال وأعود بعد قليل...كلوا حتى تشبعوا....

اليوم الستون:

قلت:

_ يا قطة، يا صديقة هل تسمحين لي بسؤال؟ فقالت:

_ يا بعوضة، يا صديقة، اسألي ما شئت، لكن لا تفعلي شيئاً في هذا البيت دون أن تسأليني.

_ موافقة، سؤالي هو: لماذا صاحبة بدون قدمين؟ ماذا حدث لها؟

_عندما ولدتني أمي كان لهذه المرأة قدمان قويان. وكانت تسير بهما حيث شاءت دون أن يتعبا. وعندما ماتت أمي كانت هذه المرأة بلا قدمين، لأن قدماً أصيب بداء خطير. فقال الطبيب: يجب قطع القدم. لكن منشار الطبيب أخطأ، فقطع القدم التي بلا ورم. ولما عرف الطبيب خطأه، أصلحه بأن قطع القدم ذات الورم. فضاع لها القدمان. لكنها مازالت على قيد الحياة، وعشت معها طويلاً على ما يرام.

أبكتني قصت هذه المرأة التي نزلت ضيفةٌ عندها. وتساءلت في قرارة نفسي أن كانت هي حواء!! أم أن حواء التي أبحث عنها هي الآن في الهند كما أخبرتني أفعى الكوبرا! لا أدري... العجيب في هذا، قلت أحدث نفسي أني لاحظت في عينيها اللتين لا تبصران شعاعاً من نور يشبه ذاك الشعاع الذي سبق أن رأيته في عيني حواء عندما كنا معاً في الجنة. وسألت نفسي: هل يمكن أن تفنى الأجساد ويبقى شعاع المحبة حياً ينتقل عبر ألوف

الأجيال....من جيل إلى جيل، حتى وصل إلى عيني هذه المرأة، فاستقر بهما...فعلاً لا أدري.

قلت أخاطب القطة:

_ يا صديقة....سامحيني إذا أكثرت السؤال ...إني أتساءَل لم هي عمياء؟

فقالت القطة بأسلوب شاعري جذاب:

_ كان لهذه المرأة عينان تتلألآن، كأنهما وكوكب الزهرة توأمان. ألم تلاحظي يا صديقة أنها امرأة جميلة، غزيرة الدموع، قليلة الكلام؟

قلت بتشكك:

_ أنت تعرفينها منذ زمن طويل، أما أنا فمنذ الأمس فقط!

فتابعت القطة جوابها على سؤالي:

_ لقد فقدت قدميها فحزنت؛ بكت ثم بكت. فجفت الدموع في إحدى عينيها؛ ولما الملك قتل زوجها حزنت؛ بكت ثم بكت. فجفت الدموع في عينها الثانية. وذات ليلة نامت وفي الصباح استيقظت لتجد...لتجد...

اغرورقت عينا القطة، صديقتي بالدموع وغصت فلم تستطع أن تتم كلامها. بعد جهد تحكمت بنفسها وتابعت تقول:

_ استيقظت لتجد عينيها كما عرفتها...آه!

قلت أواسيها:

_ خففي عنك...أنا أيضاً حزينة فلنحاول التحكم بدموعنا...على أية حال يكفينا اليوم، ما ذكرته من ذكريات...اسمحي لي أن أفارقك الآن....إني أشعر بإرهاق شديد.

حاولت أن أطير نحو السقف، لكن ما كدت أرتفع قليلاً، حتى خطر لي سؤال آخر قلت:

_ يا صديقة، لماذا قتل الملك زوج هذه المسكينة؟

فقالت بصوت خفيض مفعم بالأسى:

_ لم يقتله! بل أرسل إليه من أغتاله في الظلام...

_ ولماذا؟

_ تعالي اهبطي على ظهري...كي أتمم هذه القصة.

_ لما استقررت على الجلد الدافئ بالفرو الحريري قلت:

_ آمل أن لا أثقل عليك

_ لا أبداً!...كان زوجها مختلفاً عن بقية الناس. لقد رفض أن يهتف: يحيى الملك في حفل العرش الملكي...كل الناس صرخوا: يحيى الملك، ماعدا هو. ولما سأله عسكر الملك عن سبب امتناعه عن الهتاف قال: لا فائدة في أن يحيى الملك وحده دون ناس. لذا الأفضل أن نهتف جميعاً: عاش الناس، لأن الملك هو أحد الناس. فإذا عاش الناس عاش الملك، أما إذا لم يعش الناس فلا فائدة من أن يعيش الملك وحده. ونقلوا الخبر إلى الملك فأمر أحد العسكر أن يترصد له ويغتاله.

قلت متأثرة بما سمعت:

_ يا للخيبة الكبرى! هذا جنون، جنون تام...

فقالت وكأنها تحاول أن تعلمني درساً:

_ إذا أردت أن تعيشي بين البشر، يجب أن تتحملي نوبات جنونهم.

فقلت معترضة بكبرياء:

_ لا! يجب أن نفعل شيئا ضد القتل...أتدرين أنه لا يوجد قتل ولا يوجد موت في الجنة! فلماذا لا تكون الحياة هنا على هذه الأرض كما هي الحياة في الجنة؟ ما المانع؟

فاتسعت عيناها، وردت بتعجب ودهشة:

_ آه، يا بعوضة! من أين لك هذا؟ وما يدريك بالجنة؟ ما هذا؟

فهمت مباشرة أني انزلقت نحو أمر لا أرغب الكلام فيه.

فقلت مستدركة ومعتذرة:

_ سامحيني يا عزيزتي، فعلاً لا أدري من أين جاءتني هذه الأفكار، الآن!

لم تصر على التنقيب عما وراء كلماتي، فقالت:

_ لا عليك يا صديقتي! لكن ماذا نستطيع أن تفعل بعوضة لملك الزمان والمكان وهو يقتل كل من يعترض عليه وقبل أن أجيبها سارعت لتصحيح نفسها، وكأنها تعاني من بعض النسيان، قالت:

_ بل نحن نفعل شيئاً، أقصد الفأر وأنا...زهر حقاً فأر مدهش وذكي جداً...وعندما تعرفين ما نفعل هو وأنا، سيكون فرحك عَظيماً.

_ لقد شوقتني بهذا الخبر...ماذا تفعلان بالضبط؟

_ سترين!

_ وأين هو زهر الآن؟

_ لا أدري....يختفي دوماً في مكان، لا تستطيع قطة ولا يستطيع كلب ولا أي حيوان آخر أن يكشفه، ولا أن يدخله. الفأر يبقى هو الفأر إلى الأبد...دعيني أغفوا قليلاً، لقد تعبت من الكلام.

_ وأنا كذلك...أريد أن أنام.

اليوم الحادي والستون:

حاورتني نفسي قبل أن أغفو. قالت: هذه مدينة قطة وفأر وامرأة عمياء ومقطوعة القدمين في مواجهة مع الملك ذي روح عرجاء. وفي سجن المدينة سجين شاب يرفض أن يهتف يحيى الملك...زهرة، يا زهرة، إلى أين أنت ذاهبة وأنا معك؟

ضحكت ساخرة من أفكاري وكلماتي، بينما كان النوم يزحف مسرعاً نحو جفوني. ثم استيقظت: كان طفل يترنم بأغنية وكلمات تمثلها حركات سريعة بيديه ورأسه وقدميه.

- راكب أنا على غيمة من ثلج...ثلج ثلج ثلج...
- وفي السماء أطير... أطير أطير أطير...
- راكب أنا على سمكة في بحر...أغوص أغوص أغوص...
- تر للا لا لا... تر للا لا لا... تر للا لا لا...
- الشمس تشع من فوق... فوق فوق فوق...
- وأنا أطير... أطير أطير أطير
- تر للا لا لا... تر للا لا لا... تر للا لا لا...

توقف فجأة عن الغناء عندما لاحظ شعاع الشمس قد تسلل من بين ستائر النافذة ثم تابع:

- هذه الشمس، وفي الليل يطلع القمر.
- لكن أين السمكة؟ وأين البحر؟

- آه إني أغرق أغرق أغرق...
- هيا يا رجال تعالوا لتشاهدوني...أنا راكب على ظهر سمكة... أطير أطير أطير...

قفزت في فضاء الغرفة وحلقت وأنا أهتف:

_ بل أنا أطير...أنا أطير لا أنت.

إني أطير أطير أطير...وفي الهواء أسير أسير أسير...

حتى أصل الشمس

حتى أصل القمر

أطير ثم أطير ثم أطير...

فصرخ بدهشة عظيمة عندما وقع بصره علي. قال:

_ بعوضة؟ بعوضة وتغني!!

_ أجل! أجل!...هيّا حلق معي...هيا...نحو الشمس والقمر

لم ينبس، مازالت عيناه تترصّد حركاتي. اقتربت منه وقلت بتحد:

_ ان كنت لا تستطيع أن تأتي إليَّ، فأنا آتي إليك...

هبطت على كتفه وطفقت أتأمل تقاسيم وجهه المدور الجميل، شعره الأسود وعينيه البراقتين. قلت برفق:

_ صباح الخير يا عزيزي..

لم يرد. بدا كتمثال أدونيس الصّغير. ذراعه تتحرك ببطء شديد وفي عينيه إشارة خبث. لكن قبل أن تصلني قبضته، كنت أحلق مبتعدة وأنا أصرخ بأعلى صوتي:

_ لا تحاول أنا أملك جناحين ولا تملك شيئاً يرفعك عن سطح الأرض...لا تغلط معي...

فأجاب بلهجة خجولة:

ألست أنت التي لدغتني ذات مرة، فتورم ذراعي؟

_ آسفة يا عزيزي، أنا لا ألدغ الأطفال المطربين!

فتبسم ضاحكاً وسألني:

_ من تلدغين إذاً؟

_ من لا يعجبني!

_ ومن يكون ذاك الذي لا يعجبك؟

_ ملك هذه المدينة مثلاً.

فقال بصوت خفيض حذراً:

_ لا ترفعي صوتك!

_ ولماذا؟

_ حتى لا يسمعك عسكر الملك!

_ لست خائفة منهم.

_ قد يرمونك في السجن!!...هكذا قالت أمي.

نَدَّت عني قهقهة عالية قلت بعدها أخاطبه:

_ هيا اضحك معي....اضحك...

_ لكني لا أجد الأمر مضحكاً...

_ آه! أتخاف من الضحك؟

_ لا!...أنا أحب أن أضحك لكن الملك لا يعجبه أن يضحك أحد إذا ذكر اسمه.

ما كاد أن يكمل جملته حتى فتح الباب، ودخلت امرأة سمراء ممشوقة القامة، في جلباب أسود وقالت:

_ سامر!...ماذا تفعل هنا؟ هيا تعالى معي فالجارة تنتظرك...تعال

اليوم الثاني والستون:

أحب نفسي وأنا وحدي. لأنّ نفسي تحبني عندما أكون وحدي. عندما تطول ممارسة حبي لنفسي يجتاحني الملل فأهب للبحث عن آخر، وليكن من كان: حشرة أو شجرة، بشراً أو حيواناً. حبي لنفسي يغادرني ثم يعود. إذا حدث أنه لم يعد، فأنا أذهب إليه ثم نرجع معاً. وبين الذهاب للقاء حبي لنفسي والإياب من لدنه، أستلذ بتلك المتعة اللازمة لصرف أيامي. أنا الآن وحدي، فالكل في الغرفة المجاورة. حتى زهرة لم يظهر لها أي أثر هذا اليوم. آه! لماذا أنا دوماً وحدي؟...أشعر في هذه اللحظة كأنّ قلبي على وشك أن يغادرني، وذهني فارغ في هذه الثواني، وحزن غامض يكتنف بصري وبصيرتي. أنا بعوضة! والبعوضة دوماً مذنبة في عالم البشر، حتى سامر الذي لم أره قبل أمس يتهمني بأني لدغته، ذات مرة، آه، يا ناس، أنا بريئة، أنا كائن طيب...بعوضة بشرية، كنت ذات مرة مع أبيكم الأول وأمكم الأولى. ألا تفهمون قولي؟

آه يا سامر! أنت وحدك الذي تسمع صوتي، تفهمني، تحدثني تجعلني أشعر أني من كائنات الرب، وأن لوجودي كرامة وأن لحياتي معنى. لا شك أنا أمرك عجيب أيها الطفل!!

كيف يمكنك أن تسمعني وتفهمني. هذه تجربة جديدة في حياتي!...ولا بد أن أكتشف جواب السؤال: هل كل الأطفال هم على شاكلتك؟ هل يمكن أن يكون أطفال هذا الأرض أفضل من كبارها؟...كيف يمكن أن يكون الكبار أفضل وبينهم هذا الملك اللعين يسجن الناس؟ أنا متأكدة، لو أن هذا الملك كان طفلاً، أو كان له قلب طفل لما سجن أحداً...ما هذا؟ هل تراني أدعوا لدولة يحكمها طفل؟...لا لا...أنا دوماً أحلم...أضغاث أحلام...يجب أن أهرب من وحدتي...

تسللت عبر شق ضيق بين مصراع الباب والجدار. أنا الآن في الغرفة المجاورة. ها هي صاحبة الدار (العمياء) قرب المدفأة جالسة على كرسي ورجلاها (بلا قدمين) متدليتان، وتقوم بتمسيدها وهي تتكلم مع أم سامر التي كانت جالسة قبالتها مع سامر على طرحة صوفيه صغيرة. كانت منضدة صغيرة تحمل القهوة والفاكهة تفصل بينهما. سامر يحملق في وجه المرأة العمياء ويقضم تفاحة.

قالت المرأة العمياء: أكملي يا أم سامر...مزيد من الأخبار حول ابني.

_ هو بخير يا جارتي العزيزة. صحته جيدة رغم أن الطعام غير كاف. قابلته لمدة خمس دقائق بعد أن أخذوا المال الذي جمعناه لهم، ليسمحوا لي سراً بمقابلته. لم يعجبهم المبلغ في البدء، لكن قبلوا أخيراً.

تنهدت أم سامر وأخذت نفساً عميقاً وتابعت تقول:

_ برهوم عجيب...شاب عجيب فقد أصر على أن يهتف "يحيا الناس" ورفض بحزم أن يهتف "يحيا الملك".

فقاطعتها معترضة:

_ إنه مثل أبيه المرحوم...مثل أبيه...عنيد...وفي الحقيقة. فأنا أخشى أن أفقده كما فقدت أباه من قبل. ماذا أقول؟...أقصد في الحقيقة فأنا لا أفهم لماذا الملك يغضب من شاب يافع مثل ابني برهوم...شخص واحد فقط،...هناك آلاف الشباب الذين يهتفون ليلاً نهاراً "يحيا الملك". فماذا يؤثر صوت واحد على عشرات الآلاف من الأصوات؟

_ الملك قلق جداً من هذا الوضع يا أم برهوم...لأن شباناً آخرين، حسبما يعتقد الملك، يمكن أن يقلدوه فتعم الفوضى في كل أرجاء المملكة وتصبح حياة الناس في خطر كبير!

_ لقد سمعت هذا من قبل، مرات عدة...وهو غير صحيح...على أية حال يا أم سامر، ليكن الله في عوننا...أقصد المهم أن نرسل بعض الطعام لبرهوم في أسرع وقت. أنا قلقه عليه.

_ لا يمكن يا جارتي...هذا ممنوع بأمر خاص من الملك...حتى لا يصل إلى المعتقلين رسائل أو مخدرات أو سلاح سراً...

_ أنا لم أقصد أن تقومي بنقل الطعام إلى الزنزانة...فقد فعلت أكثر مما أتوقع منك...شكراً جزيلاً، ولن أنسى أبداً عملك الطيب هذا، مادمت على قيد الحياة. في الحقيقة لدي طريقة أخرى،...ستعرفين عنها شيئاً بعد قليل...أنا بحاجة لأبنك سامر، لأنه طفل لم يبلغ العشر سنوات من العمر بعد ولذا طلبت أن يأتي معك. وهو الآن بجانبك لأني أحس وأسمع كيف

يقضم التفاحة (تضحك) هو يستطيع أن يفهم لغة الحيوانات حتى نهاية العاشرة من عمره، وأريده أن يخبرني ماذا تقول زهرة وزهر...

زهر...زهر...يا زهرة...زهرة...أين أنتما يا أعزائي؟ تعالا إلي...هيا بسرعة...

هرولت زهرة من مخبئها إلى صاحبة البيت وجلست في حضنها وهي تموء بلطف. بعد لحظات خرج زهر من تحت الأريكة. توجه نحو سيدته، تسلق رجل الكرسي وجلس وجهاً لوجه مع زهرة. وقال بلهجة عتاب:

_ دائماً تسبقينني إلى حضن التي أحبها.

فأجابت زهرة على الفور:

_ أنت دائماً تتأخر عن المواعيد.

قالت صاحبة البيت:

_ والآن اخبراني إلى أين وصل العمل في النفق؟

تكلم زهر، وأصغى سامر إلى ما يقول ثم قال:

_ يقول زهر أن العمل في حفر النفق يسير جيداً، وهو يعتقد أنه وصل إلى ما تحت أرض السجن، لأنه سمع وقع أقدام العسكر وهم يسيرون على الأرض فوقه.

لكن تراكم تراب كثير يجب إخراجه من النفق وهذا من واجب زهرة فقد تخلفت عدة أيام.

وتابع سامر مترجماً جواب زهرة:

_ تقول زهرة أنها حامل، رغم ذلك فسوف تشتغل الليلة القادمة...

صفقت صاحبة البيت لهذا الخبر، وتبعتها أم سامر بينما راح سامر يقضم ما تبقى من التفاحة.

ثم أردفت صاحبة البيت قائلة:

_ هيا نذهب كلنا إلى المطبخ لنتعاون على إخراج التراب. خرج الجميع إلاّ سامر. ساد الصمت الذي لم يقطع حبله إلاّ هتاف سامر:

_ بعوضة....يا بعوضة هل أنت هنا؟

كنت على كتفه وأجبته قائلة:

أنا هنا...شهية طيبة يا سامر يا حبيبي.

اليوم الثالث والستون:

قلت:

_ سامر...لماذا تحب أن تأكل التفاح كثيراً؟

فا فتر ثغره عن ابتسامة خفيفة وقال:

_ حتى تحبني الفتيات.

فقلت مداعبة:

_ هاها! لكن أين هنّ؟ أنا لا أرى أحداً!

_ أنت! أنت يا بعوضة...أنت فتاتي.

_ أنا! أنا مجرد بعوضة يا سامر، خفيفة، لطيفة،...حتى لا تكاد تشعر بوجودي!

_ أنت فتاة يا بعوضة....سحرها ساحر شرير، كما في قصة الأمير، الأمير الذي حولته ساحرة شريرة ضفدعاً.

_ لكن لست ضفدعة!

وبلهجة الواثق من نفسه وأقواله:

_ أعرف ذلك...هيا نذهب معاً إلى ساحر المدينة كي يزيل السحر عنك ويعيدك إلى حالتك الأولى...فتاة صغيرة، لا أجمل منها في كل الأرض...وبعد ذلك نتزوج.

لم يعجبني هذا الجواب فتركته وهبطت على الجدار.

قلت غاضبة:

_ لا يا سامر....هذا أمر خطير!

_ ألا تحبينني؟

_ طبعاً، أنا أحبك. أتظن أن الزواج مثل الحب؟....لا...لا!

_ ما الفرق بينهما؟

_ الحب مغامرة حلوة، لذيذة....أما الزواج فصفقة، وأنا لا أحب الصفقات. أنا أحبك يا سامر

_ ولماذا تحبينني؟

_ لأنك مترجم ممتاز، تفهم لغة الفئران والقططة والبعوض أيضاً...الآخرون من البشر، إلاّ قلة قليلة منهم، لا يفهمون لغة الحيوانات.

فقال معاتباً:

_ اتسخرين مني يا بعوضة!

_ لا! لا...أنا جادة فيما أقول...فهذه هي المرة الأولى التي يفهمني بها بشر على الأرض...

_ أنا متأكد أنك لست بعوضة!...وأنا أحبك...

وتابع يقول والدموع تترقرق في عينيه:

_ لن يدوم هذا طويلاً!...بعد أقل من ثلاثة أشعر سأبلغ العاشرة من العمر، وبعدها لن أستطيع أن أفهم ما تقولين ولا القيام بأية ترجمة...

_ آه! يا للخسارة! ولم ذلك؟

_ فقط الأطفال يفهمون لغة الحيوانات كما قُلْتِ قبل قليل...

حَلّقت بعد ذلك في فضاء الغرفة وغنيت له أغنية:

لا تقبل يحيا الملك

قل يحيا الحب

لا تقل يحيا الناس

قل يحيا حب الناس

حبي لك أيها الغالي

يا من تفهم لغة قلبي

أتدري؟

أنك نقلتني إلى عالم الحب.

_ عظيم يا بعوضة...رائع وعظيم...تزوجيني يا حبيبة قلبي قبل أن ينقضي...أقصد قبل أن يأخذك أحد مني.

_ أنا بعوضة...فريدة من نوعها...لا يأخذني احد ولا آخذ أحداً...

ثم أنشدت:

بعوضة منذ الأزل

تعرفت على طفل على عجل

قال لها بسرعة:

تزوجيني...

تزوجيني دون وجل

فَأجابته:

كيف نتزوج كيف نلتقي،

كيف نمارس الحب،

كيف نرتقي،

كيف نجمع بين بعوضة وبشر؟

هل ننجب مخلوقاً

نصفه بعوض

ونصفه بشر

أم ننجب طفلاً

له وجه قرد وطباع الحشر

وما سنطعمه؟

من طازج دمنا

أم محلولاً من دم وعسل؟

كادت الدهشة تعقد لسان سامر. راح يهمس لنفسه:

هذه كلمات ملاك...أنت ملاكي يا حبيبتي، يا بعوضة.

فقلت وأنا أحاول أن أصحح ما أسمعه:

_ لا تنس يا سامر...أنا أحتاج للدم أيضاً لأبقى على قيد الحياة...أن قبلتي رشفة دم، ولدغتي رشفة دم...وإلاّ...أقصد أموت.

_ أنا تحت أمرك يا حبيبة...

ثم شرع يخلع ثيابه قطعة تلو الأخرى. سحرني جمال جسده الصغير الأبيض الناصع وانتشيت بعبيره الدافئ. اعتدل سامر في جلسته. أغمض عينيه وقال:

_ تعالي إليّ يا حبيبتي...

بدون تردد وجدتني ألثم صدره، ما أحلى هذه الرائحة يا حبيبي! أخذت نفساً عميقاً واجتاحني إحساس غريب بلذة لم افهم كنهها وأنا أتأمل وجهه وعينيه المغمضتين.

غير أن المر لم يسر حسبما يحلو لنا. فما كدت أرتشف قطيرات معدودات من أكسير الحياة الذي كان يحمل نكهة التفاح، حتى فتح الباب بغتة، ودخلت منه أم سامر التي صرخت بأعلى صوتها:

_ ما هذا يا سمر!! ماذا حدث لك؟ أأنت مجنون؟ الطقس بارد وأنت بلا ثياب؟ هيا ارتد قميصك وسترتك قبل أن تصب بنزلة صدرية...وهيا نعود إلى المنزل، فأنا متعبة جداً! عجيب أمر هذا الطفل! والله عجيب!

_ أنا لست طفلاً يا أمي...لست طفلاً أبداً.

اليوم الرابع والستون:

تسللت إلى المطبخ، زهر كان نائماً قرب الأريكة، وفلة مستلقية بتكاسل قرب موقد النار، وفوقه قدر كان الطعام يغلي فيه. كنت أترنم بمقاطع من أغنية كانت نفسي تؤلف أفكارها وكلماتها:

سامر...يا حبيب القلب

فجأة تظهر كزهرة فل

ثم تختفي كسحابة صيف

إذا التقينا...إذا التقينا

عندما الطفولة غادرتنا

فلا فله ولا سحابة لدينا

وما من جديد عندنا

إلاّ شذرات...شذرات

من حبنا وصمتنا ودموعنا

عندما سمعني زهر فتح عينيه. نظر شذراً، وقال معاتباً:

_ ها! يا بعوضة...عندما أنا وزهرة كنا نحفر النفق ونزيل ترابه، كنت وسامر تضحكان وتلعبان في الغرفة المجاورة.

قلت بانزعاج واضح:

_ لا...لم يكن الأمر ضحكاً ولا لعباً...سامر يريد أن يتزوجني!

_ يتزوجك؟...ها! كحال الفيل الذي تزوج نملة. قضيا حياتهما...تراه ولا يراها، وتضيع تحت ذيله.

_ لا تسخر مني يا زهر...أنا فعلاً أحب سامر

_ كان بإمكانك أن تذهبي معه!

_ أنا لا أرغب في الزواج. أنا أؤمن بالحب دون حدود.

_ اسمعي سأخبرك أمراً هاماً. جدي اليربوع الأبيض الأصيل الذي قضي حياته في مزرعة أحد المزارعين في هذه المدينة أخبر أبي وأبي أخبر أمي وأمي أخبرتني بأن صاحب المزرعة كان يضرب زوجته، وقالت أمي أنها شاهدت

الكثير من الرجال يضربون زوجاتهم، ولم يحدث قط أن أبي ضرب أمي، أقصد أن سامر يمكن أن يضربك فيقتلك إذا فعلت شيئاً لا يعجبه.

أفاقت زهرة من غفوتها واعترضت قائلة:

_ أنت مخطئ يا زهر. لقد أحبَّني شاب وسيم وقوي وأيضاً لطيف وحنون وأراد أن يتزوجني. كنت أنام معه في فراشه، وكان يقبلني بشغف قبل أن ينام. كان أكثر لطفاً من سيد القطط في هذا الحي الذي حالما يلمحني في الشارع يجري نحوي كالمجنون. يقبض على عنقي بأسنانه، وعندما ينتهي من حُبّه يتركني بدون أن يقول كلمة لطيفة، وإلى أين؟ إلى قطة أخرى...فما رأيُكَ؟

_ ولماذا لم تتزوجا؟

سأل زهر...

_ آه! كم أنا حزينة عليه! التحق بالجيش، وكان يريد أن يأخذني معه لكن رئيسه منعه من ذلك...وسمعت فيما بعد أنه قتل في الحرب،...آه كم أحبه وأحزن عندما أتذكره!!

لاذ زهر بالصمت وهو يُقَلّب الأمر. ثم قال:

_ لكن يا زهرة...كيف يمكن أن تتفاهما!...أقصد كيف يمكن أن تعيشا معاً كزوج وزوجة! مثلاً، أنت لك ذيل تعبرين به عن مشاعرك وإحساساتك بوضوح حركة إلى الأعلى...أنت مسرورة؛حركة إلى الأسفل أنت حزينة؛ حركة نحو اليمين وأخرى نحو اليسار يعني انك تترقبين شيئاً. أليس كذلك؟ أما بالنسبة للرجل فلا ذيل له يدل به على حالته النفسية...فإذا قال: أنا أحبك! فمن يدري! يمكن أن يعني بذلك: أنا لا

أحبك. وقد أخبرتني أمي أن البشر خبثاء وكذابون مثلاً، الواحد منهم يصنع مصيدة، ويخدع الفئران فيمسكها...كما فعل مزارع...اصطاد أبي بمصيدة لكن أبي كان ذكياً جداً جداً فهرب...وفي دكان تاجر زيت الزيتون، وكان غشاشاً، يضيف زيت بذر القطن الرخيص إلى زيت الزيتون الغالي الثمن ويبيعه على أنه زيت زيتون صاف...أقصد في تلك الدكان تعرف أبي إلى أمي وتزوجا....طبعاً زهرة وأنا لا ننسى أن السيدة صاحبة هذا البيت هي فعلاً فاضلة فقد علمتنا المحبة والسلام...كما ترين زهرة مثل أختي وأنا أخوها.

لكن زهرة قاطعته بغضب:

_ فعلاً يا زهر، أنا مندهشة من قلة معلوماتك!

_ لا تقاطعيني يا زهرة...استمعي جيداً...للرجل أصابع ولك مخالب...يعني الزوجة من البشر تحضّر الطعام بيديها وأصابعها...كذلك تغسل الملابس بها، وتنظف الأرض والأرائك والجدران بيديها...فماذا تفعلين وأنت لك مخالب فقط؟ لو تم لكان زواجاً فاشلاً، من حسن حظك أنك لم تتزوجيه....

غضبت فلّة أشد الغضب وانعكس هذا في جوابها:

_ جحر الفأر عالمه ولا يعرف شيئاً غيره، ومنذ صغره يتعلم درسه، أن يعرف كيف يعود إلى جحره الذي خرج منه، إلاّ إذا مصيدة اعتقلته.

تغيرت ملامح وجه زهر وأشاح به عنها، وقال:

_ أنا حزين! لماذا تسخرين مني يا زهرة؟

_ آسفة...دعني أكمّل لتتعلم ما لا تعرفه...فقد أخبرني حبيبي مرات عدة أن لا مشكلة إذا تزوجته، لقد أراد أن يشتري روبوت ليقوم بكل الواجبات المنزلية التي ذكرتها...الروبوت يحضر الطعام، يغسل الثياب والصحون وينظف الجدران...وقال حبيبي أنه يمكنني أن أستلقي وأغفو طوال النهار ونشاهد البرامج التلفزيونية معاً....تماماً مثل زوجة بشرية عصرية وزوجها...هل فهمت لماذا أنت غلطان؟

_ وما هو الروبوت؟

قال زهر متعجباً.

_ لا أدري بالضبط...سمعت أنه رجل مصنوع من الفولاذ والبلاستيك و...أشياء أخرى لا أعرف ما هي...له زر في ظهره، يكفي أن تضغط عليه وتأمره فيفعل لك ما تريد، ولا يخالف أي أمر! وسمعت أن بعض الناس يقولون: زواج روبوتي، وهو أحدث أنواع الزواج...

قبل أن ينبس زهر، فتح الباب. دلفت صاحبة البيت زحفاً كعادتها ونادت زهرة لتأتي إليها.

_ تعالي يا زهرة، يا عزيزتي لأجرّب الخرج الذي سأضع فيه الطعام لابني.

سارعت زهرة إلى حضن المرأة. طبعت قبلة على وجهها. وضعت الخرج على ظهر فلة وراحت تتلمس مدى ملاءمته مع جسم زهرة. ثم هتفت:

_ مليح....لا بأس أليس كذلك يا زهرة؟...موعدنا اليوم مساءً....مسكين ابني لم يذق الطعام الذي أحضره منذ أشهر...هيا يا زهرة، اذهبي ونامي...وأنت يا زهر، أتسمعني؟ أيضاً نم بهدوء فالطريق إلى ابني في سجنه طويل! ترى لماذا أرسل الرب هذا الملك الأَحمق ليحكم هذه المدينة؟ لماذا؟

قالت هذا وانصرفت. حالما أغلق زهر الباب وراءها قال زهر:

_ اسمعي يا زهرة...اسمعي يا بعوضة...أنا لا أتزوج إلاَّ فأرة والفأرة لا تتزوج إلاَّ فأراً هذا هو قانوننا نحن معشر الفئران منذ بداية الزمن.

عروسي فأرة بيضاء

أحلى من كل الناس

نأكل جوزاً ولوزاً

ونرقص قدماً وراس

ننام ملء جفوننا

ويأرق أهل المال والكاس

يحارب البشر بعضهم بعضاً

بالصاروخ والسيف والفاس

ونحن في جحرنا لا نبالي..

لأننا...ماذا! لأننا...آه ساعديني يا بعوضة تدخلت لإنقاذه، فقلت: لأننا من ذهب وألماس. هنا صاح زهر مبتهجاً:

_ فقلت مبتهجة:عظيم يا بعوضة...عظيم وشكراً...أنا أحبك

_ وأنا أحبك يا زهر...وأحب زهرة أيضاً...

قالت زهرة وقد سُرَّت مما سمعت:

_ وأنا أحبك كما تعلمين...جداً...جداً

قلت:

_ عندي سؤال صغير

فقال زهر:

_ وما هو؟

_ هل يمكن أن أرافقكما في رحلتكما هذا المساء؟

رَمَقني زهر بنظرة سريعة ثابتة وقال:

_ لقد وعدتني بأن تجدي لي عروساً بيضاء.

_ أنا عند وعدي...لم أنس وعدي

_ إذن مرحباً بك يا صديقة..

هتف الاثنان معاً، ثم ضحكنا طويلاً بعد ذلك.

اليوم الخامس والستون:

غفوت. فهرع كابوس إلى رأسي. كان مخلوقاً غريب الشكل واللون. أمسك بي. نفخ في فمي. تضخم جسدي كأنه بالون. حاولت عبثاً التخلص من المخالب والأذرع التي أمسكت بي. صرخت بهلع بأعلى صوتي. شعرت بأن لا أحداً سمع صراخي. أخيراً لم ينقذني إلاَّ نداء زهرة تدعوني للسفر. آه يا زهرة، كم احبك!

كانت صديقتي في المطبخ. قَدّمت ظهرها بكل ترحاب لصاحبة البيت لتضع الخرج عليه، الخرج الذي مُلأت إحدى عينيه بالأرز الساخن، والأخرى بالخضروات المطهية. وفي وسطه وضعت زجاجة ملأى بالماء كالتي يستعملها الرضيع لتشرب منها في حالة الظمأ. ثم حملت زهرة بكلتا يديها ووضعتها برفق في الحفرة التي تشكل بداية النفق. ثم خاطبتها مغنية:

يا قطتي الجميلة، يا زهرتي

هيا احملي هديتي – محبتي

لابني الوحيد الجائع
في سجن الملك الغاشم
فقدت بصري بكاءً عليه
وخسرت قَدَمَيَّ في غلطة
على بركة الرب سيري
لا تتوقفي، لا تتراجعي
ثم عودي إلي بسرعة
ومعك عبير من ولدي
أنا وحيدة في دنياي
فليس لي إلاَّ ابني وزهرتي

كان زهر قد قفز إلى الحفرة من قبل، وأتخذ مكاناً له أمام زهرة. وقال مخاطباً صاحبة البيت، كأنّه شعر بالغيرة: أنا هنا...أنا هنا يا سيدتي.

فقالت صاحبة البيت مطمئنة:

_ أعرف أنك قفزت إلى مكانك، لكن لا تزعل يا زهر سأغنى لك أغنية خاصة عندما تعود مع زهرة، إن شاء الرب، وتحملان أخباراً عن ابني.

فقال زهر لنفسه:

_ ليت سامر كان هنا، ليترجم لها، بأني لست زعلاناً.

أما أنا فكان مكاني في نقطة صغيرة قرب أذن زهرة.

ها قد بدأت الرحلة. راح الضوء يخف تدريجياً وكذلك جلبة وصخب الشوارع فوقنا. ثم حلَّ سكون مطبق. انتابني شعور مبهم، كأننا في الطريق إلى هاوية.

قلت مداعبة:

_ زهرة، آمل أن لا أكون ثقيلة عليك!

فَرَدَّت بمرح واضح، على عادتها:

_ أين أنت يا بعوضة؟ هل أنت حبة أرز أم حبتان؟

_ أياً كنتُ، أرجو أن لا تأكليني إذا جعْتِ.

فقالت بمرح:

_ ثقي بأني لا أحب لحم البعوض!

_ لكن يمكن أن يكون شهياً! من يدري!

ضحكنا معاً. وما زلنا نسير. ثم قال زهر وهو يحاول أن يبصر الطريق بوضوح:

_ أنا مثل جدي، اليربوع الأبيض، كان حاد البصر، يستطيع أن يرى مصيدة الفئران من على بعد مسيرة يوم كامل، فإذا رأى مصيدة يعطي إشارة إلى شعبه من الفئران يحذره بها من الاقتراب من المصيدة. أجل! فجدي أنقذ الكثيرين من الموت، من أبناء شعبنا، وعندما مات لم يجد الشعب من يَحِلّ محله فوقع الكثيرون في المصيدة،...انه لأمر محزن حقاً!.

أما زهرة، فما كادَ زهر أن ينتهي حتى بادرت بقصة مشابهة:

_ وهناك قصة تاجر الزيت في المدينة، فإذا وجد فأراً في المصيدة، ينادي هره الضخم، ثم يفتح باب المصيدة، فينقض الهر على الفأرة ويلتهمها، بينما يقف أولاده ضاحكين وهم يشاهدون الفأرة بين مخالب الهر وأسنانه.

فقال زهر معقباً:

_ القططة مجرمون!

اعترضت زهرة بشدة قائلة:

_ لا، لا...ليسوا مجرمين، لا بد لهم أن يأكلوا حتى يمكن أن يعيشوا.

فهتف زهر بسخرية واستغراب:

_ يعيشوا؟ ها! تقصدين أن يقتلونا حتى يعيشوا؟ هذا إجرام!!

يبدو أنَّ زهرة شعرت بسخط وغضب زهر، لذا رغبت أن تتجنب المواجهة معه. فسألتني:

_ ما رأيك يا بعوضة؟

قلتُ:

_ فعلاً توجد أمور غريبة وعجيبة في هذه الحياة. فأنا مثلاً، أحبُّ أن أقَبِّل الناس، لكن في كل مرة أحاول أن أقبل أحداً منهم، يحاول قتلي.

فقالت زهرة بدهشة:

_ لماذا؟ القبلة تعني الحب، فَلِمَ يريدون قتلك يا صديقة؟

وتدخل زهر ليقول:

_ لكن يا بعوضة، ليس لك مخالب وأنياب مثل القطة!

_ المشكلة يا زهر، أني أحتاج لدم بني البشر حتى لا أموت جوعاً...يعني، عندما أقبل بشراً، أمد إبرتي عبر جلده فأمتص جرعة صغيرة من دمه.

ورد زهر:

_ أنا لا أعرف هذا من قبل! اشرحي لي يا بعوضة!

_ إيه! ماذا أقول يا زهر!...ماذا أقول...إذا قَبَّلت لدغت، وإذا لدغت أوجعت، وإذا أوجعت أُضرب بقبضة يد ثقيلة، فإذا ضربت مت...أما إذا هربت، عشت هذه هي حياتي...

فقال زهر متأملاً فيما سمع:

_ م م م...لكن أرجو أن لا تلدغيني، تعرفين بأني لا أملك قبضة مثل البشر لأدافع عن نفسي. أليس كذلك؟

_ اطمئن من هذه الحالة، فأنا لا أحب دم الفئران.

_ وماذا بهم من سوء، أقصد الفئران!

_ استمع يا زهر إلى ما أقول...أنت وزهرة محظوظان لأن السيدة أم الشاب السجين الذي نحمل الطعام إليه علمتكما كيف تتعاونان، وعلمتكما العيش معاً بسلام.

فهتف زهر وزهرة بصوت واحد:

_ صحيح صحيح!

_ أما أنا...فلا أحد يعلمني كيف أعيش بسلام مع البشر...آه! لذا فقبلتي ستبقى لدغتي ولدغتي قبلتي مادمت حية.

وتابعنا المسيرة. خيم الصمت. ثم قطعت حبله زهرة:

_ أين أنت يا زهر؟ فأنا لا أستطيع أن أراك.. تَمَهّل، لماذا تسرع هكذا؟

فرد زهر متعاطفاً:

_ سامحيني يا صديقتي

ومن جانبي قلت:

_ فعلاً الظلام دامس...أنا أحس بك يا زهرة، لكني لا أرى شيئاً منك..

وقال زهر:

_ تعالي إلي يا بعوضة! أنا أقدر أن أحملك أيضاً...لكن لا تنسي وعدك، العروس البيضاء لزهر، أنا أنتظر.

لم أنس. أنا آتية إليك

رفرفت. حَلقّت، انبعث النور من جناحي والموسيقى.

اليوم السادس والستون:

سرنا قدماً ثم توقفنا بعد حين. كان أمامنا جزء من النفق ضيقاً، فلم تستطع زهرة عبوره والخرج على ظهرها. وعَلّق زهر قائلاً أنه كان يفكر بها عندما كان يحفر هنا، لكنه نسي أنها كانت تحمل شيئاً ضخماً على ظهرها.

قالت زهرة:

_ في الحقيقة أنا تعبة وبطني تؤلمني.

وَرَدَّ زهر:

_ سأقوم بتوسيعه...يمكنك أن تستريحي قليلاً يا زهرة جلست بجانب زهرة أراقبه وهو يحفر التراب الممزوج بالحصى، بأنيابه وأظافره ثم يزيح التراب جانباً. ثم توقف بدوره عن العمل واستلقى قرب جدار النفق لا هثاً.

قال زهر:

_ إن هذا الجزء شديد الصلابة...مستحيل وحدي.

فسألته:

_ ماذا نفعل؟

أجابت زهرة بيأس واضح:

_ نعود من حيث أتينا...الألم يشتد في بطني.

قلت:

_ لا لا.. زهر...أتعرف كم تبقى من الطريق؟

_ لا أدري!

_ سأستكشف الأمر بنفسي

طرت لمسافة ليست قصيرة ولا طويلة، ثم هبطت بهدوء عندما ترامى إلى سمعي أصوات غريبة...خربشة وحفر ونبش...كأنَّ أحداً يحاول الدخول إلى النفق عبر السقف. ها هو التراب يتساقط حولي والثغرة تتسع بينما شعاع ضوء خفيف راح يتسلل عبر الغبار. ثم رأيت رأساً صغيراً يطل من الأعلى. كانت فأرة بيضاء صغيرة قد قفزت نحو أرض النفق وشرعت تنفض الغبار عن جسمها.

قلت بهدوء، وأنا أحاول أن أحلّق:

_ عليك السلام...لا تخفي يا صديقة...أنا بعوضة

_ بعوضة؟

واستطردت:

_ بعوضة!! ومن أين لك هذا النور والموسيقى؟...و...و أقصد...أن البعوض يعيش فوق الأرض وليس في نفق...أين أنا؟

_ أنت في مأمن!

_ هل أنت بعوضة حشرة أم جنية؟

_ أنا بعوضة، وسأخبرك قصتي فيما بعد...لكن أتساءل لماذا ترتجفين هكذا من خوف كبير؟

_ قط كبير كان يلاحقني، ولولا أني وجدت هذا الثقب في أرض الشارع فوقنا لكنت الآن بين أنيابه ومخالبه تمزقني إرباً.

_ أنا مسرورة أنك نجوت، وأنك الآن في مأمن، لدى صديق وصديقة تعالي معي لتتعرفي إليهما.

لكن ما إن لمحت زهرة جالسة وقد سد النفق بجسدها والخرج الملآن على ظهرها حتى وَلّت الأدبار. لحقت بها وأخبرتها أن زهرة قطة طيبة لا تؤذي أحداً وأردفت:

_ صديقها زهر، هو فأر.

وناديت بأعلى صوتي:

_ زهر، زهر...تعالى لتتعرف على ضيفتنا الفأرة البيضاء فاعترضت:

_ بل قولي السيدة الفأرة البيضاء الجميلة.

_ سامحيني أيتها السيدة الفأرة البيضاء الجميلة....زهر...زهر

برز زهر وجسده مغطى بالغبار

قال وهو ينحني أمامها بكل احترم ووقار:

_سيدتي الفأرة البيضاء الجميلة...أنا زهر...أنا الذي حَفَر هذا النفق.

تأملته برهة، ابتسمت وقالت:

_ أنت فأر مؤدب...ونشيط.

كانت زهرة مغمضة العينين، وكان عرق غزير يتصبب من جبينها ووجنتيها.

قالت الضيفة:

_ دعيها ترتاح...لكن ما هذا الذي تحمله على ظهرها.

ولمّا أخبرتها القصة، تملكها العجب والإعجاب وقالت تخاطب زهراً:

_ هيا إلى العمل، أحسب أن الشاب في السجن جائع.

تحت ضربات الأنياب والأظافر من الفأر والفأرة راح النفق يتسع...وبسرعة، بينما كان جناحاي يملآن المكان بالنور والأنغام.

ها هي زهرة تعبر المضيق بسهولة وتجلس لتشرب قطرات من الماء من الزجاجة البلاستكية التي أحضرها زهر لها من فوق ظهرها.

وسارت القافلة من جديد. اقتربت من زهر وقلت همساً:

_ زهر...هل أوفيت بوعدي

فاومأ فرحاً ثم طبع قبلة سريعة على وجه محبوبته. السيدة الفأرة البيضاء الجميلة، والتي راحت تبتسم بسرور بالغ.

اليوم السابع والستون:

وتابعنا المسيرة.

قلت للسيدة الجميلة:

لقد أخبرتك قصتنا، أقصد قصة المرأة المقطوعة الرجلين وولدها السجين الذي نحن ذاهبون إليه، وكذلك قصة زهرة وزهر وقصتي أنا (لكن لم أذكر شيئاً عن حياتي في الجنة)....ولم تخبريني قصتك كاملة. فهل كنت تتنزهين عندما هاجمك القط الأسود؟

قالت:

_ لا،لا...بل كنت هاربة من الصندوق الزجاجي الذي حبسني وزوجي فيه البروفسور الأصلع الذي خصص حياته لدراسة سلوك الفئران...أقصد، حسبما فهمت منه (فأنا أفهم لغته لكنه لا يعرف هذا ولا يفهم لغة الفئران) خصص حياته لدراسة التشابهات بين الإنسان والفأرة، وله مختبر في جامعة المدينة مصدر ميزانيته الديوان الملكي لتشجيع البحث في المخلوق الكوني...البرفسور هذا يريد أن يختبر المعادلة الهرمونية التي تقول أن الفأر، _يعادل الإنسان، وأن الإنسان_، يعادل الفأر، هكذا كان موضوع محاضراته على طلاب البيولوجيا الكونية في جامعة الملك الأوحد.

وتابعت:

باختصار، يا صديقتي، كان يريد أن يؤكد صدق نظريته أن ضرب الزوجة من الطرف الزوج يؤدي حتماً إلى الطلاق. ومن أجل أن يختبر مدى صحة فكرته هذه وضعني وزوجي معاً في صندوق زجاجي خاص، فكلما اقتربت من زوجي لأقبله، كان يعاقب بصعقة كهربائية. لكنا، أنا وزوجي فهمنا اللعبة (ولم يكن البروفسور يعرف هذا)...بالأمس قام يجري تجربته أمام طلاب ثانوية المبدعين الكونية...وعندما صعقني البروفسور، أسرعنا، زوجي وأنا، لنقبل بعضنا. هنا ضحك الطلاب الشباب وقهقهوا، ثم اغتنموا هذا الجو المرح وانهالوا يقبلون صديقاتهم بشغف بينما صديقاتهم كنَّ يخزنهم بالإبر ويخدشون وجوههم بالأظافر...وكلما اشتد الوخز الأنثوي ارتفعت درجة حرارة القبلات واشتد التصاق الأجسام في قاعة المحاضرات الكونية. صرخ البروفسور غاضباً لكن أحداً لم يعبأ به، فأخرجنا من

القفص هائجاً ووضعني وزوجي أمامه ثم شرع يضربنا بسلك معدني...قفزت بسرعة عبر النافذة القريبة وانطلقت في الحديقة (لكن لا أدري ماذا حصل لزوجي) ثم تسللت عبر شق في جدار المخبر. كنت أعدو بأقصى سرعتي، عندما لمحني قط أسود كان يقود سيدة عجوز عمياء...فقد رشده عندما لمحني (فأرة بيضاء جميلة)، فتخلص من صاحبته وانطلق ورائي هائجاً كالثور الوحشي. لما فقدت العجوز زمام الأمور، ارتطمت بشجرة وسقطت على الأرض، ثم حضرت سيارة للإسعاف حملتها إلى المستشفى...كانت المطاردة عنيفة جداً، بعدها دخلت ثقباً في الجدار واختبأت فيه بينما القط اللعين يرغي ويزيد ويشتم قائلاً: سأبقي هنا أنتظر خروجك يا ملعونة...إلى الأبد...إلى الأبد. آه، ما أحلى طعم لحم فأرة بيضاء! إلى الأبد...لن تفري مني...لن تفري.

شرعت أحفر الأرض حتى وصلت إلى هذا النفق.

فقلت:

_ شكراً يا سيدتي...نحن محظوظون أننا التقينا بك لتنقذينا، وتنقذ ذلك الشاب السجين الجائع...

بعد مضي وقت لا أتذكر...طويل أم قصير، صحت بأعلى صوتي والغبطة تملأ قلبي ورأسي..

_ أنظروا...انظروا هناك نهاية النفق.!

اليوم الثامن والستون:

_ ها قد وصلنا!

صاح زهر بأعلى صوته. فردَّت زهرة بصوت خافت:

_ وصلنا! وصلنا ماذا؟

قلت وقلق دفين يساورني:

_ ماذا بك يا زهرة؟ آمل أن تكوني بخير!

لاذت بالصمت. حاولت أن أكرر سؤالي لكن صوت زهر لعلع ثانية في النفق المعتم:

_ أين أنت يا بعوضة؟ هيا أضيئي هذا المكان المظلم.

كنت على كتف زهرة. نهضت بسرعة وحَلَّقت في الفضاء الضيق، فبانت معالم المكان. ثمة جدار أمامنا، والسقف الترابي...لكن بدا جزء منه أملس كأنه حجر مصقول. وبخفة تامة تسلق زهر الجدار وهرول بمهارة عبر السقف متشبثاً بحبيبات التراب التي علقت به. صاحت فلة وهي تراقب حركات "حبيبها":

_ حذار أن تسقط يا زهر!

لكنه لم يعرها أي اهتمام. وعندما وصل إلى البلاطة، نقر عليها برأسه ثلاث مرات ثم قفز إلى الأرض وهو مثبت بصره على البلاطة.

لحظات...زحزحت بعدها البلاطة ثم رفعتها يدا إنسان. ومن الفتحة التي تشكلت في مكان البلاطة في السقف أطل وجه بشري وسيم أحسست أني أحبه، رَحَّبَ بالجميع بينما كنت اقترب من الفتحة لألتقط مزيداً من صورة وجهه. قلت لنفسي:

_ هذا هو حبي!

طلب الفأر زهر من القطة أن تتقدم لتتخذ مكاناً مناسباً تحت الفتحة كي يستطيع الشاب (حبيبي) أن يتناول الخرج. فتقدمت ببطء شديد زاحفة على بطنها وهو تموء بصوت مبحوح متألم. سألها زهر إن كانت مريضة فأجابت بالنفي لكنها أضافت:

_ إني على وشك أن ألد.

أذهلتنا المفاجأة. بينما كانت يدا الشاب السجين، تنقل الطعام من الخرج إلى إناء لديه، كانت قطيطات أربع، كأن كلاً منها كتلة لحمية صغيرة، تخرج من بطن أمها واحدة تلو الأخرى.

كانت فلة منهمكة وزوجها في استقبال الجدد، كنت أتأمل اليدين الناعمتين الظريفتين والأظافر الجميلة. لم يدم الحال طويلاً، ها هما اليدان ترجعان الخرج إلى زهرة، ثم:

_ زهر...وضعت رسالة لأمي في الخرج

هز الفأر الذكي رأسه وقال:

_ أمك تريد أن تراك. مشتاقة إليك كثيراً...

لكن الشاب لم يفهم شيئاً، فليس هناك من يترجم.

وأنا؟ سألت نفسي. سيعود الرهط من أصدقائي أدراجه فرحين بصغار زهرة...وأنا...ماذا أنا فاعلة بنفسي؟ كيف يمكن أن أترك حبي وحده في السجن...إضافة إلى أنه يمكن أن يكون آدم الذي أبحث عنه...ربما...لا! لا...لن أستطيع العيش بدونه. لا بد من أن أتخذ قراري بأسرع ما يمكن...

وفي الضوء الشاحب الذي كان ينبعث من غرفة السجن فوقنا، تسللت بهدوء، عبر الفتحة إلى داخل الغرفة..

إيه! أنا وحبي وحدنا! قلت لنفسي بسرور بالغ. لما استقرت القطيطات في الخرج، اثنتان في كل عين، ارتاحت زهرة وراحت تبتسم. كانت تلتفت من لحظة إلى أخرى لتحظى برؤية صغارها وتلعق إلى ما يصل إليه لسانها من أجساد القطيطات النائمة.

شعرت كأن النفق غاب عني في واد عميق. لم أعد أسمع كلمات بل مجرد أصوات وحركات. انقبض صدري حزناً. لم فعلت ذلك يا بعوضة، قلت لنفسي. هكذا أتغادرين دون أن تودعي...أو على الأقل: كلمة وداعاً!

لكن حبي أقوى! لا أدري ربما نلتقي يوماً ما. كان حبيبي جذاباً، آه كم أريد أن أقبل وجنته الوردية وعينيه...استلقى على سريره العتيق وهو يتلمظ بعد أن تناول ما استطاع من الطعام الساخن، طعام حضَّرته يد أمه المسكينة التي لا شك أنها تنتظر عودة زهرة بفارغ الصبر، لتسألها عنه...وتقرأ رسالته.

والآن! إن لمحني حُبّي...سيقتلني، فهو لا يعرف عن قصتي شيئاً. عليَّ أن لا أطير، سأنتظر حتى يغلبه النوم.

غير ما توقعت إطلاقاً، رأيت الكوة في باب الغرفة الحديدي يفتح فجأة وتطل منها عينان تشبهان عيني قرد ضيّع طريقه في أجمة....ثم رأيت أنفه عبر الكرة. ثم سمعت حركة المفتاح في القفل.

فتح الباب، ودلف حارس السجن إلى داخل الزنزانة دون أن ينبس شيئاً، بينما بقي الشاب مستلقياً، طبعاً، حتى يطلب منه أن يقف لكن جملة صغيرة خرجت بدون أن يشعر. قال:

_ ما الأمر يا أخي؟

لم يجب عن السؤال. بغريزة حيوان جائع، جذبته رائحة الطعام إلى الزاوية. هناك جلس القرفصاء وشرع يتأمل المكان مستعيناً بأنفه. مدَّ ذراعيه، والتقط البلاطة ورفعها ثم وضعها جانباً. لكن ما أن اقترب وجهه ليفحص ما يوجد تحتها، حتى تراجع والدم يسيل من وجهه.

لم تكن زهرة قد غادرت مكانها بعد. لذا فما أن لحت الوجه الغريب وشمت رائحة يديه وهما تقتربان من صغارها حتى هبّت كلبؤة جريحة، وانشبت أظافرها في وجهه وهي تموء كعواء ذئب جريح.

ذهل الرجل. تراجع والدم يقطر من وجنتيه ومن جبينه. لم يقل شيئاً للسجين لكنَّ كلمتين شقت ستار الصمت والظلام. قال وهو يرتجف:

_ يوجد جان هنا..

أطفأ الضوء واختفى بينما كان حبيبي وأنا نبتسم بدون أن يعرف أني قرب عنقه. حبيبي البطل الذي رَفض (كما فعل أبوه من قبل) أن يقول: يحيا الملك.

اليوم التاسع والستون:

أول ليلتي حلم وآخرها عصا. كان الحلم جميلاً وكانت العصا مؤلمة الحلم كان حلمي والعصا كانت لحبيبي. لقد عاهدته على أن نقتسم الألم كما نقتسم الفرح.

حبيبي نائم. وأنا اسهر الليل، هنا، أرقب من عل. كانت غرفة السجن ضيقة: جدران مهترئة وسقف عشش العنكبوت فيه، عتمَة وسرير عليه فراش عتيق، مرحاض ورائحة نتنة.

يغط في نومه. هذا هو حبيبي. شخيره كحفيف أوراق الشجر في يوم خريفي. وأنفاسه!...آه ما أحْلى أنفاسه!.. لكن ماذا لو استيقظ ورآني!! لا شك...بما أنه لا علم له بمن أنا، فسوف يطاردني. قد يمسك بي، يقتلني!! لا أدري!...

أنا أحبه...ولكن ماذا جنيت في حياتي هذه، منذ أن لمست قدماي هذه الأرض؟... أنا جئت بالحب وللحب...حبي شلال أبدي لا يجف وأنا حية بمائه الطاهر، النقي. حية أو ميته! لا بأس...خطر ببالي أن أرقص! لِمَ الرقص؟ لا جواب على هذا السؤال...حَلَّقت في الفضاء المعتم واقتربت لأرى وجه حبيبي...عن كثب، في نوري، نوري الذي ينبعث مني...إني أقترب منه...وفي توهج جناحي رأيته...آه إني أحبه، أحبه، أحبه....

بعدها وجدت نفسي أُحلق على ارتفاع منخفض وأنادي القطيطات لتمسك بي...وعندما كانت تقترب كثيراً كنت أحلّق في الفضاء وهي ترنو إلي، ثم تقف على قائمتيها الخلفيتين وتقفز، ثم تعود للقفز...حلمت أن تلك القطيطات أصبحت من أبنائي، فرحت أغني لها أغنية وهي تركض محاولة القبض عليَّ...لكن هيهات:

_ يا ماما تعالي...أنت والأحباب

ومحبتك جيبي لي وبعض الأصحاب

بد ي شوف وجهك الصبوح

عندما القمر يلوح

وعلى الدنيا بآضي

وبتغني لي أغنية

_ أنا والله بحبك

وبعرف أنك بتحبيني

ومن حنانك عطيني

وجيبي حلوى وثياب..

لم تعجبني الأغنية فحاولت، وأنا في الحلم أن أحسنًّها خاصة عندما ذكرني سمير الذي كان يترجم كلماتها للسيدة صاحبة القدمين المقطوعين..التي قالت: يا صديقة، الأغنية حلوة...لكن حَسّنيها

أنا منهمكة في الأغنية والطيران واللعب، فرحة بالقطيطات وحبيبي يغط في نومه، والليل ينزلق ببطء نحو الفجر...أهو في الحلم؟ أم في اليقظة؟ فتح باب الزنزانة فجأة، ودخل حراس الليل، وكانوا ثلاثة مسلحين بقضبان خشبية...على شاكلة أغصان شجرة الرمان...توجه القائد نحو البلاطة، ألقى عليها شعاع من مصباح بطارية، وفحصها لكنه لم يجرؤ على لمسها خوفاً...من الجان. استدار نحو السجين، وشرع الثلاثة يضربون حبيبي دون إنذار...صاح أحدهم: خذ هذه العصا يا قذر...واستدع الجان...هيا...سقط حبيبي من السرير، ثم تحرك بغريزة الدفاع عن النفس، إلى ما تحت السرير...تقدم أحدهم وسحبه من قدمه ثم راح الثلاثة يركلونه بلا شفقة ولا رحمة.

صراخ...بكاء...شتائم...وآهات، ووجوه نكرة يقطر الغضب منها...

ثم خرجوا كما دخلوا...

ليس لدي كلمات لأصف حالة حبيبي وحالتي. حَلَّقت في الظلمة فأضاء المكان وسُمِعَت ألحاناً موسيقية خفيفة. لاحظني حبيبي...وربما ظنني فراشة مضيئة..اقتربت منه وقلت مالا يسمعه: إني احبك....

تمنيت لو كان باستطاعتي أن أعود للحظة واحدة إلى ما كنت عليه قبل بدء الخليقة. وعبرت ذهني صور شاحبة من ذكريات...عندما كنت في الفردوس، قبل أن تحل اللعنة بي.

اليوم السبعون:

أنا هنا لأني أحب! أنا أحب إذاً أنا حرة...حتى ولو كنت في زنزانة سجن الملك. وكل من في قلبه حب هو حر حتى لو كان عبداً. أما حبيبي!!

حبيبي لا يحبني لأنه لا يعرف حقيقة وجودي. حبيبي يحب شعب بلاده إذاً هو حر. الملك عبد لأنه لا يحب إلاَّ نفسه. الحب دوماً للآخر...الحب هو حب الآخر، أما حب النفس فهو كره.

هكذا تعلمت الدرس الأبدي منذ أن زرت شلالات الحب والشعر والموسيقى! آه! كم أتوق إلى أصلي!

وجودي على الأرض لم يغير شيئاً...

ومرت أيام...ونحن وحدنا في السجن. كالخرس. أتأمله، أراقبه، أسهر عليه...يتأملني ويبتسم...أكلمه فلا يسمعني

من أنا؟

أعتقد انه يظنني فراشة مضيئة، ضَلّت طريقها: تركت المروج والجبال والوديان وجاءت إلى هذا السجن...بسبب غبائها...

فلا تدخل السجن وتبقى فيه إلاّ فراشة فقدت عقلها أو ضَلّت طريقها.

لكن لا ضرر مني...أنا لم ألدغه، لذا طبعاً، لم يحاول قتلي كما يفعل البشر بالبعوض، حسب العادة.

ومرت أيام وأخرى!

لن أرحل من هنا. وإذا فكّرت بالرحيل، أرحل إلى أين؟

لا بحث عن آدم؟ ربما يكون حبيبي هو آدم...وقد تقمص هذه الهيئة التي هو عليها...لكن...لكن....

آه لو تحدث معجزة! عجيب أمر حبيبي، أليس لديه أحلام يراها؟ ألا يحلم؟ ألم أتجل ذات مرة...أقصد رؤيا...أليس لديه رؤيا؟...لماذا لم أدخل ثنايا حلمه بعد؟ أو رؤياه؟.

هذا أمر عجيب ومحزن..

يا حبذا لو يراني أتحول هنا في سجنه إلى عروس صغيرة، جميلة ذات جناحين...ماذا لو حدث المستحيل؟..

لكن نص الأمر من الرب الذي قرأه الملاك على سمعي قبل أن أطرد من الجنة،...حسبما أذكر...أن أبقى بعوضة شكلاً ومضموناً إلى الأبد..

لا أمل أن أعود إلى سابق شكلي وهيئتي...لا أمل!.

ولا أحد يستطيع أن يغير من أمر الرب شيئاً!..

وإبليس برهان على ذلك..

إني أبكي...أبكي وحدي...

لاحظت أن الجدران تحمل كتابات تركها أولئك الذين مَرّوا من هنا. بعضها ينضح ألماً وبعضها يشتم الملك وملوك الأرض والممالك والبشرية

جمعاء...كلمات...عبارات...بعضها بالحبر وبعضها الآخر بالدم وأخرى حفراً بالأظافر أو بأدوات أخرى...كلمات كانت كل ما يملك أصحابها من سلاح لمجابهة الملك وجنوده وزبانيته، سلاحهم المتبقي في حوزتهم قبل أن يصل حبل المشنقة إلى رقابهم أو تصل الرصاصات إلى قلوبهم...ماذا أرى؟...قرأت بصعوبة عبارة كادت تطمس معالمها..." كلمة واحدة...لا...لا ذكرى تبقى هنا على هذا الجدار قبل أن يأخذوني إلى المشنقة...كلمة: الله واحد وإليه مصير الجميع...ساحا سبك يا أيها الملك الظالم"، وبجانبها عبارة أخرى "سأحاسبك...لا...لا...يا داخل هذا المكان صلّ على النبي العدنان، فالصلاة تمحو كل همومك وهموم السجن...وهي تمحو حزنك وغضبك" وهذه عبارة ثالثة: "يظن الملك وأبالسته أنهم حبسوني! ها!!...لا...بل أنا حر، حر، حر...وروحي سوف ترفرف فوق كل الدنيا وهي في طريقها إلى النعيم".

ألقيت نظرة عجلى على جفونه، وشعره الأسود الطويل وأنفه الصغير...فسألته: وأنت حبيبي ماذا تكتب؟

طبعاً لم يسمع سؤالي، فقلت: أنا سأجيب عنك...ألقيت نظرة أخرى على وجهه الصبوح، فألهمتني: أنت ستكتب ماذا ستكتب؟ أكتب يا حبيبي:

"كنت في هذه الزنزانة مع أجمل فتاة خلقها الرب، قبل أن يخلق آدم وقبل حواء...لذا فأنا لا أبالي بمصيري!"

ثم توقفت وأنا أسأل نفسي: إيه أجمل فتاة!! بعوضة! من يصدق...يا للكذبة الكبرى...ترى من يسأل من؟ ومن يجاوب من؟ في أسئلة الكون الكبرى!!

لا ريب أني أهذي،...لو أنّ حبيبي اخترق صدري...ماذا يجد؟..

شعرت بالألم يعتصر قلبي. بكيت ثم غفوت. في حلمي القصير، قبل الفجر بقليل...لم أذهب بعيداً...وجدتني مع زهرة وزهر والكل...في بيت المرأة المقطوعة القدمين...ما أحلى أبناؤك يا زهرة!...ماذا سميتهم؟ لا أدري إن كانت الأسماء مهمة عند القططة! لكن أنا أقترح عليك هذه الأسماء...سمها كما يلي...فكّرت...آه! لا أدري!...لا كن أقترح يا زهرة أن تسمها أسماء فيها عطر الورود والياسمين و...لا أدري..

اليوم الحادي والسبعون:

قرأت من بين ما قرأت عبارة كتبها أحد المساجين على جدار الزنزانة قبل أن يغادر هذا المكان:

"علموني أن أطلب الموت كي توهب الحياة لي. يفر الناس من الموت، أما أنا فالموت لا يخيفني. فبالموت أرجع إلى خالقي، وكم أتمنى ذلك. أما الحياة فتفزعني. الحياة مع الناس، وحاولت أن أعيش بعيداً عنهم فلم أفلح. لقد وجدت أن الناس أنواع وأشكال عديدة. وكل يعيش حياته حسبما يحلو له.

مِن الناس من يحيا حياة السلحفاة. ينسج لنفسه ستاراً لا تراه عيون الآخرين ويختبي وراءه كما تفعل السلحفاة كما أعرف تاجراً كالطير الجارح الذي لا يشبع من ازدراد لحم ضحاياه من أبناء بلده، سواء كانوا أحياءً أو أمواتاً. أعرف أحدهم، هو كالقرد. وآخر كالعنكبوت. وثالث كالقرادة التي تعيش في دبر الثور. أجل! كان لي صديق يشبه الفيروس، إذا حضر يجعل كل من حوله مرضى.

...أما ملك هذه المملكة الذي حكم عَلَيَّ بالموت، لأني طالبته بحقي من الثروة الطبيعية في بلادي. هذا الملك، له شكل البشر أما روحه فديناصور. ديناصور بكل معنى الكلمة...يضرب، يقتل، يزدرد من يخالفه. وها هو الآن يصنع ديناصوراً من ابنه ليخلفه إذا ما ولى إلى جهنم الحمراء وبئس المصير، بعد أن يأكله الدود.

بعد قليل سيأخذونني إلى الموت، لا أبالي...لكني أتساءَل عن نوع الحياة التي عشتها. أنا لا أعرف إن كنت أقرب إلى طير أو ضفدعة أو عصفور...!!"

لم أكد أتم قراءة الرسالة المهمشة، حتى فتح باب الزنزانة ودلف جنود ثلاثة إلى داخلها. صرخ قائدهم بصوت مزمجر:

_ انهض واهتف يحيا الملك...هيا!

غير أن حبيبي نهض بهدوء، وبصوت مفعم بالسكينة والثقة بالنفس أجاب:

_ الملك واحد من الشعب. إذا عاش الشعب يعيش الملك، فليحيا الشّعب.

استشاط القائد غضباً واشتعلت فيه النيران، فوجه لكمة إلى وجه السجين وصرخ كالمجنون!

_ خذوه.

انتقلت من الجدار إلى كتفه، ولم يرني أحد. وهمست قرب أذنه قائلة: سأذهب معك يا حبيبي. لقد عاهدتك على أن نقتسم الفرح والحزن. لذا سأبقى معك يا حبيبي.

لما صعد حبيبي برفقة الجند إلى السيارة التي كانت تنتظرهم في الشارع قلت لنفسي: يا ليته يعرف أني حورية جميلة للحظة واحدة فقط، وأني ذكية وأشياء أخرى يا رب غيرني للحظة واحدة، للحظة واحدة فقط. ثم أجهشت في البكاء.

توقفنا. نزلت معه وهو مكبل اليدين، لكن ابتسامته الساخرة، الهادئة، الثابتة المعبرة عن روحه لم تفارقه لحظة واحدة. كان حراً، هكذا اعتقدت وأنا أراقب تقاسيم وجهه...

نحن الآن عند الساحة. البعض يسميها ساحة العقوبة، والبعض الآخر يسميها ساحة الموت، وآخرون يسمونها ساحة شهداء الشعب. أما الملك فيسميها: الساحة الملكية لتوجيه الرعية. أصلاً هي ساحة لرياضة كرة القدم.

انشئت بأمر ملكي، حول شجرة دفلة ضخمة. أمر الملك بأن يربط إلى جذعها الضخم كل من يحكم عليه بالإعدام، ثم تطلق النار عليهم. وحولها نصبت حواجز حديدية لمنع الجماهير من دخول الساحة.

أعد للملك سرادق خاص. هناك جلس الملك وقائد الجيش إلى يمينه، وقائد الأمن الملكي إلى يساره، وحوله المدعوون والعسكر المسلحون ببنادق آلية وسيوف وخناجر.

أما أم السجين (المرأة المقطوعة القدمين) فقد جلست في زاوية مرتفعة قليلاً عن سطح الأرض لترى بأم عينيها ابنها وماذا يجري له. حولها وفي حضنها كانت زهر وزهرة وفلة والقطيطات الأربع تلعب في حضن الأم، تعبث مع بعضها، وتتسلق صدرها بين الحين والآخر.

كانت أشعة الشمس حارة، والشمس قاربت كبد السماء في رحلتها الأبدية. هبت ريح عاصفة عبثت باللافتة الضخمة التي نصبت فوق السرادق، والتي كتب عليها بأحرف عريضة: كل من لا يهتف يحيا الملك جزاؤه الموت. وحملت أجنحة العاصفة غباراً ورملاً ناعماً ضربت بهما وجه الملك وحاشيته. فقدم أحد الحراس نظارته السوداء إليه ليحمي بها عينيه. وهمس الملك في إذن الحارس حاثاً إياه على تنفيذ حكم الإعدام دون إبطاء. بدوره نقل الحارس الأمر عبر جهاز لاسلكي إلى المسؤولين عن التنفيذ.

أما أنا فكنت مازلت في مكاني على كتف حبيبي، غير مستوعبة تماماً ما يجري حولي. جيء بحبيبي إلى الساحة، ثم ربط على جذع الدفلة، وهو رافع رأسه متحدياً قدره.

كانت الشجرة تنتحب، ذبلت زهورها، وأطرقت أغصانها حزناً. سمعت الشجرة تخاطبني غاضبة:

_ آه ما أغباك يا بعوضة! أنت شاطرة في اللدغ ومص الدم، ولا شيء غير ذلك.

انتفضت غاضبة من قولها، كأنَّ كأن ثعباناً لدغني وقلت:

_ كيف تقولين هذا يا دفلة؛ أنت لا تعرفين شيئاً عني؟!

فردت بعنف وغضب كبيرين:

_ سواء عرفت أم لم أعرف، وما قيمة ما أعرف ومالا أعرف، وأنت هنا على كتف حبيبك غير عابئة بحالته. طبعاً عندما يطلقون الرصاص على رأسه تفرين لتبحثي عن رجل آخر تحبيه لتمص دمه. أليس كذلك؟ كدت

أجن غضباً. تلك أكبر إهانة يمكن أن أتلقاها في حياتي. وقلت أحدث نفسي. آه يا حبيبي أيقتلك الملك وأنا هنا أتفرج!

وتابعت الدفلة خطابها لي:

_ هيا...هيا يا بعوضة! لا وقت لتضيعيه...هيا أسرعي إلى القاتل والدغيه...أنا شجرة لا أتحرك، أتأوّه، أحزن، أتألم وحدي...وأنا صامتة...هيا يا غبية!

انطلقت كالمجنونة، كالسهم في الفضاء. لم يرني أَحد. لم يهتم بي أحد. لم يلحظني أحد. ثم هبطت كطير جارح على كتف الجندي المكلف بإطلاق النار على حبيبي. كان قد أتم استعداده، بندقيته مصوبة نحو صدر حبيبي الذي بدا هادئاً وغير مكترث بما يجري.

أطبق صمت مطلق على الناس وخيم جو رهيب، فلا تسمع إلاّ صرخات مكتومة من عجوزا وطفل. أم السجين أدارت وجهها جانباً متحاشية أن تبصر عيناها وجه ابنها وهو يفارق الحياة. راحت تضم بقوة زهرة وصغارها إلى صدرها وتقبلهم بشغف.

أما أنا....

انطلقت كالسهم في الفضاء. لم يرني أحد، لم يهتم بي أحد. لم يلحظني أحد. بعد حين هبطت على كتف الجندي المكلف بإطلاق النار. وفي اللحظة التي حرَّك الملك يده، إشارة إلى القيام باطلاق النار، غرست ابرتي إلى آخرها في عنق الجندي الذي كان يتصبب عرقاً. فتأوّه ألماً، فانحرفت يداه لتطلق الرصاصة وتستقر في مكان مجهول بعيداً عن الشجرة وعن حبيبي.

أجل! تأوّه ألماً ثم هوى بقبضة يده الثقيلة علي: هشم رأسي وكسر أضلاعي وأطرافي.

رأيت روحي تخرج من جسدي، لهبة زرقاء لطيفة، ارتفعت ببطء في الفضاء وتوقفت فوق رأس حبيبي. ثم حدثت المعجزة.

تحوَّلت إلى بنت، تلك الفتاة ذات الجناحين، كما كنت في الجنة تماماً. رفرفت بجناحي الذهبيين المضيئين، وأنغام موسيقية تنطلق منهما. اشرأبت الأعناق نحوي وذهول فريد يعقد الألسنة ويُسَمّر النظرات. ثم سمع صوت مجهول المصدر يقول: هذا ملاك من الرب جاء لينقذ هذا البريء. استجاب الجمهور مردداً: بريء، بريء، بريء أنقذوه من أهل الشر. انطلق الجمهور لا يلدي على شيء، فلم يكن ممكناً التصدي له، فوقف الجنود حائرين.

حَلّوا وثاق السجين، نقلوه على جناح السرعة إلى مكان مجهول، أما الملك الذي أصيب بالذهول، فطلب أن يغادر، فكان له ما أمر به.

اليوم الثاني والسبعون:

جعلتني لعنة الرب بعوضة، ولما أنقذت نفساً من الموت صرت إنساناً، يا فرحتي!

ارتسمت على صفحة السماء اللازورديه : فتاة صغيرة جميلة ذات جناحين، ثوبي من زهور قوس قزح. عزفت سمفونية بجناحي وأنا أتمايل، سمفونية مازلت مختزنة في جناحي منذ الأبد. وتمايل الجمهور تحت طرباً. لم يفهم كلماتي لكنه فهم ألحاني.

أنا الآن تماماً كما كنت في الفردوس الأوّل. يا فرحتي! خاطبت الجمهور بصوت خافت:

_ أنتم كلكم آدم وكلكم حواء يا أحبائي. لقد طردت من الفردوس لأكون مع أبيكم الأول، لأني أحب آدم وأحب حواء. فسلامي إليكم ومحبتي لكم... سلامي إليكم ومحبتي لكم.

رأيت طفلاً يحدق بي كانت أمه تحمله على ذراعها لقد فهم كلماتي فقال:

_ ماما...اسمعي هذه العروسة تقول حبي لكم...ماما قولي: أنا أحبك... قولي أنا أحبك...هيا قوليها..

لكن الأم لم تصغ. كانت منهمكة في النظر إلى الأعلى، وتحاول أن تقترب مني. مدت يدها نحوي، مثلما يفعل الحشد. كنت قربها لكن لن تستطيع الوصول إلي لتلمسني، لتحظى ببركة. وصاح البعض: هذا ملاك، هذا ملاك.

صرخ شيخ مسن:

_ معجزة وحق السماء...أيه والله معجزة. اللهم بارك لنا بها، وأغفر ذنوبنا وأدخلنا الجنة

فرد عليه من حوله:

_ آمين، اللهم آمين.

لست أدري كم استغرق هذا الأمر. ولما تحركت مبتعدة عن شجرة الدفلة، تبعني الحشد. عدت توقفت وارتفعت قليلاً في الفضاء حتى لا تصل الأيدي إليّ. وعدت ثانية أقول:

_ السلام عليكم وحبي لكم...

فرد الأطفال:

_ وعليك السلام وحبنا لك...

بينما كان العجب والدهشة يستحوذان على أبائهم وأمهاتهم الذين لم يفهموا لغتي.

لم يدم هذا الحال طويلاً. فبينما كنت ابتسم فرحة، فرحة بلا حدود، أحسست فجأة بنار تجتاز جسدي من أخمص قدمي إلى رأسي. ارتجفت جزعاً، وراحت قواي تضعف. تقلص جناحي؛ ذبلت التريجات في ثوبي وسقط بعضها. اضمحلت الموسيقى ثم تلاشت. آه إني اصغر، أصغر بسرعة...إني أتخذ شكل بعوضة!..آه إني أصغر أصغر أصغر.

أنا بعوضة كما كنت قبل قليل. سكون، وجوم، ودهشة كاد الجمهور يفقد صوابه...رأيت الدموع في مآقي أولئك الذين كانوا قربي.

عندما اكتمل شكلي كبعوضة، ارتفعت بسرعة حلقت قليلاً ثم سارعت مبتعدة، واختفيت عن الأنظار.

اليوم الثالث والسبعون:

اليوم أنا مجنونة. أكره جسدي ولا أريد أن أكون ما أنا عليه هيا ارحل عني أيها الجسد البعوضي...ارحل إلى غير رجعة. عليَّ لعنة، وعلى جسدي لعنتان. إني أحب روحي، أما جسدي فلا...كم أتمنى أن أكون روحاً بلا جسدي هذا!!

إني أطير هروباً من جسدي، لكن جسدي يأبى إلاّ أن يطير معي، روحي داخلة وأنا داخل روحي. إني أطير، أطير، أطير على غير هدى. أأطير نحو الأفق الشرقي؟ لا بأس...أعرف أن هنا أناساً يفهموني ويقتلوني ويصدقونني إذا أخبرتهم قصة وجودي.

لا...ربما الأفضل أن أطير إلى الأفق الغربي...لا شك الناس يعتبروني أسطورة رائعة، يبحثون عن مغزى لها، كي يروا الكون من خلال بعوضة، وكأني أمسيت الذرة الأصيلة الأبدية...

لكن أعتقد أن لا فرق بين مشرق الأرض ومغربها. فكل جزء هو كالآخر، والجزء الآخر كأي شيء آخر في شرق الأرض ومغربها. الأرض واحدة هي منفى آدم ومنفاي. آه! ولن أسافر إلى القطبين، لأني سأضيع في جهات الأرض الأربع، كما أنا ضائعة في الجهتين.

ها أنا أحلق وأعلوا علواً هائلاً. أقترب من الشمس، فأحترق بنارها ونورها، وأتحوَّل إلى شعاع من أشعتها، ثم أرجع إلى الأرض لأضيئها وأدفئها...لأصنع الحياة، للزهور والفراشات، وأصنع...آه! ماذا أصنع؟ أصنع الربيع فأعيد الحياة بعد أن تموت في الشتاء القارص.

هراء، هراء..هراء...ها هي الشمس قد هربت مني...أنظري يا روحي لقد طلع القمر. أنا مع القمر، فوق القمر، تحت القمر...هل تقبلني لأعيش وحدي فوق سطحك؟ فضحك القمر ساخراً...لا تصدقي الشعراء...وماذا أصنع بك أو ماذا تصنعين بي؟ ليس لدي طعام ولا ماء ولا دماء أنا مجرد كائن، أقصد كتلة منيرة أدور في فلكي...في فراغ بلا حدود...أطير...لا شيء ورائي..ولا شيء فوقي ولا شيء تحتي...آه! لقد ضللت الطريق.. إلى أين؟ لا

أعرف إلى أين!...أظن الأفضل أن أرجع إلى بيت السيدة مقطوعة القدمين لأعيش بسلام مع قطة وفأرة وأسرتهما...أنا مرهقة!

أظن أن هذه غابة...تحتي...هكذا هي تبدو لعينيَّ المتعبتين...سأقضي ليلتي على أحد أشجارها...حتى الصباح. علي أن أهبط ببطء خشية أن تقذفني ريح الليل البارد في مكان سحيق...رحت أردد أغنية، وأترنّم بألحانها وأنا أهبط بحذر شديد

/أغنية مجنونة/

- هاي...هاي...هاي
- فعلاً أصبحت مجنونة
- أنا مجنونة....وما أحلى جنوني
- جنوني في عقلي وعقلي في جنوني
- أنا سيدة الكون الأول
- إذا رأيتم الكون...رأيتموني
- هاي...هاي
- لأني أضيء الظلام...
- لأني أخلق الفرح
- لأني أصنع أحلى الأنغام
- عتمَّوا أقلبي...عاقبوني..
- إلى هذه الأرض نفوني
- أنا أحب آدم، أنا أحب حواء...

- أنا في حب دائم...أنا مجنونة
- فما أحلى جنوني!
- هاي...هاي...هاي
- أنا شعاع من هذا القمر الحزين..
- لا...لا...بل القمر شعاع مني...
- أنا ذاهبة إلى حبيبي...
- فأرجو أن لا تتبعوني...لا تتبعوني
- أناديك يا حبيبي...
- أنا المحارة وأنت لؤلؤتي
- وكلانا غارق في بحر الجنون..
- أنا مجنونة...فما أحلى جنوني!

* * * *

وما إن لمست أطرافي ورقة من أوراق الشجرة حتى سمعت صوتاً يخاطبني:

_ مرحباً بك يا صديقة...مرحباً

فانتفضت مرتعبة وقلت:

_ من يكون هذا؟

فأجابني الصوت بدهشة وحنان:

_ ماذا بك!! هل تنسين من يحبك...وبهذه السرعة؟

أم أن صقيع هذه الليلة أثّر على عقلك؟

كنت أعرف جيداً أنك ستعودين...كنت أعرف ذلك.

يقيناً، وهذا دليل أنك لست مجنونة، لقد أعجبتني أغنية العقل والجنون لصديقة...

فقلت على استحياء:

_ سامحيني أنا سعيدة بأني عدت إليك، بعد أن ضللت طريقي في الظلام الدامس سامحيني يا دفلة

_ لا عتاب بين الصديقات...أسرعي أدخلي إحدى أزهاري وتناولي طعام العشاء من رحيقها فستعيد إليك صحتك وقوتك...ثم استسلمي لنوم مريح داخل الزهرة...ونتابع حديثنا غداً.

اليوم الرابع والسبعون:

ليلة على شجرة الدفلة. ليلة بلا حلم، بلا جنون، بلا عقل. لم أسمع خلالها صوتاً، لم أفكر شيئاً. سلمت جسدي وروحي إلى زهرة من زهورها: التحفت بتويجاتها وغصت في رحيقها حتى الفجر. وعندما استيقظت وجدتني مضخمة بالعطر ومنتعشة بندى الصباح.

لكن شيئاً في أعماقي كان يؤلمني. لاحظت الدفلة حالتي فقالت تخاطبني:

_ أنا أعلم ما يدور في خلدك...لأني أعرفك جيداً، فقد كنا معاً في الجنة.

انتفضت مذعورة وصرخت:

_ كيف؟ أنت كنت معي في الجنة؟ و...و....وما الذي جاء بك إلى الأرض؟

_ هدئي من روعك...أنا هي تلك الشجرة المحرمة التي أكل آدم وحواء منها...دفلة كانت!!

وتوقفت قليلاً، كأنها تريد تجميع الكثير من الأفكار في عبارات مختصرة، ثم استأنفت حديثها:

_ لا شك أنك تذكرين جيداً كيف أنّ حَوَّاء أصيبت بملل عظيم وقنوط عميق،...لأنها لم تستطع أن تطير معك في تلك الرحلة إلى منابع الشعر والموسيقى والحب الأبدية في الجنة...

_ طبعاً أذكر ذلك جيداً!

_ ما إن غادرت المكان حتى جاءت حواء تتمشى نحوي أقصد نحو زهوري كالمصابيح الدرية القرمزية، تضيء ليلاً نهاراً...وبدا كأنها لم تعد تتحمل الملل والرتابة وشعورها العميق بالحاجة إلى أنفاس جديدة من الحب، تأملت الزهور بعناية ودارت حولي بلهفة، ثم جذبت بقوة نحوي فقطفت زهرة وأكلت تويجاتها،...في هذه الأثناء حضر آدم وقد اصفر وجهه من الخوف مما فعلته حوَّاء. لكن لما قدمت له زهرة من زهوري لم يلبث إلاَّ أن تناولها وابتلعها...هكذا...

فصرخت متألمة:

_ كفى، كفى يا صديقة

وشرعت بالبكاء بشكل لم أعهده طوال حياتي. فألقت الدفلة نظرات العطف، واهتزت أغصانها حباً ولم تقل شيئاً..

ثم استعدت السيطرة على نفسي ودموعي وقلت:

_ لكن...لكن يا دفلة، يا صديقة..

_ لكن ماذا؟

_ لكن...أنت ما الذي جاء بك إلى الأرض...أقصد إلى هنا.

_ حملت حواء برعماً من براعمي معها إلى الأرض، أخفته في مكان ما من جسدها...ولما وصلت معها كانت الأرض ملأى بالغابات والديناصورات وحيوانات أخرى عديدة فسقطت من يدها لما هبَّت عاصفة هوجاء، ونثرتني الريح في كل أنحاء الأرض...وتشكلت جزيرة سماها بنو آدم: جزيرة الدفلة في وسط المحيط الظلم...فكانت أنوارها ليلاً تضيء البحر من أوله إلى آخره، ثم حدث زلزال خرَّب كل شيء، لكن بذوري كانت سباقة فلم أغرق تماماً في باطن البحر. هذه قصتي يا بعوضة باختصار.

قلت معلقة:

_ مرحباً بك! أنا مسرورة ومندهشة بشكل لا يوصف.. لكن قولي لي أيتها الصديقة، أين لؤلؤ؟

_ فعلاً لا أدري...لؤلؤ هو الوحيد الذي نجا من الموت. لقد قتل الملك الكثيرين بنفس الطريقة التي حاول بها قتل لؤلؤ...كان الجند يستمرون في إطلاق النار حتى يسقط المحكوم عليه بالموت...أنظري إلى جذعي...ألا ترين تلك الثقوب والأخاديد...إنها آثار الرصاصات التي كانت تخترق جسدي...يظن البشر الأغبياء أن الشجرة لا تتألم إذا قطعت...لا بل هي تتألم وتبكي مثل بقية البشر والحيوانات، لكن ليس لدينا لسان ولا نستطيع الصراخ فنبقى صامتين ونموت ونحن صامتون...فقط الأشجار الأخرى الحية تسمع صراخ وأنين أخواتها وهي تسقط أرضاً تحت ضربات الفأس أو بالمنشار. آه يا دفلة.

وتأوَّهت الشجرة ألماً ولاذت بالصمت.

قلت وأنا أحاول استخلاص بعض الأخبار حول حبيبي:

_ دفلة...أريد أن تتأكدي من وجوده أو عدم وجوده في قصر الملك، أقصد سجن الملك...ربما نجح الجند في العثور على لؤلؤ...ربما...غير هذا...لا أدري...

كان لدى العديد من الأسئلة لطرحها على الدفلة، ذلك الكائن الوحيد من الجنة، غير أن تجمعاً للعصافير وزقزقتها التي اتخذت من الدفلة مأوى لها وملعباً، جذبني نحوه.

فرحت ألقي النظرة تلو النظرة إلى ما حولي، وأنتقل من غصن إلى آخر، وأنا غير مصدقة أن كلينا جاء ذات يوم من جنة الخلد. وبينما كنت غارقة في تأملاتي وذكرياتي شاهدت عند الأفق لهباً أحمر، راح يقترب نحو الشجرة. فقلت بسرعة. لقد كان طائراً من نار في طريقه نحو الشجرة. فقلت فزعة:

_ دفلة...دفلة ما هذا الطائر؟ أنظري.

فردت بهدوء غريب:

لا تخفي إنه إبليس جاء ليأكل من زهوري...

اليوم الخامس والسبعون:

قلت وأنا أرتجف:

_ دفلة!...دفلة أنا خائفة..

فأجابتني باسمه:

_ لا داعي للخوف.. إبليس لا يقتل، لا يسرق، لا يؤذي كالبشر. تأملي جذعي...إنه مغطى بثقوب رصاصات أطلقها جند الملك على المحكومين، اخترقت قلوبهم أو رؤوسهم ثم استقرت في بدني. إنها تؤلمني كثيراً ولا أحد يهتم بآلامي...

توقفت قليل عن الكلام ثم تابعت:

_ طبعاً، ماعدا رصاصة واحدة أطلقت على لؤلؤ ثم ضلت طريقها.. كل ذلك، لماذا؟ لأن لؤلؤ لم يهتف: عاش الملك...لكن إبليس لم يصنع شيئاً مثل هذا...وأنت تعرفين ذلك جيداً.

قلت بتردد:

_ أظن هذا صحيح، مع ذلك أنا خائفة...إنه يقتات من زهورك هذا فظيع...أنظري...إنه يقترب منا،...كتلة نارية تطير في الفضاء.

_ زهوري تمنح من يأكل منها قوة فائقة ومقاومة ضد الضعف والتعّبْ عندي زهور كثيرة، أكثرها يذبل ويموت، فلِمَ أمانع أن ينتفع بها، حتى لو كان إبليس...على أية حال، اهبطي إلى غصن في الأسفل واختبئي إذا شئت.

ارتفعت حرارة المكان عندما هبط إبليس على الشجرة التي بدت غير مبالية. ثم راح يلتهم الزهور اليانعة المضيئة، واحدة تلوى الأخرى، ثم قال:

_ شكراً يا مشبعتي عند جوعي، ومقويتي عند ضعفي

_ دفلة...يا صديقة...إني أشم رائحتها..

فردت الدفلة باستغراب:

_ رائحة من؟ أنا لا أدري أن لك حاسة شم قوية!!

_ تلك التي غدت حديث المدينة بأكملها..

_ لا أفهم ما تقصد!

فأعترض منزعجاً على ما قلته وقال:

_ ماذا دهاك؟ أقصد البعوضة. ومن يكون غيرها...لقد أصبحت موضوع أحاديث الناس اليومية...أين هي؟ أشم رائحتها وحاسة الشم عندي لا تخطئ..

جال ببصره متفحصاً الفروع والأغصان والأوراق من حوله ثم قال:

_ هياّ تعالي يا بعوضة. أنا لا أريد منك إلاَّ كل خير في لحظات معدودات كنت أربض أمامه وجهاً لوجه. قلت بنبرة فيها تحد ورفض:

_ ها أنا هنا...أمامك، ماذا تريد مني بالضبط.

فرد بخبث واضح:

_ أريد سعادتك فقط

فتدخلت الدفلة، وخاطبته بقوة:

_ أقترح يا إبليس أن تتركها بسلام، وليذهب كل منكما في حال سبيله.

فأنتفض إبليس منزعجاً وسألها:

_ ماذا جرى لك يا دفلة؟ أنتِ على علم كم هي حزينة!...أمر عجيب فهي فتاة جميلة تارة وذات جناحين عازفين ومنورين ثم حشرة تارة أخرى...هذا أمر في غاية الصعوبة، إنه أقسى عقاب سلطه الرب على مخلوق من مخلوقاته..

لم يعجبني ما قاله وقلت لنفسي لابد أن الشيطان يريد أمراً لم يفصح عنه. قلت غاضبة:

_ إبليس...اسمع، هذا أمر يخصني وحدي...إني لا أريدك أن تتدخل في شؤوني...وعليك أن ترحل عنا..

_ كما تشائين، سأرحل، لكن أتسمحين أن أقدم لك عرضاً اقبليه أو ارفضيه، أنا سأمكنك من أن تصبحي سيدة الأرض الأولى، كما كنت في الجنة تماماً، وتعشين بسلام مع كل من الأتقياء والملاعين من بني آدم...على حد سواء...أقصد أن أقول: تصبحين فتاة بشرية تامة، لا زيادة ولا نقصان...إني أعطف عليك وأريد مساعدتك

قلت وقد بدا الأمر جدياً ومدهشاً:

_ ماذا ستفعل بي؟

_ إبليس لا يتكلم عن أموره الخاصة لأحد...حتى لو كانت بعوضة هي في الحقيقة فتاة لا مثيل لها أبداً.

_ إني أقصد القول...ما الثمن؟ أنا أعلم جيداً أن الشيطان لا يفعل خيراً دون مقابل، أم تراك هجرت تعاليم إبليس الأصلية!!

_ رمقني بنظرة خبيثة تلتها ضحكة خبيثة مثلها. استجمع قوى إرادته وقال:

_ أتتزوجينني يا بعوضة؟

ارتجفت خوفاً واستغراباً:

_ أنا أصبح زوجة إبليس؟ أنا؟!....أنا؟!

_ لا تغضبي...مجرد عرض...فكري بعرضي وأجيبي على سؤالي فيما بعد، في الوقت الذي يحلو لك...

_ استمع جيداً إلى ما سأقول لك: أن الزواج بدون حب هو طريق الشيطان، أما الزواج مع الحب فهو طريق الإنسان...أنا هنا على هذه الأرض لأني أحب. أما أنت، فأنت هنا على الأرض لأنك تكره... والفرق هائل بين هذا وذاك...أنا لا أحب أن أنام في فراش واحد مع إبليس ألا تعلم أن أولادنا... سيكون نصف الواحد منهم بشر، ونصفه الآخر شيطان؟ أليس كذلك يا إبليس؟

فقهقه ساخراً وعَقّب قائلاً:

_ سؤال ذكي من بعوضة هي من أذكى مخلوقات الرب، تلك التي قبل البداية، زارت ينابيع الحب والشعر والموسيقى كل هذا صحيح... لكن استمعي أيضاً إلى ما أقول: إن الإنسان العولمي الآن هو كذلك... مثل الروبرت الذي سيصنعه ويخترعه، نصف إنسان ونصف شيطان.. سيدتي أنا اعرف عماذا أتكلم... وأعرف أبناء آدم جيدا وكيف ستكون ذريتهم، وسأعلّمك عنهم الكثير الذي لا تعرفينه عنهم... سيكون أولادنا مثل أبناء زمانهم...لا أكثر ولا أقل...

بدا وكأن الحديث قد قارب نهايته. رأيته يمط جناحيه ويديه استعدادا للرحيل. كل ذلك وسط دهشتي عن مدى ما يعرف،...وعن مدى ما أجهل! فقلت بخبث، أحاول التكلم على نفس منواله:

_ إبليس!

_ نعم سيدتي، أنا تحت أمرك..

_ هل تعرف أين لؤلؤ الآن؟

_ أنت مخلوقة ذكية لكن إبليس لا يسمح لبعوضة أو لغيرها أن تتفوق عليه.

ماذا تقصد أن تقول؟

_ إذا لبَيّت طلبي ألبي طلبك... دقة بدقة... والآن عليَّ أن أرحل... وداعاً يا دفلة يا صاحبة أجمل زهور الدنيا، وأفضلها شكلاً ومذاقاً... شكراً لك... الوداع يا سيدتي البعوضة الذكية... سنلتقي، سنلتقي.

فَرَدَ جناحيه، رفرف، ثم حَلَّقَ مبتعداً عنا وهو يدندن لنفسه لحناً التقطت منه بضع كلمات: ما أجمل زهورك أيتها الحبيبة، أكلت فشبعت فصرت مجنوناً... آه ما أحلى جنوني!!..

اليوم السادس والسَّبعون:

قلت للدفلة:

_ أنا مسرورة أن إبليس غَادَرَنا. أحس أن نسمة لطيفة باردة هبت في قلبي، وأني أتنفس الصعداء. لقد أصبح الجو لطيفاً بعد أن تخلصنا من حرارة جسده ورائحته وأفكاره وعروضه الإبليسية. عندما كنت قربه شعرت كأنَّ ذاتي تخرج من ذاتي وتدخل سرداباً مظلماً لا نهاية له.

كنت أتوقع أن الدفلة ستسايرني ونتفق على موقف مشترك نحوه. لكنها قالت ما لم أتوقعه:

_ أنا أرحب بإبليس يا بعوضة، فهو يخفف الكثير من زهوري لأنه يأكلها بدلاً من أن تذبل وتسقط على الأرض فيدوسها الناس ليخرج منها بعدئذ رائحة لا أحبها.

_ هكذا إذاً...لم أتوقع إجابة كهذه!

_ اسمعي، أما بالنسبة للبشر، أبناء آدم وحواء، فقد يأتي أحدهم إليَّ باسماً، وينظم أشعاراً وأغاني متغزلاً بزهوري وأوراقي وشكلي، أشعر بالسعادة وهو يقرأ أشعاره راكناً ظهره إلى جذعي. يغيب أياماً أو أشهر ثم يأتي إلي ليقطع جذعي من أجل أن يبني بيتاً له في مكاني، أو ليجعل من أغصاني حطباً يتدفّأ به في الأيام الباردة...آه يا بعوضة! أنا دوماً في خوف دائم من البشر، الشاعر منهم يصبح نجاراً ثم حطاباً ثم تاجراً يبيع أغصاني إلى من يدفع أكثر.

ثم أجهشت في البكاء. قلت بقلق:

_ أتبكين يا صديقتي؟ ليس الأمر سيء إلى هذا الحد!

_ مجرد دموع عابرة، تأتي إليَّ كلما تذكرت مصيري على يد أبناء آدم وحواء.

توقفت قليلاً عن ذرف الدموع؛ عادت إليها ابتسامتها المعهودة في زهورها اليانعة المضيئة ثم قالت:

_ أتدرين! أنا أشعر دوماً أني كالأم الكبرى، الجالسة دوماً في مكانها، يأتي إليها الطيور والعصافير والفراشات لتزورها، أو لتبني أعشاشها وتتكاثر...أشعر بسرور بالغ والغبطة عند الفجر وعند الغروب وهي تزقزق أو تغرّد أو تلعب استعداداً للشمس أو لغروبها.

ثم قطعت حديثها عندما هبّت نسمة من الريح جعلتها تتمايل يمنة ويسرة. وقالت:

_ آه! يا لوجعي!...آه.!

_ ماذا حدث يا صديقة؟

_ إذا هبت ريح تؤلمني عند تلك الرصاصات التي استقرت في جذعي بعد أن خرقت أجساد المحكوم عليهم...تأملي تلك الندوب والثقوب في جذعي، وراء كل منها رصاصة استقرت إلى الأبد...أغصان مبثورة بفعل رصاصات عسكر الملك الذين رفضوا أن يهتفوا: عاش الملك. لكني أحمد الرّب على أن الرصاصة التي أطلقت على لؤلؤ ضلَّت طريقها فلم تصبه ولم تصبني.

_ الشكر لك يا دفلة، يا صديقتي فلولاك لكان لؤلؤ في عداد الأموات.

عاد الصمت ليخيّم علينا ثانية، بينما غرقت في تأملي لما حدث ذلك اليوم...الزواج من إبليس، أقصد العرض الذي قدمه إليَّ، وتلك الفروق بين إبليس وأبناء آدم، وغير ذلك...قلت:

_ أريد أن أسألك سؤالاً؟

_ تفضلي

_ إلى أين ذهب إبليس؟ أعرف أن الرب طرده من الجنة، لكن لا أعرف ماذا يفعل هنا على الأرض!

قالت الدفلة وهي تحاول أن تسترجع ذكرياتها وما أخبرها به إبليس:

_ لإبليس أصدقاء وأحباب ومريدون وأتباع في كل أنحاء الأرض...مثلاً، حسبما أذكر، فقد قال بأن له أعواناً في...ما هو اسم تلك المؤسسة التي...أقصد أنها في "نيويورك" لا أعرف لفظ الاسم...أيه نعم..."الأمم المتحدة" هناك...يحضر إبليس جلسات الأعضاء ويشاركهم في النقاش ويوجه أعمالهم... وله وكلاء يوجههم عن قرب وعن بعد في البيت الأبيض،

والبيت الأزرق، والقاعة الحمراء والصفراء، وفي أكثر الكنائس والمساجد وهياكل العبادة، يقضي يومه زائراً متنقلاً بينها بسرعة الضوء أو أسرع.

_ عجيب! هل أخبرك كل هذا؟

_ أجَل! ألم تلاحظي أنه أصبح ثملاً بعد أن أكل من زهوري؟...فانزلق لسانه وعرض عليك أن يتزوجك...لقد غابت عنك فكرة...ليس الأولاد هم المشكلة أقصد أبناؤكما، إذا تم الزواج،...يعني أن يكونوا نصف بشر ونصف إبليس...لا...لا...إن ما يريده هو أن ترافقيه ليقدمك إلى المسؤولين الكبار في قرن العولمة...ويقول: أنظروا...هذه أول مخلوقة بشرية، وجدت قبل آدم وحواء...وما زالت حيَّة،...وبهذا يكسب تأييداً عظيماً من أصحاب الشركات العولمية الكبرى، وقادة جيوش الدول الكبرى، وقادة الأحلاف وجيوش الدول الكبرى كي يصل إلى إقناعهم بأنه "آلة العولمة" فيستطيع، كما يأمل، بذلك أن يطرد كل ملائكة الرب ومن يؤمن بالرب ويرجعهم إلى حيث كانوا سواء في الجنة أو في مكان آخر...فتصبح الأرض ملكاً لإبليس وحده ولمن تبعه من البشر والحيوانات والحشرات والطيور والأشجار،...أي أنه يريد أن يقول للرب كما طردتني أطردك...وسنلتقي في جَهَنَّم.

انتفضت غاضبة وخائفة في آن وقلت:

_ لا لن يحدث هذا!....ولن أكون معه أبداً...أبداً أنا أحب لؤلؤ وسأبحث عنه...أنا أبحث عن حب الإنسان وهو يبحث عن الشر للكون وللإنسان سأبحث عن لؤلؤ...وسأجده!

_ لكن لؤلؤ لن يقبل بك كبعوضة، كما أنتِ...وأنا متأكدة أنه لا يعرف شيئاً عن ماضيك وعَمَّا جرى لك..

_ سأجد حلاً...لا تنسي يا عزيزتي أني عدت إلى صفتي الأصلية لبضع لحظات، وهذا يعني أن الرب لا يمانع أن أعود ثانية إلى هيئتي البشرية الأصلية لأبقى فيها إلى ما شاء الرب...لقد حان الوقت لأغادر

_ رافقتك السلامة...آمل أن تعودي إليَّ يوماً ما

_ لكن أخبريني كيف أجد الطريق المؤدي إلى قصر الملك؟

_ من هنا... هكذا، وإذا التبس الأمر اسألي نملة أو نحلة أو فراشة...فكلهم يعرفون أين قصر الملك..

وترامى إلى سمعنا أصوات رجال وحديث. حلقت قليلاً وعدت إلى مكاني. قالت الدفلة:

_ آه...من يكونوا؟ هل جاء الحطابون ومعهم مناشير لقطع جذعي؟

قلت باسمة:

_ اطمأني...ليسوا حطابين...إنهم صحفيون ومعهم أدوات التصوير، حضروا لزيارة المكان الذي شهد ما شهد منذ بعض الوقت...وداعاً...

اليوم السابع والسبعون:

بعد أن قلت وداعاً تريثت قليلاً. جذبني تجمع الصحفيين ولغوهم وجلبتهم قرب الدفلة. هبطت على كتف أحدهم ورحت أراقبهم. كانوا واقفين قرب طاولة صغيرة على سطحها كراسات وصحف بجانب زجاجات

ملآى بالمشروبات الغازية أو بالماء، وعدد من الكؤوس الورقية. حضر مندوب بلباسه الأنيق ونظراته الاستعلائية، كأنَّه ينقط غروراً وكبرياءً.

_ ها قد بدأ المؤتمر الصحفي. قال المبعوث بلهجة الواثق من نفسه ومن أهمية المهمة الملقاة على عاتقه.

_ بأمر من جلالة ملكنا المعظم حفظه الله وسدد خطاه أفتتح هذا المؤتمر الصحفي بالدعاء للرب كي يطيل عمر صاحب الجلالة ويوفقه في كل أعماله ومشاريعه في الدنيا والآخرة. لقد اختار الرب المملكة العولمية لأنه راض عن سياسة مولانا العاهل العولمي فجعل من بلدنا موطناً للمعجزة الربانية التي أنتم على علم بها جملة وتفصيلاً. وبأمر من جلالته حفظه الرب أحيطكم علماً بأن صاحب قد عفا عن السجين المتهم "لؤلؤ" المحكوم بالإعدام، وأصدر أمراً ملكياً بضرورة أن يبقى لؤلؤ ثلاث سنوات تحت إشراف اختصاصي ليحفظ دروساً عولمية تبعده عن الانحراف والضلال وفاءً وتقديراً لصاحب الجلالة أطال الرب في عمره. وحسب أوامر عاهلنا المفدى أتوقف لأفسح المجال لأسئلتكم القيمة.

رفع أحد الحاضرين يده، فأعطي له الدور. قال:

_ أعتقد سيدي أن البعوضة _ الفتاة أو الفتاة_ البعوضة هي نبية أرسلها الرب لهداية الناس فالرب لا ينسى البشر، لذا فهو يرسل إليهم من يهديهم حسب العصر ومتطلباته، وبما أن عصرنا هو عصر العولمة لذلك فهي "النبية_ العولمية" التي إختارها الرب ومن بين أفراد رعية صاحب الجلالة أطال الرب عمره وسدد خطاه.

وقبل أن ينهي تدخله نهض أحد الحضور وصاح غاضباً بأعلى صوته:

_ هذا كفر. لقد انتهى عصر الأنبياء، وانتهى معه عصر النبيات من النساء...يجب سيدي معاقبة هذا الزميل وردعه.

هنا تدخل أحد مسؤولي الأمن وحذره من الكلام بهذا الأسلوب، وبأنه سيطرد إذا كرر ذلك.

قال صحفي آخر:

_ سيدي ليس لدى سؤال لكن عندي اقتراح. الاقتراح سيدي يُحَوّل هذا المكان إلى مزار فنبني قبة نطلق عليها اسم "قبة البعوضة العولمية" لتضاهي في روعتها وفخامتها قبة أيا صوفيا في اسطنبول والكابيتول أيضاً.

فرد عليه مبعوث الملك قائلاً:

_ شكراً على هذا الاقتراح سأحمله إلى صاحب الجلالة أطال الرب عمره

أما الصحفي الثالث فقال:

_ أبدأ كلامي بالهتاف "يحيا الملك"

فردد الجميع الهتاف ثلاث مرات، بعدها قال:

_ أقترح سيدي أن يقوم سفراء وقناصل صاحب الجلالة في كافة أنحاء العالم بمحاولة دائمة لرسم صورة مشرفة عن مملكة صاحب الجلالة العظيم، أقصد أن يعقد كل سفير مؤتمراً صحافياً يعرض فيه سياسة ملكنا العظيم وإعطاء لمحة موجزة أو تفصيلية عن المعجزة الكبرى التي حدثت في المملكة العظمى، فالمؤتمرات الصحفية في داخل المملكة لا تكفي لشرح ما حدث من إعجاز لا مثيل له في تاريخ البشرية.

بعد ذلك.

توجهت ميكروفونات الصحفيين نحو المسؤولين وبعض الجمهور الذي حضر معظمه متأخراً. فقال وزير التنمية المحلية:

_ سنجعل من هذا المكان معلماً سياحياً كبيراً يسهم في جلب وجذب السياح من كل أنحاء العالم فنقضي بذلك على البطالة عن طريق خلق عشرات الألوف من فرص العمل، والفضل في ذلك يعود إلى حنكة وحكمة وعظمة ملكنا المفدى حفظه الرب ذخراً لهذه الأمّة ولأجيالها المستقبلية.

بعد ذلك

قال دكتور في العلوم في العلوم الطبيعية بعد أن أزاح نظارتيه عن عينيه واعتدل في وقفته استعدادا لقول شيء جديد:

_ إن ظاهرة هذه الفتاة التي تحولت إلى بعوضة هي فريدة من نوعها في نظرية تطور الأرض والجنس البشري، وأظن أن نظرية تشارلز داورين التي كان دوماً فيها ثغرة "الحلقة المفقودة" بين مملكة الحيوان ومملكة الإنسان حسبما قام به العلماء والباحثون المختصون في البلدان التقدمة قد وجدت في هذه الطفرة: بعوضة. فتاة "بشرية" ثم بعوضة الجواب اللائق لإشكالية الحلقة المفقودة، وأني سوف أدعي العلماء من بلدان أخرى للمجيء إلى المملكة لبحث عقد مؤتمر عالمي عولمي حول هذه الظاهرة المعجزة، مع ان العلم لا يؤمن بالمعجزات.

غير أن كهلاً ذا لحية صبغها بالحناء، تصدى له وهو يرتجف غاضباً، فخطف الميكروفون من يد الأستاذ وقال بصوت مرتجف:

_ أعوذ بالرب من شر داروين وأذنابه والمنحرفين عن طريق الدين الصحيح...وفي الحقيقة التي لا شك فيها هي أن الرب لما غضب من الفتاة

لأنها بلا شك ارتكبت عملاً مشيناً لا يعرفه إلاَّ الرب...أقصد أن أقول قد مسخها الرب فالأرواح خالدة وتتقمص أجناساً عديدة...فقد تتقمص روح رجل قطة أو فأرة أو ضفدعة...إلى آخره إلى آخره...وهذا عمل رباني يدوم إلى الأبد.

عند هذا الحد، انفجر العديد من الحضور معترضين وقال رجل غاضب يبدوا كأنه فلاح ترك حقله وجاء ليسمع ويقول رأيه:

_ أسكت يا خرافي...أسكت يا كافر..

لم يجد مبعوث الملك بداً من التدخل قائلاً ومهدداً:

_ سأطلب من الشرطة أن تلقي القبض على كل من لا يلتزم الهدوء ولا يتجنب التجريح.

ساد الصمت لحظات تبعها تدخل أحد الشبان المتحمسين الذي اصطنع سعالاً، وأخذ الميكروفون بقوة ليقول:

_ على كل حال....على كل حال....أعتقد أن هذا الأمر برمته خداع استعماري...هذه مجرد لعبة إليكترونية صنعها المستعمرون، نحن بأشد الحاجة إلى المزيد من التوعية لكشف المؤامرات التي تحاك ضد هذه الأمة، للنيل من شرفها، وما هذا إلاّ قصة ملفقة أولاً وأخرا.

كان آخر تدخل مجرد اقتراح للأمم المتحدة لتطلق اسم "السنة البعوضية_ العولمية" على هذه السنة الجارية. تركت كتف الرجل، وانطلقت بقوة؛ حلقت عالياً وأنا أضحك. وقلت لنفسي فعلاً كان بودي أن أبكي لكني ضحكت.

اليوم الثامن والسبعون:

بحثاً عن حبيبي.

أبدأ نهاري بحديث مع أنايَ. أخذتها بين يدي، وضعتها أمامي، تأملتها فتأملتني. صفعتها فصفعتني. ركلتها فركلتني. ضحكت منها فضحكت مني. أجبتها فأجبتني. ليس عندي غيرها وليس عندها غيري. هي تشبهني وأنا أشبهها. مصيرنا واحد لكنها ليست أنا.

سررت البارحة من الشجرة الصامتة التي قضيت ليلتي عليها لا أعرف ما اسمها وهي لا تعرف ما اسمي! تَعَشَّيتُ من رحيق زهرتها وهي صامتة. كانت أوراقها صامتة, كانت أغصانها صامتة. ونسيم الليل هَبَّ صامتاً. جئت إليها بصمت وودعتها بصمت. قلت لأناي: الصمت المطلق يشوّقني إلى الشّعر. لم تكترث. هزَّت كتفيها لا مبالية. تركتها جانباً.قلت للشعر تعالا إلي. فهرول الشعر نحوي. فتحت له كوة صدري. دخل وأستقر في أحد أعماق روحي. فذكرني...

ذكرني الشعر ينابيع الشعر والحب والموسيقى...ذكرني بشلالاتها الأبدية...تلك التي زرتها ذات مرة عندما كنت في الجنة. بدا الشعر كائناً متحولاً: عروساً تارة، وطفلاً صغيراً بريئاً تارة أخرى. كان زهرة وكان ثمرة. كان ساطعاً وكان باهتاً...لا أعرف كيف هو..

الشعر يشبه فكرة في ذهن طفل شرع يتعلم الكلام. هاجمتني الكلمات. قتلت الكثير منها،...تماماً كما قتلتني قبضة ذلك الجندي الذي لدغت عنقه، فَهَشَّم جسدي...

أجل أنقدت حياة لؤلؤ، وأذكر أني مت. أذكر أني رأيت روحي تفارقني وأذكر أني تحَوَّلت إلى بشر: غنيت، عزفت، وأضأت الفضاء كما فعلت ذات مرة منذ الأبد في جنة الخلد.

الكلمات!الكلمات!الكلمات! آه كم قتلت الكثير منها! وهرب بعضها إلى بحر النّسيان. وعادت الحياة إلى كلمات أخرى كما كانت الحياة تعود إلي عندما وكلما تناولت جرعة من دم.

نمّيت الكلمات الحية! أطعمتها غذاءً من أثداء علوية تستقي من الشّلالات الأبدية.

يعود الشعر عروساً أحبها. تحبني. تتزوج ونسجل زواجنا في سجل اسمه: قصيدة. الأيام تمضي ثم يأتي قارئ. يسخر من القصيدة. يشاكسها يرفسها وهي صامتة. قد يذرف الدموع من أجلها. قد تصبح كلماتها قاسية كالصّخر، وقد تمسي حادة كنصل سكين جارح، وقد تبيت طرية كأنها ورقة بقدونس.

- انتظرني يا حبيبي... انتظرني
- أنا في طريقي إلى حبي
- حبي الذي به أعرفك
- وحبك الذي به تجهلني
- فانتظرني
- لقد كتب علينا
- أن نعيش بين لعنة الرب

- ولعنة ملك البشر
- لكن حبي من الموت أنقذك
- وحبك من اللعنة أعتقني
- فانتظرني
- أنا أعرفك بنور حبك
- وبضوئي وألحاني تعرفني
- إذا التقينا ذات يوم
- فليكن حبك إلى أصلي يعيدني
- أنا في طريقي إليك...يا لؤلؤي
- فانتظرني

هاهي أناي تعود إليَّ. لقد قرأت قصيدتي دون إذني. عَبَست وَتَولَّت. ثم عادت فنطقت، فقالت: إن لؤلؤ يستحق أكثر من هذه القصيدة يا بعوضة. سكتت ثم قالت: أطن أنه مضى زمن طويل منذ أن قمت بزيارة نبع الشعر... لذا نسيت...نسيت الكثير من الشعر والشعرية...للأسف.

اليوم التاسع والسَّبعون:

أنا على الطريق إليك يا حبيبي.

لولا حبك لكنت بلا حياتي, لقد تعلمت أن من يتعب من الحب تتعب الحياة منه.

جذبني نقيق ضفادع في ساقية اخترقت مرجاً أخضر ونسيم عليل يتخلله دخان ورائحة لحم مشوي. هنا أطفال يلعبون وهناك كهول يدخنون النارجيلة أو يلعبون الشطرنج والطاولة. أحياناً يتحدثون بصوت عالٍ ثم يتهامسون، فيقهقهون، وعلى بعد أمتار ثمة نساء محجبات وأخريات سافرات؛ كلهن مشغولات بالحديث عما يجري في المدينة وإشاعاتها.

اختبأت لا سنزيح أثر جولة طيران أنهكتنني، بين أعشاب غضه قرب الساقية. غفوت فنمت ثم استيقظت، عندما سمعت اسمي في قلب أغنية كان شباب يرددونها ويرقصون عل أنغام طبل صغير:

حلو حلوة يا زينة
يا زينة الزينات يا بعوضة
يللي كنتِ في الجنة
تعالي اليوم باركينا
حلو حلوة يا زينة
يا زينة الزينات يا بعوضة
تعالي تعالي لينا
وبجناحك ضوّينا
وبأنغامك باركينا تعالي تعالي يا عروس
أنت حلوة فوق الرؤوس
خلصينا من الزنوب
وخلينا على أيديك نتوب

حلو حلوة يا زينة

يا زينة الزينات يا بعوضة!

على دلعونا على دلعونا

والله في عندكم عروس

صارت حلوة فوق الرؤوس

هيا هيا استقبلونا

ومن اللحم طعمونا

حلو حلوة يا زينة

يا زينة الزينات يا بعوضة!

قلت أحدث نفسي:

- لقد تغيرَّ الزمن يا بعوضة. عاشت أجيال وهلكت أجيال بعدها...كل هذا منذ وصلت الأرض...كنت مخلوقة بشعة، كريهة، تلدغ تؤلم تقتات بالدم...لقبلاتي آثار وبقع حمراء على جسد من أقبلهم ...يطاردني الناس ليقتلوني...

آه! أما اليوم... فأنا عروس جميلة...جميلة مثل (ڤينوس) رقيقة كأني (سبيل)، رائعة...فأنا (عشتار)...أنا اليوم!....من أنا؟....فعلاً من أنا؟

أنا!...أنا!...أنا صندوق شكله شكل بعوضة وداخله ملاك شكل البشر. أنا سجينة هذا الجسد، والكل ينتظر أن أخرج من جسدي...فأنا عروس كل شاب يريدني له...حتى إبليس...كان الخاطب الأوّل...

أما أنت يا لؤلؤي، يا حبيبي...آه...انتظرني..انتظرني، أنا في الطريق إليك.

اليوم الثمانون:

أنا مازلت على الطريق إليك يا حبيبي!

هل تنتظرني؟ أم أنك قطعت الأمل في أن نلتقي؟

أملي لن ينقطع أبداً بأني سألقاك، لأن أملي جزء لا يتجزأ من الكون الواسع، الموجود. وكما رحلت مرة قبل الخليقة إلى نبع الحب، ارحل اليوم إليك لأنَّك أنت الحب في ذاته، الحب الذي يتدفق من ذاك النبع الأبدي.

آمل أن ألقاك في هدأة الليل قبل الفجر، فنجلس معاً، أنت وأنا على أعلى قمة جبل على هذه الأرض، ونرقب معاً طلوع أول شعاع للفجر، شعاع يحمل بشرى السعادة لقلبينا، السعادة التي أنشدها: نسيجها حبنا، والشعر لغتنا والموسيقى ألحان لها.

آمل أن ألقاك بعيداً عن صخب الأسواق، وضجيج المعارك والمماحكات بين البشر...سألقاك وسط بحر واسع لا حدود له، هناك حيث نطفو معاً على سطحه اللازوردي، نتبادل ذكرياتنا فتعرفني كما أنا في الحقيقة. أنا آمل أن يمد الرب نطاق جنته الواسعة فيشمل هذه الأرض، الكويكب الصغير. ألست معي بأنه ليس صعباً أن يغير الرب من مصير هذه الأرض، منفاي ومنفاك ومنفى آدم وحواء وذريتهما؟...وهي منفى ذلك الملك الذي يحتجزك لأنه لم تهتف له: يحيا الملك.

إني أتلفَّت حولي.

أنا لا أعرف هذا المكان! يا لحظي التعيس!..... أنا الجاهلة... التي... كانت... وجدت طريقها بيسر على جسر النور الذي أمر الرب الملائكة أن يبنوه من قصري إلى الينابيع الأبدية...

أين الطريق؟ لا أدري.

رأيت نملة تحمل حبة قمح تعادل وزنها، تمر قربي. ناديتها:

_ يا نملة..._يا نملة....سلام عليك.

وضعت حبة القمح جانباً، ونظرت حولها:

_ وعليكم السلام...من ينادي؟

_ ارفعي بصرك قليلاً نحو الأعلى وانظري إلى زهرة الرمان الحمراء فتريني.

_ أجل...أجل إني أراك الآن...ماذا تريدين؟

_ لقد ضللت الطريق، أخبريني أين أجد طريقي؟

_ إلى أين؟

_ إلى حبيبي!

_ وأين حبيبك؟

_ مسجون في قصر الملك.

_ لكني لم أسمع قط أن الملك يسجن بعوضاً؟

_ حبيبي ليس بعوضاً! هو إنسان تام واسمه لؤلؤ. فَنَدّت عنها ضحكة قصيرة ساخرة وقالت:

_ حبيبك! ها! وماذا يفعل بك؟ لماذا تريدين دمه وتقولين أنه حبيب لك؟... أنا لا أصدق ما تقولين.

_ اسمعي، لا يخدعنك مظهري... ففي أعماقي كائن آخر..بشري.

فحملقت بي! وهي غير مصدقة أبداً، ثم قالت:

_ ربما أنك تهذين! على كل حال ليس عندي وقت أضيعه، عليَّ أن أنقل اليوم ثلاثين حبة إلى مخزننا الشتوي. ولم أنقل إلاَّ اثنتي عشرة مع أن النهار وصل نصفه... أنظري هناك... قرب الطريق الترابي، فترين صفيَّن من النمل، في الصف الأول يحمل أفراده حبوب القمح من القصر إلى مخزننا وفي الصف الثاني يعودون إلى القصر لحمل المزيد... هكذا دواليك... حتى يمتلئ المخزن. فإذا اتبعت أحدهما، حتماً تصلين إلى القصر... إلى... حسبما تقولين... حبيبك!

_ لكن ...أنا لا أفهم...لماذا تجلبون الحبوب للتخزين للشتاء من قصر الملك؟ ألا توجد حبوب خارج القصر؟

- ارتفعت درجة الحرارة هذا العام بشكل غريب، فظهرت حشرات راحت تأكل الحبوب المخزونة فلم تعد هذه تصلح ليأكل منها البشر ونحن النمل أيضاً. اشترى الملك حبوباً جديدة طازجة من بلاد بعيدة ووضعها كلها في القصر ليأكل هو وعائلته والعسكر، وأعطى الحبوب الفاسدة لبقية الناس. وقد علمت ملكة النمل بما فعله الملك، فأخبرتنا بأن نتمون هذا العام من مخزن الملك...والآن وداعاً يا حبيبة! آمل أن تجدي حبيبك في القريب العاجل وأن تكونا سعيدين معاً...مع ذلك فإني...أقصد كوني على حذر من بني البشر...وداعاً...

اليوم الحادي والثمانون:

هذا يوم البنفسج.

أنا في حب دائم؛ أنا دوماً على الطريق إلى حبي. أنا على شجرة، وأغفو في زهرة وأستريح على صخرة، ولا أنهض إلاَّ إذا طرق نداء الحب مسمعي...ثم أتأمّل، وأتأمّل وأتأمّل...عندما لاحظت الإرهاق الذي ألَّم بي قالت لي زهرة البنفسج:

- أدخلي قلبي وأبقي فيه مادمت تبحثين عن حبيبك. أعرف أن لا منزل لك فاعتبري زهرة البنفسج منزلك.

- شكراً لك يا جميلة...

أجل! فقد شاهدتن أدور حول الصخرة التي نبتت عليها. فقد ضيعت طريقي إلى القصر: تلاشى الخط الأسود الذي صنعته النملات من عشها إلى مخزن الحبوب في القصر، وسط أعشاب طويلة رطبة. كانت زهرة البنفسج غضّة، يانعة وجميلة اختبأت في فجوة كانت على طرف الصخرة البيضاء يمر بها المارون ويعبرها العابرون إلى المدينة. كانت تستقبلهم باسمة وتودعهم باسمة لكن لا أحداً منهم يعيرها اهتمامه: كانت تراهم وهم لا يرونها.

فتحت البنفسجة تريجاتها لتستقبلني، ثم أغلقتها عندما استقريت في الداخل. قدمت لي طعاماً لذيذاً من رحيقها أشاع الدفء والهدوء في كياني المضطرب. تابعت تقول:

- أنا أحبك يا بعوضة، لأني لا أخشى أن تقطعيني لتأخذي رأسي إلى حفلات الحب والزواج والأعياد كما يفعل البشر. يا ليتهم تعلموا أن يأتي المحبون إليَّ، ويشموا عطري ويتأملوا شكلي الجميل!....

غصّت بالكلمات، توقفت قليلاً ثم تابعت:

- لكنهم يفضلون أن يقطعوني ويأخذوا رأسي إلى بيوتهم...فأصبح هامدة بعد ساعات! آه يا بعوضة!

أشفقت لحالها ولم أَنبس. لاذت بالصمت وغرقت في بحر النوم... ساعة، ساعتين.. أو أكثر... أيقظني صوت بشري متألم كان صاحبه يخاطب الرب:

- رب أهدها لتأتي إليَّ... استجب لدعائي... أنت القوي العظيم، لا يصعب عليك شيء... رب اجعلها تحبني..أرجوك.. يا رب..

كانت تلك صلاة شاب وسيم مفتول العضلات يرتدي سروالاً عتيقاً وقميصاً متسخاً دون أكمام. كان قد افترش الأرض المعشوشبة راكناً ظهره إلى الصخرة، ومادّاً ذراعيه اللذين كانت رائحة الدم تنبعث من النقاط التي وضعت على رسخه. قلت لنفسي، أعرف، أعرف....أعرف...وضع الدم ليغريني، ليقتلني لعلي أتحول عروساً له...كما حدث ذلك اليوم يوم تنفيذ حكم الإعدام،... أي محاولة تنفيذ حكم الإعدام بحبيبي لؤلؤ.

بقيت هادئة حيث كنت؛ صرت ألاحظ ذبابات الفاكهة ويعسوب صغير، جذبتها رائحة الدم واللحم البشري. بعضها وقف بعيداً يتلمظ ينتظر الفرصة المواتية للهجوم على الذراعين في غفلة من صاحبها. مرت دقائق. ثم عاد يكلم نفسه بصوت محبط:

- العروس باهظة الثمن هذه الأيام... تريد... تريد سكناً خاصاً بها، من أين؟ من أين؟ أنا لا أملك ثمن علبة سجائر أو ثمن فينجان من القهوة!! من أين؟ عندي الكثير من الحب، والكثير من الشباب والقوة...و...لكن لا مال... ستة عشرة سنة في المدرسة والجامعة صرفتها من عمري...

تنهّد من أعماقه وتابع:

- والنتيجة جيب فارغ ، وحب فاشل، هجران موجع ومقام في الشارع...

اعتدل في جلسته، ثم رفع بصره إلى السماء قائلاً:

- رب أهدها لتأتي إليَّ... رب لا تخيب أملي...

كانت بعوضة هائمة، جائعة، جذبتها رائحة الدم واللحم البشري الشهي، حطّت رمالها على أحد الذراعين العاريين... تفحصها بإمعان. حملق بها فَحَملَقت به، ورأى في مخيلته أنها... أنا... الفتاة المجنحة، فهمس: إنها هي.. أقسم بالرب إنها هي!..

كانت تمسد إبرتها استعداداً لتناول وجبة دافئة لذيذة وطازجة من دمه. بقبضة يده القوية هوى على المسكينة فحطمها شر تحطيم. نظر إلى أشلائها على ذراعه وخاطبها:

- هيا انهضي الآن... انهضي يا عروسي..هيّا حلقي ثم عودي إليَّ يا حبيبة القلب.

رَفَع بصره إلى السماء، أملاً في أن يرى حلمه وقد تحقق. لكن لا شيء... إلاّ الشمس وبضع غيمات صغيرات

- رَقّ قلبي لحاله وبكيت لما سمعت تنهداته ورأيت دموعه. قلت:

- لا يا فتى!... أيها المحب لا تبك فبكاؤك لا ينفعك أنا التي تبحث عنها لكنك لست الذي أبحث عنه ونذرت حياتي فداءاً له ولحبي العظيم...يا فتى! إن قلبي لا يتسع لمحبّين اثنين.

- أنا وأنت

اقتربنا جسداً

وابتعدنا روحاً

- نموت إذا اقتربنا

ونحيا إذا ابتعدنا

- تفقدني إذا وجدتني

وأجدك عندما أفقدك

- فان سرّتك جثتي

قتلتني محبتك

- لا تقترب مني

لأن حبي يبعدك

- اتركني لحبي

ولحبك أتركك..

لما انتهيت قالت البنفسجة بابتهاج عظيم:

- سأحاول أن أتذكر هذه القصيدة مادمت على قيد الحياة..لأن مغزاها ينطبق على حالتي وحياتي توقفت قليلاً، تنهدت وختمت قولها قائلة: يحبونني فيقتلونني، فما أقسى قلوبهم!!

قلت: يا بنفسجة... إذا مرّ طفل من دون العاشرة من هنا، اقرئي هذه القصيدة له، عسى أن ينقلها إلى البشر ليتعلموا...الأطفال وحدهم يفهمونني ويحبونني وداعاً.

اليوم الثاني والثمانون:

لما سألتها عن الطريق قالت لي الفراشة:

- أنظري هناك، ترين فراشات كثيرات تطير في اتجاه الغرب. طيري معها وسوف تصلين إلى القصر...هناك، ذاك البناء الضخم الذي يحجبه الضباب،...فوق الرابية. تذهب الفراشات إلى حديقة القصر وتتخذ مساكن لها في رحلة يسمونها "رحلة الربيع ورحلة الخريف". ومن يدخل القصر من الفراشات وغيرها لا يخرج منه..لأن في حديقة القصر الكثير من الخضرة والأشجار والماء...آه! المطر قليل هذا العام...الماء شحيح في كل مكان إلاّ في القصر. قلت لها وأنا أتأمل جناحيها الجميلتين في أشعة الشمس الدافئة:

- شكراً لك...هل أنت ذاهبة إلى القصر؟

- نعم !...اتبعيني إذا شئت.

حلقنا معاً، فوق أرض عطشى. كان هناك شجيرات ذابلة وبركة ماء كاد ماؤها يجف، بجانبها مجموعة من الشباب كانوا يرتلون وينشدون. قالت الفراشة:

- أنظري إلى ما تحتنا..

قلت لا مبالية:

- ماذا؟ شباب في نزهة؟

قالت بنبرة توكيد:

- إنهم شباب يحتفلون بالبعوضة النبيَّه. ألم تسمعي بعد بالبعوضة..أقصد بعوضة خاصة مع إنها تشبهك أنقذت حياة سجين منذ مدة.

غيرتُ مجرى الحديث كالعادة، وقلت:

- وماذا يفعلون؟ أظن أنهم يحتسون الخمرة؟

- الملعونة تلك تستطيع أن تتحول من بعوضة إلى فتاة جميلة ذات جناحين بموسيقى...أقصد هذه الخبيثة عادت بعوضة كما كانت واختفت عن الأنظار.

- وماذا حدث للسجين؟

- لم ينفذ به حكم الإعدام...اختفى..وسمعت أن عسكر الملك ألقوا القبض عليه وهو الآن في سجن القصر. خيم صمت ونحن نحلق فوق الشباب الثملين. ثم تابعت:

- البشر أغبياء يا أخت...لقد جعلوا من بعوضة نبيَّه. أعوذ بالرب منهم،تلدغهم تمص دمائهم ثم يكافئونها بأن يجعلوا نبيه منها. يا للمصيبة! بينما الفراشات الجميلات لا تلدغ أحداً ولا تمص دماً ومع ذلك لا يهتم أحدٌ بنا.

فقلت بتعاطف فيه بعض التصنع:

- فعلاً أمر عجيب!

شجعها قولي على الإفصاح عن المزيد مما يجري في ذهنها فقالت:

- يصطادوننا بالشباك، يخدّروننا ثم يغرسون مسامير في قلوبنا كي يعرضونا في المتحف..متحف جثث الفراشات، آه، ما أقسى قلوبهم!!

أصغينا إلى بعض ما يجري من الحديث وتحد تحتنا. قال أحدهم:

- أعتقد أنها نبيه جاءت لإصلاح هذا العالم المليء بالشرور.

فرد آخر غاضباً:

- لا ليست نبيه...إنها المهدية بدلاً من المهدي.

وتدخل ثالث قائلاً:

- لا...لا هذا ولا ذاك...إنها ابنة الرب سبق أن أرسل ابنه والآن أرسل ابنته...

رفع أحدهم قبضة يده مهدداً:

ليس للرب ابن ولا ابنة...مفهوم؟

قلت للفراشة متشوقة:

- ما رأيك أن نهبط لنسمع المزيد من هذه الأقوال...؟

فردت الفراشة بعنف:

- ماذا دهاك! هؤلاء مجانين..أتريدين مشاركتهم؟ إنهم سكارى..

فقلت معتذرة:

- شكراً على آية حال...أعرف الطريق فلنفترق.

تأملتني ملياً وأنا أحلق قربها وقالت:

- لكنك لم تخبريني لماذا تريدين الذهاب إلى القصر!...كوني حذرة، فمنذ مدة شاهدت العديد من جثث البعوض مرمية خارج القصر بعد أن رشوا المبيدات القاتلة للحشرات...أيه! لماذا تذهبين إلى القصر؟

- عندي حبيب في القصر؟

- آها!! بعوض حبيب! هل هو جميل كما أنت جميلة؟

- لا يا فراشة...ليس حبيبي بعوضاً ...هو شاب من بني آدم.

فصرخت مستنكرة:

- بشر؟؟ وماذا تفعلين به وماذا يفعل بك؟ هذا جنون.

وقبل أن أعلق على ما قالته، استدركت قائلة:

- أعرف أعرف...أنت تحبين دمه...بما أنه يسكن قصراً ويأكل من طعام الملك، فلا شك أن دمه يحمل طعم اللحم والدسم وآثار شهية من البهارات والزعفران.

- لا...لا...ليس هذا ولا ذاك...أظن الأفضل أن نفترق..

- أعتقد أنك مجنونة أو تكذبين عليَّ..

- اعتقدي كما تشائين...

وأفترقنا.

شاهدت تحتي أحدهم يحمل صليباً وشرع يخطب وهو ثمل:

- يا جماعة....يا جماعة...الرب أرسل ابنه الوحيد ضحية من أجل إنقاذ البشر من الخطايا والشرور...لكن كما تلاحظون تزداد الشرور على مر الأيام عدداً ونوعاً...لذلك ، فقد أرسل الآن ابنته لتتابع المهمة...

فعلَّق آخر قائلاً :

-لا بد من أن نمسك بها ونصلبها كما فعلوا بأخيها قبل أكثر من ألفي سنة.

وتدخّل الثالث:

- لا يا جماعة، هي إما نبيه أو ولية مباركة... دعونا نسميها "فطوم"... انتهى النقاش...

ارتجفت خوفاً وهلعاً من فكرة... إذا أمسكوا بي سيصلبونني لأخلصهم من خطاياهم... الحقيقة، أنا في ورطة كبيرة. وتخيلت نفسي اقترب من لؤلؤ فخاطبته في خيالي وأوهامي:

يا حبيب القلب، يا لؤلؤي

أتصلبني لأني أحبك؟

أم أهجرك لسلامتي

أتجعلني وحبي وقوداً

لناكري حبي ومحبتي

يا حبيب القلب، يا لؤلؤي

ماذا أنت فاعل بي

إذا عرفت حقيقتي؟...

اليوم الثالث والثمانون:

هذا يوم النحلة. لونها لون العسل؛ حديثها حلو كالعسل، رقيقة ولطيفة...أما وجهها فصورة مصَغّرة ودقيقة لوجه زوجة نمر من أدغال الهند. قلت لها:

_ أنا مسافرة إلى قصر الملك فهناك إنسان أحبه.

أفترّ ثغرها عن ابتسامة خفيفة وقالت:

_ أنا كذلك مسافرة إلى القصر، أقصد حديقته لأتغذى على رحيق الزهور الكثيرة هناك...خاصة شجرة الجنكو، لأصنع عسلاً منها له طعم ونكهة الجنكو، فقد وصفه طبيب لشباب مريض بفقر الدم. أنا أسكن في مزرعة صغيرة ليتامى، عندهم منحلة تبرعت بها مؤسسة خيرية، فانتقلت مع ملكتنا لنعيش هناك.

_ ماذا قلت، شجرة الجنكو؟! لم أسمع بهذا الاسم من قبل!

_ يا أخت يا بعوضة، هي شجرة صينية الأصل أهداها سفير الصين في بلدنا إلى الحديقة العامة للمدينة... لكن الملك أبى إلاَّ أن يغرسها قرب نافذة غرفة نومه. هي شجرة مفيدة، ورقها يعالج أمراضاً عديدة خاصة فقر الدم، كما سمعت... ولا توجد شجرة جنكو غيرها في كل أنحاء المملكة.

حَلَّقنا معاً. ثم سألتني عن عمل حبيبي عند الملك. قلت:

_ هو سجين!!

كنت أتوقع أن تطرح عدداً من الأسئلة عن أحواله سبب كونه في السجن، لكنها ابتسمت ثانية وقالت بصوت رقيق:

_ جيد! ما رأيك؟ خذي معك هدية له.

قلت بتعجب:

_ أية هدية؟...وما نوعها؟

_ بعضاً من العسل الذي أصنعه. تعالي معي إلى مزرعة اليتامى، وخذي شيئاً من العسل الذي صنعناه أنا وأخواتي.

ابتسمت لها بسرور بالغ لهذه الفكرة وقلت:

_ هذا لطف منك. شكراً جزيلاً... لكن يا أخت فحمل هدية من العسل ثم التحليق وأنا أحملها صعب جداً، بالإضافة إلى أني غير متأكدة... غير متأكدة أن حبيبي هناك. إني أبحث عنه وسوف أجده مهما كلفني هذا الأمر من عناء.

_ وأنتِ يا بعوضة! مثلك مثل بقية البعوضات، تعيشون على دم الآخرين من البشر، يقال أن البعوضة تستهلك من دم مضيفها، وهي لا تنام ولا تترك أسرته تنام.

شعرت بالحنق، لكني دافعت عن نفسي فقلت:

_ لقد غيرّت عادتي هذه، فمنذ مدة طويلة لم أتناول أي دم، أتغذى فقط على رحيق الزهور التي عادة أتخذ إحداها مسكناً أقضي فيه الليل.

_ أنا مسرورة بما تقولين. لكن هذا لا يكفي...ربما أنك ضعيفة البنية ولا تدرين...ما رأيك في أن تأكلي شيئاً من العسل الذي أصنعه؟ عسلي يُقَوّيك ويجعلك أكثر شباباً وقدرة على الطيران...أنت لا تدرين،...القصر مازال بعيداً بالنسبة لجناحي بعوضة!

أعجبتني الفكرة. فعلاً كنت أشعر بضعف عام في جسدي وببعض الدوار. هبطنا نحو شجرة صغيرة، علمنا بعد قليل بأنها كانت شجرة الرمان. توقفت على أحد أغصانها، وأفرزت بعضاً من عسلها الشهي. كان طعمه حلواً، لم أذق في حياتي أحلى منه. وبسرعة شَعَرت بالقوة والعزم يسريان في كافة أنحاء جسدي ثم طرنا معاً. قالت النحلة:

_ سنسلك طريقاً آخر...أنظري هناك إلى تلك السحابة من الدخان، هي خانقة، تنفثها مدخنة المصنع الذي أسسه الملك منذ أشهر. لا أدري ماذا ينتج، لكن دخانه خانق وقد كاد أن يخنقني وأخواتي بالأمس أنظري هناك...إلى يسارك يوجد كوخ أبيض اللون، هناك أسكن وزميلاتي ، نحن حوالي 200نحلة نصنع عسلاً أصلياً، غير مغشوش...بسبب الجفاف ونقص الزهور، فالتجار يأتون بكميات كبيرة من السكر وينثرونها في طريق النحلات، فتقبل النحلات عليها وتتغذى بالسكر والنتيجة؟ عسل سكر وليس له آثار العسل ونكهته...لكن التجار يبيعونه على أساس أنه عسل أصلي..

قلت لها:

_ أشكرك على هذه المعلومات...لكن أين نحن الآن؟

_ أنظري...هناك القصر الملكي على الرابية...مؤلف من طوابق عدة، من الحجر، وجدرانه صلبة فيها نوافذ لا يخترق زجاجها الرصاص. ولا يفتح باب القصر لأي كان إلاَّ بعد أن، يهتف الداخل _الزائر: يحيا الملك. عند كل حاجز من الحواجز السبعة التي تحيط به. بعض الحواجز من الأسمنت المسلح وأخرى من الأشجار الشوكية السامة...هناك باب مخصص للملك وعائلته والوزراء...وباب للعمال وأبناء الشعب الذين يسمح لهم بالدخول.

أعجبتني هذه الشروح فهي تُسَهّل علي التجول في القصر وحوله والدخول إليه. قلت بنبرة امتنان وشعور بالجميل:

_ يا صديقة اسمحي لي أن أخبرك أنك أنت الوحيدة بين الحشرات والتي تقدم غذاءً حلواً ويشفي من المرض. أنا لا أعرف حشرة أخرى تفعل هذا!!

ترددت قليلاً ثم أردفت:

_ في الحقيقة يا نحلة، أنا أشعر بالخجل من نفسي لأني لا أنتج عسلاً مثلك وبحاجة إلى الدم لأعيش.

_ لا عليك. انتهى هذا العهد البائس، غذاؤك الآن رحيق الزهور وعسل النحل...تعالي إليَّ، إلى الكوخ حيث أسكن وأخواتي وسوف نعطيك كل ما تحتاجين من العسل لتأكليه.

كنا نحلّق فوق مفترق الطرق قرب منتزه يستريح فيه العابرون أثناء القيلولة. قالت:

_ علينا أن نفترق...أنا أبقى دوماً خارج بناء القصر...في الحديقة، وأنت عليك أنا تدخلي من أجل حبك

قلت وأنا أشعر بالحزن الشديد لفراقها:

_ انتظري...أريدك أن تستمعي إلى قصيدة غنائية الفتها شكراً لك..

_ آه! أنت شاعرة إذاً!!

_ أجل! أنا شاعرة حب وموسيقى:

* أنا أحبك يا حبيبتي

* إذاً عسلاً أعطيك

* فيه قوة من ربنا تشفيك

* أنا لا أطلب شيئاً مما لديك

* لأن حبي في عطائي

* وكذلك قلبي ووفائي

* كل ما أحتاج في حياتي

* أشجاراً وزهوراً

* ماءً عذباً وهواءً عليلاً

* فازرع لي شجرة بيدك

* واسق زهورها براحتك

* هذا كل أملي....ورجائي

اليوم الرابع والثمانون:

هو يوم القديسة بعوضة.

أصبحت قديسة منذ اليوم. لي كتاب مقدس باسمي لم أكتب سطراً واحداً فيه. أنا قديسة في عيون أهل المملكة وأعلم أني لست قديسة في عيني نفسي، لكنهم لا يعلمون سَمّوا كتابي: "الكتاب المقدس" و"العهد المقدس الحديث"و" الكتاب المقدس لما بعد الحداثة " و"الكلمات المقدسة في عصر الانترنت"

كتب كتابي هذا ثلاثة شبان يقولون أنهم ينتمون إلى الديانات الثلاث الكبرى. كلهم خريجو جامعة وكلهم عاطلون عن العمل وكلهم يتعاطى الكحول وجّرب أحد المخدرات التي يتداولها الشباب سراً في كل أرجاء المملكة، والثلاثة يأملون أن يجد حظوة ما في النفوس والناس حولهم في مملكة ليس لأحد أية حظوة إلاّ إذا هتف "يحيا الملك".

أولهم يحمل إجازة في علم اللاهوت؛ ثانيهم يحمل إجازة في الفلسفة القديمة والحديثة، أما الثالث فهو اختصاصي في التكنولوجيا والالكترونيات. لا أدري كيف تعارفوا، لكن كلاً منهم وجد ضالته في وجودي وتحولي: "بعوضة _موت_ فتاة مجنحة_ بعوضة". كنت القاسم المشترك الذي جمعهم.

ناقشوا المعضلة، معضلتي من وجهة نظر فلسفية ولاهوتية وتكنولوجية. اتفقوا جميعاً على أني ظاهرة خارقة للقانون الطبيعي لذا توجد حاجة ماسة في كل أنحاء العالم بما في ذلك المملكة إلى نص مقدس

باسم البعوضة، مؤلفته حول هذا الموضوع الخطير لينتفع الناس في القرن الحادي والعشرين.

قرأوا كل ما كتب عني في الصحافة وعلى صفحات الانترنت. واتفقوا على أن كتابي المقدس هو الوسيلة الوحيدة لإصلاح عالم الإنسان في إطار " المشروع العولمي لتوحيد العالم وإنهاء الحروب".

حضر الثلاثة إلى هذا المكان المنعزل بين الصخور على شاطئ البحر حيث كنتُ أتمتع بضياء الشمس والراحة قبل أن أتابع طريقي. أكلوا وضحكوا وشربوا ما حملته جيوبهم من الجعة في قوارير صغيرة.

قال اللاهوتي:

_ أنا أعتقد أن لؤلؤ ساحر وأن الشيطان هو الذي فعل كلّ ما حدث. والبحث عما يفعله الشيطان مع الإنسان مشكلة صعبة ومعقدة. لذا نحن بحاجة إلى ساحرة المملكة لتساعدنا على كشف سر ما حدث بدقة. هذه هي النتيجة التي توصلت إليها بعد بحث دؤوب ومرهق حول هذا الموضوع.

قال التكنولوجي _الالكتروني:

_ ربما تكون البعوضة مجرد أداة الكترونية ذكية جداً وأن الفتاة لا وجود لها أصلاً، هي مجرد خيال صنعته أشعة الليزر. وكل ما لوحظ من ضرب الجندي البعوضة التي لدغته وتحطيم جسدها، ومن ثم التحول إلى فتاة ذات جناحين هو ليس حقيقة واقعة هو وجود افتراضي. لماذا؟ لأن العملية من ألفها إلى يائها لم تترك أي أثر في عنق الجندي الذي أطلق الرصاص، ثم نقل على جناح السرعة إلى المستشفى ووضع في غرفة

العناية المركزة. لقد ثبت أنه لا يتذكر شيئاً مما حدث وكأنّ شيئاً لم يحدث له إطلاقا.

أما المختص في الفلسفة فقال:

_ لقد أنجزت ما اتفقنا عليه، والنص الذي طلبتم مني أن اكتبه جاهز، وهذا بعد الاطلاع التام على كل النصوص المقدسة وغير المقدسة التي نشرت على الانترنت حول الموضوع. فاستمعوا للنص أولاً، ثم نناقشه معاً قبل أن ننشر صيغته النهائية على شبكة الانترنت ونوزّع سراً النص في صيغته المكتوبة.

فقال الاثنان بصوت واحد:

_ هات ما عندك يا مرشدنا وزعيمنا

_ هيا...استمعوا ولا تقاطعوني.

فأومأ الآخرون برأسيهما موافقين.

- لقد جاءتكم نبيه. بعوضة سوية لتنير طريقكم إلى الحرية. كل من أطمأن قلبه بالإيمان بها سيراها فتاة نورانية. ذات أجنحة ذهبية لا تصدأ ولا تتبدل مدى الأبدية. فاتبعوا نورها ونغمات جناحيها الشجية. كل من يراها تتجلى، ذكراً أم أنثى، فالرب عنه راض، وينجو من النار السرمدية. ويدخل الجنة ليحيا فيها منعماً مكرماً حياة أزلية. يا أيها العولميون. يا من بالإنسانية تكفرون. أصلحوا أنفسكم الأمارة بالسوء وأنتم أحياء ترزقون. وأتبعوا نداء النبيه.القديسة البعوضة ذات النفس الزكية. فلا تغضبوها ولا تقتلوها ولا تطردوها، فهذا أمر من الرب الذي زودها برسالة علوية.

توقف القارئ برهة، ارتشف خلالها بعضاً من الجعة في قارورة كانت لديه. مسح فمه بكمه ثم واصل القراءة:

_ قال الملاك: لقد اختارك الرب يا بعوضة لتكوني أفضل كائنات العالمين وسماك: ملاك البعوضية وما أدراك ما ملاك البعوضية! إنها ماري موسكي بالإنكليزية، وفطومة بالعربية واستر بالعبرية. إن مريم البعوضية ليست عذراء وليست ثيباً. هي من الرب هبة سخية. أرسلها لتنقذ العالم من خلال العولمة. وعندما تحين الساعة تصبح البعوضة ذات سحنة ملائكية، علوية, فإذا أرسل العولميون طائراتهم الحربية، لتلقي قنابلها النووية. تحضر النبيه تحلق فوق المدينة، وتنثر ورداً يُشَوّش على الأجهزة الالكترونية فتنحرف الطائرات عن مسارها وتضيع في السماء اللازوردية. وتتخدّر أيدي طياريها وأدمغتهم. هذه تذكرة لكل من تُسَوّل له نفسه العبث بالرسالة البعوضية. أما....

لم يدر بخلد الفتيات أن أحد رجال الملك كان يسترق السمع من مكان قريب. فاتصل برئيسه وأبلغه بما سمع ورأى. وعلى الفور حضرت ثلة من الجنود وانهالوا بوحشية بهراواتهم على الفتيان. إلاّ أن أحدهم وقف في وجه قائد الجنود قائلاً:

_ سيدي أقسم أننا لم نخالف أي قانون من قوانين الملك. لماذا؟ لماذا؟

فرد القائد بعنف:

_ لقد قرأتم إنجيلكم دون أن تهتفوا: يحيا الملك هذا جزاؤكم العادل يا أوغاد!

_ من فضلك، من فضلك يا سيدي، سنهتف لحياة ملكنا توقف...توقف أرجوك...

حالما رجع العسكر من حيث أتوا، جلس الثلاثة والدمع في عيونهم، وأجسامهم تؤلمهم.

قال الراوي والجوق معه يردد مترنماً:

_ بادئ ذي بدء...يحيا الملك.

تعالي يا بعوضة يا نبيه

خذي جرعة من دمنا

ومما لديك من حكمة أعطنا

يحيا الملك...يحيا الملك..

تعالي...تعالي إلينا...

ومن العقارب والأفاعي أنقذينا

هيا..هيا يا نبيه العولمة

أصلحي...أصلحي هذه الأمة

يحيا الملك...يحيا الملك..

ثم بكى الجميع وبكيت معهم.

اليوم الخامس والثمانون:

ساعات بعد أن نُشِرَ إنجيل البعوضة على الانترنت، برز إلى الوجود موقع تحت عنوان: www.scorpion.com جاء فيه ما يلي:

_ أنا العقرب بن العقرب بن العقرب

_ أحب القديسة بعوضة بنت الأبعض

_ حبي أصيل راسخ

_ كحب عاشق لنساء أربع

_ لكل منا إبرة ثاقبة

_ ذهبية كالأصفر الفاقع

_ألدغها ليلاً

_ ونهاراً تلدغني

_ بعدها نصبح أحلى وأينع

_ هي تلدغكم إذا اقتربتم

_ لكن لدغتي أشد وأوجع

_ تعالي إليَّ يا حبيبتي

_ بشراً سوياً سأجعلك

_عروساً فاتنة

_ ملكة للجمال الأرفع

التوقيع: عقرب

اليوم السادس والثمانون:

قالت لي الجرادة ونحن نُحَلّق فوق قصر الملك:

_ أنا لا أجد أية غرابة أو عجب في أن يحاول الملك قتل حبيبك "لؤلؤ" لأنه لم يهتف "يحيا الملك". الملك هذا مجرم كبير يا أختي.

لقد أباد عشرات بل مئات الألوف من بني جراد، بما في ذلك أمي وأخواتي وإخوتي. فلم يبق من بني جراد إلاّ أنا على قيد الحياة. وضعتني أمي، بويضة صغيرة خبأتها في أعلى زوايا القصر الملكي فلم يصلها مبيد الجراد...وكما ترين، فأنا حية الآن، وأخطط لوضع عشرات الألوف من البويضات بالتعاون مع جرادات أخرى اجتازت حدود المملكة وهي في طريقها إلى المدينة..هذا الملك الأبله المجرم يظن أنه يستطيع استئصالنا...آه يا له من جاهل!! فهو لن يستطيع أبداً أبداً. فكلما قتل واحداً منا بذرنا بدلاً عنه سبعمائة إلى سبعة آلاف جرادة، على الأقل..

قلت في نفسي هذا كثير، كثير جداً. ثم جهرت بما يجري في داخلي قائلة:

_ الجراد مثل البعوض، نحن جميعاً لسنا كالنحلة التي تصنع عسلاً فيه شفاء للناس!

فردت غاضبة وساخرة:

_ شفاء للناس، ها! لهذا البشر، أيستحقون أي شفاء؟ هم يذبحون الحيوانات لتصبح طعاماً لهم، والطيور والأرانب والأسماك، إلى آخره، إلى آخره. إنهم قتلة وليسوا جديرين بأن نكون طعاماً لهم أبداً أبداً...ثم صمتت برهة واستطردت تعبر عن رأيها:

_ البشر يجعلون من بني الحيوان طعاماً، كما قلت قبل قليل، ليس هذا فقط بل إن هذا الملك المجرم وأمثاله، يسجن حبيبك ويريد قتله لأنه لم يهتف له بطول العمر.. جنون جنون...البشر لا يكتفون بقتل الحيوان

والطير، بل بقتل بعضهم بعضاً...لقد سمعت بحرب قتل فيها الملايين من بني آدم.

تصورّتُ حالة الأشجار لو مرَّ بها جحافل بني جراد! آه ماذا يحدث؟ شجرة الكستناء التي استقبلتني وفتحت لي صدرها عندما هبطت من الجنة...وشجرة الدفلة حبيبتي يزورها الجراد! آه! لكني لم أنبس أبداً. لاحظت غضبي وحزني فقالت:

_ ماذا بك يا أختي؟ ما الخطب؟ هل خطر ببالك لؤلؤ؟

قلت وأنا أنظر بعيداً كي لا تتمعن في وجهي:

_ لا شيء...لكن أخبريني ماذا تعرفين عن قصر الملك؟ خاصة أنك نشأت قربه

قالت بهدوء وهي تستجمع معلوماتها وذكرياتها:

_ أنظري إلى ما تحتك...القصر عبارة عن نجمة خماسية كل شعاع منها يتكون من أهرامات وفي الوسط أهرام كبير، حيث تلتقي الأهرامات الأخرى، وهنا يوجد عرش الملك الذي يجلس عليه ليأمر من حوله بما يشاء. ولكل أهرام اسم خاص به, فالأهرام المركزي سماه الملك؛ "قاعة العرش العولمي"، فهو يحب كلمة "العولمة" لأنها تذكره بالعالم الذي يريد ويطمع أن يحكمه كله. أما الأهرامات الخمسة الأخرى فهي: "أهرام الطاعة" وهو مخصص للعمال والموظفين والمستشارين وغيرهم ممن يحتاج الملك إليهم. وهناك بجانبه "أهرام القوة" مخصص لرجال الجيش والشرطة والأمن والمخابرات. أما الأهرام الآخر على اليمين فهو " أهرام السلطة"، هو للوزراء والمسؤولين الكبار والمساعدين. أما الآخر على

اليسار فهو "هرم الرفاهية" وقد خصصه الملك لقضاء وقت فراغه والراحة ويسكن قربه أصحاب الاختصاص في خلق وسائل الترفيه عن الملك. وأكبر هذه الأهرامات هو "هرم الحلم العولمي"، الذي يقوم من يسكن فيه بدراسات وبحوث حول كيفية تحقيق أحلام الملك العولمية.

غرقت في محاولتي لاستيعاب هذه الفكرة العجيبة التي لم تخطر قط على بالي، كما أني لا أذكر مثيلاً لها في فضاءات الجنة وقصورها. لكن الجرادة استطردت قائلة:

_ اسمعي... شعب المدينة يسمون قصر الملك هذا "قصر الخراب" وهذا سر فلا أحد يجرؤ على التفوه بهاتين الكلمتين علناً... لأنّ سياجاً فولاذياً مكهرباً يحيط بحديقة القصر، التي تحيط بالقصر... أنظري نحو الأفق يوجد طوق أخضر من الشجر تتخلله خطوط من الزهور والورود بمختلف الألوان والأشكال في الحقيقة هو "قصر الموت" كما يطلق عليه هذا الاسم بعض العائلات التي أبناؤها حاولوا اقتحام الحديقة والقصر بحثاً عن غذاء لهم ولأسرهم، فكان جزاؤهم الموت بالتكهرب... أنظري هناك، ثمة طوق آخر يحيط بالحديقة وهو طوق الشعب الفقير، المكوَّن من بيوت الصفيح والمتهدمة... لقد زادت أحوالهم سوءً هذا العام بسبب الجفاف، وكان الموت بانتظار كل من يمس الحاجز المكهرب ومن شدة جوعهم ، راحوا يجمعون الجرادات من أبناء جلدتي ويتغذون بها.

_ و بالطبع فهذا يغيظك يا أختي.

_ على العكس! فنحن معشر الجراد عندما نهرم، لا نستطيع التحرك والطيران، فنشعر بلذة خاصة إذا أكلنا بنو آدم... وهذا ما أريده لنفسي،

فعندما أصاب بالشيخوخة، أتمنى أن يأكلني طفل جائع، فيستفيد جسده من جسدي.. نحن أيضاً نفعل ما ينفع الناس وليس النحّل وحده.. وأجسادنا أنقذت آلاف الناس من الموت في بلدان عديدة حسبما سمعت من أمنا الملكة الجرادة. على العكس، فلا أعرف أحداً استفاد من جثة بعوضة أليس كذلك؟

_ صحيح، البشر لا يأكلون جثث البعوض... الخفاش، النمل والسنونو والعناكب يعتبروننا وجبة شهية، أقصد نحن أيضاً نفيد الأحياء من الطيور...

قاطعتني قائلة:

_ أما جثث البشر، فلا يستفاد منها أبداً... هي غذاء للدود فقط، يا للأسف!

_ لكن أرواحهم لها وجود خاص... تنفصل عن جثثهم وتذهب إلى الرب خالقها، حيث تعيش في جنة الخلد...

_ وكذلك جثة هذا الملك الذي يعيش تحتنا الآن؟ والذي يقتل الناس لأنهم لا يهتفون "يحيا الملك". ما رأيك؟

_ أنا لا أدري بالضبط لكن عند الرب مكان يسميه "جهنم" حيث يعذب...

_ أتمنى أن أذهب إلى بيتي في حديقة الملك لأرتاح وداعاً..

لم يطل بي المقام، فبدوري أيضاً هبطت نحو القصر ورحت أبحث عن منفذ لأدخل منه.

اليوم السابع والثمانون:

بعوضة في القصر الملكي. حالما لمحت صاحب الجلالة قفزت إلى تاجه. كنت قرب عنقه ولم يحس بوجودي. خرج منذ لحظات من باب أهرام الرفاهية حيث استمتع بتدليك جسده الكهل في حمام البخار. أنا وهو في قاعة العولمة الذكية، تلك الفسحة حيث تلتقي الأهرامات الخمسة.

جلس على العرش قلقاً. عرش الملك العولمي أعجوبة تكنولوجية: كرسي وثير من الذهب والحرير تتحكم بحركاته مجموعة من الأزرار في جهاز التحكم عن بُعد. إذا ضغط الملك على الزر رقم واحد، يقوم الكرسي بذبذبات خاصة تخفف من التعب، وتريح مجموع الجسد. أما إذا ضغط على الزر رقم اثنان، فهذا يمكنه أن يتبول أو يتغوط بسهولة، وينتقل البول أو الغائط بحركة تكنولوجية خاصة بواسطة أنابيب إلى وعاء مخبأ تحت كرسي العرش. الرقم ثلاثة يحيل كرسي العرش فراشاً وثيراً يمكن الملك أن يستلقي عليه أو ينام بكل هدوء واسترخاء. وأخيراً فالزر رقم أربعة مخصص لوسادتين أمام الكرسي تسهلان جريان الدم في الرجلين والقدمين.

كان يفرك يديه وأصابعه بعصبية، بينما عيناه كانتا تلقي نظرات سريعة، تائهة أحياناً، على مجموعة أوراق غطت سطح المنضدة التي كانت أمامه. تلك كانت تقارير المسؤولين الكبار عن الأهرامات الخمسة. كأن موضوع التقارير الخمسة واحداً، حول: البعوضة _الفتاة المجنحة_ البعوضة التي أنقذت السجين لؤلؤ من موت محتم. غير أنها كانت خلواً

من مخطط واضح المعالم يفضي إلى القبض على هذا الكائن العجيب، كما ذكرت. وقد جعل هذا الوضع الملك يستشيط غضبا.

إنه الآن في انتظار البروفسور (أناعرف) الذي وعده بمخطط دقيق للقبض غلى البعوضة. في هذه اللحظات خطر لي أن أطلع على ما يجري في رأسه. انتقلت إلى صدغه الأيسر وبكل رفق وحذر غرست إبرتي تحت الجلد المعفن دون أن يحس صاحبه بأي ألم.

وهذا ما وجدت.

كان الملك العولمي يؤنب نفسه لتسرُّعه بالخروج من الحلبة، ذلك اليوم الاستثنائي، عندما انطلق الناس دون رادع أو ضابط نحو الجندي الذي سقط على الأرض بسبب لدغتي، تحولتُ إثرها إلى الفتاة المجنحة التي كانت فوق الحضور، ثم عدت إلى ما كنت عليه وهربت أمام ذهول الجميع.

لماذا؟ لماذا لم آمر الجند أن يلقوا القبض عليها عندما كانت تحلق فوقهم؟ آه، هذه الملعونة سحرتني... لو كنتُ...لو كنت أكثر فطنة، أكثر استعداداً للطوارئ، لكانت الآن سجينة عندي أفعل بها ما أشاء. في هذه الأثناء رن جرس الهاتف. فرد الملك على المتكلم بلهجة يشوبها غضب ساطع قائلاً:

_ أدخله حالاً. مفهوم؟

ثم تنفّس الصعداء وقال في نفسه: وأخيراً جاء من يفهمني جيداً ويعرف ما أريد...وينفذ...

أنفاسه الحارة المفعمة برائحة فمه الكريهة ودخان التبغ المختلط برائحة لحم مشوي وبصل كادت تخنقني سحبت إبرتي ورحت أنظر حولي لعلي أجد مكاناً مناسباً أستريح فيه بعيداً عن هذا كله.

ها هي القاعة العولمية أمامي، بأعمدتها الرخامية البيضاء وجدرانها المذهبة وأراضيها المفروشة بالزرابي الفخمة. ثمة زهور وورود متنوعة الأشكال والألوان تملأ زوايا المكان. أما الثريا الضخم الذي ينتصب معلقاً فوق الرؤوس فهو من الكريستال الخالص والذهب صمم على شكل شجرة ذات أغصان تحمل فوانيس كهربائية على شكل ثمار العنب والتفاح والاجاص والأناناس تأخذ الألباب.

وبدون تردد طرت إلى زهرة ياسمين في إحدى الزوايا أملاً بأن أرتاح قليلاً بين تويجاتها وأشم عطرها لعله يطرد ما علق بي من أنفاس الملك. لكن خيبتي كانت عظيمة، فالزهور كلها اصطناعية لا أثر للحياة فيها لأن الملك يعاني من حساسية مفرطة من الزهور الطبيعية وأريجها.

"أناعرف"، ضيف الملك في الستين من عمره. هو قصير مكور كأنه إجاصه، أما رأسه فأصلع كالبيضة، ووجهه مجهز بأنف بارز كالبازنجانه، هو أستاذ العلوم الطبيعية في جامعة الملك العولمي. لا يخلع نظارته القاتمة إلاّ ليمسح العرق المتصبب من جبهته العريضة إذا ما أحتد الجدل حول أرائه أو نظرياته.

هكذا تكلم "أناعرف":

_ فلتحيا إلى الأبد يا صاحب الجلالة، ملكنا العولمي. أعتقد يا سيدي المبَجَّل أن الثقب الذي حدث في طبقة الأوزون قد تسبب في تكوين اختلال

كبير في سير القوانين الطبيعية...وما موجات الحرارة والجفاف اللذان أصابا المملكة العولمية (فليحفظها الرب من كل مكروه) إلاّ مؤشران على قدوم خطر كبير يصيب الكرة الأرضية من أقصاها إلى أقصاها.

خلع البروفسور نظارته، مسح جبينه ووجنتيه بمنديل ورقي، ألقى نظرة فاحصة على وجه الملك الذي كان يصغي بكل جوارحه. ثم استأنف قائلاً:

_ صاحب الجلالة إن البعوضة التي أقلقت جلالتكم ليست إلاّ نوع جديد من الحشرات لا يعرف العلم عنها شيئاً لقد تكونت هذه البعوضة بتأثير التغيرات المناخية العميقة....أقصد يمكن أن نشهد في المستقبل القريب ظهور حشرات عملاقة لم يسبق أن عرفها العالم من قبل...يعني يمكن أن تتحول بعوضة إلى فتاة مجنحة بسهولة...كما يمكن أن تتحول إلى ديناصور يهاجمنا...أقصد أن حيوانات وحشرات ما قبل التاريخ يمكن أن تعود إلى الظهور لتلتقي في عالمنا الحاضر مع حيوانات وحشرات ما بعد التاريخ.

تعجب الملك من هذه الأقوال، ففغر فاه وقال:

_ تقصد تحول بعوضة إلى ديناصور ضخم...هنا في مملكتي؟

_ ليس هذا بالضبط سيدي صاحب الجلالة... أقصد مجرد احتمال ضعيف.

فرد الملك بحدة:

_ إذا كان ذلك مجرد احتمال ضعيف، فلنترك الأمر هذا جانباً، وأخبرني الآن، ماذا يجب أن نفعل لنقبض على تلك الملعونة؟

تنحنح قليلاً وسعل بهدوء ثم قال:

_ أحتاج سيدي... أقصد كم عدد غرف القصر؟

_ ستة وثمانون... لماذا هذا السؤال؟

_ أنا بحاجة إلى ستة وثمانين شبكة صغيرة مجهزة بمقبض خشبي أي شبكة لكل غرفة.... كما أريد كمية من دم بشر، أقصد قليلاً من دم الموظفين في القصر وغيرهم... فالبعوضة بلا شك تحب الدم البشري...

_ سأقدم كل ما تطلبه إذا كنت تضمن أن تنجح خطتك في القبض عليها.

_ أجل يا صاحب الجلالة، فلتحيا إلى الأبد... إني أحيطكم علماً بأني على يقين بأن البعوضة هي هنا... لأنها تبحث عن حبيبها "لؤلؤ" البشري الذي أنقذته من الموت لأنها تحبه... وأعتقد أنها تعتقد أن "لؤلؤ" في القصر لذا يجب أن تبقي كل أبواب القصر ونوافذه مغلقة بإحكام تماماً حتى لا تهرب. صمت برهة، بلع ريقه بصعوبة واستطرد قائلاً:

_ عندما نقبض عليها، سأقوم بتحليل الحمض النووي، ونأخذ عينة من جسدها ثم نقوم باستنساخ عدة بعوضات على شكلها... سيدي... لقد أصبحنا بالعلم قادرين على صنع أي شيء... تصور سيدي أن لديك ثلاث فتيات مجنحات... إنهن الملائكة، هذا يعني أقصد أننا نكون قد كشفنا الحلقة المفقودة التي تحدث العالم العظيم تشارلز داروين عنها... وهذا شرف عظيم وانجاز هائل لمملكتكم العولمية، حفظها الرب من كل مكروه... يحيا الملك العولمي.

اغتبط الملك بما سمعه، وقدم صرة فيها ليرات ذهبية مكافأة لـ "أناعرف"، ثم أمر بأن تنفذ الخطة بحذافيرها، خاصة ما يتعلق بالكيفية التي يهوي بها الصياد على الطريدة، أي عَلَيَّ. وكان لكل غرفة من غرف القصر صيادان، إحداهما يعمل نهاراً والآخر ليلاً.

في أثناء ذلك، كنت أغفو في تاج الملك. ضحكت على نفسي كما ضحكت نفسي علي، ثم ضحكنا معاً على هذه القصة الغريبة.

لن أهتف يحيا الملك العولمي ولن أهتف: الموت للملك العولمي بل إني هتفت: تحيا حواء ويحيا آدم وأنا معهما.

اليوم الثامن والثمانون:

منذ أن جئت إلى الأرض، اعتدت أن أغفو في زهرة ربي وحده كوّنها. أنا مذنبة، لكن زهور ربي تعانقني حباً وتفتح لي شفاهها. في النور تبتسم لي وفي الظلمة أنام على أنفاسها. بالفردوس المفقود أحلم، وبقصري وبالأحبة أمثالها أما اليوم فانا في قصر الملك العولمي

لم أنم ليلتي في جوف زهرة لا أدري من الذي صنعها. وهزتني تويجاتها، خنقتني غبرتها، نبذتني أوراقها كأني فريسة بين أنيابها. ليلاً تسللت هاربة فطاردتني أشباح لها. ولولا حبيب أحبه لكن لا يعرفني لقتلت نفسي عقاباً لها.

اليوم التاسع والثمانون:

الحجرة المحرمة في قصر الملك العولمي هي للملك وحده. لا يدخلها إلاّ الملك؛ لا يملك مفتاحاً لها إلاّ الملك؛ لا يعرف أحد ما بداخلها إلاّ الملك؛ ولا أحد يدري ماذا يفعل الملك عندما يكون بداخلها. يلجأ الملك إلى الحجرة المحرمة ليستريح فيها من عناء يوم عمل طويل. لجأ الملك إليها مرتين، أولها، في ذاك اليوم الذي نجاَ فيه لؤلؤ من الموت، وفيه لمحني الملك فتاة طائرة تتمايل على صفحة السماء وتغني. أما ثانيتهما، فهو اليوم الذي أجرى فيه مباحثات مطولة مع وفد دولة أجنبية كبرى اختتمت بالتوقع على اتفاق لنشر أسلحة غير تقليدية على أرض المملكة لحمايتها من أعداء الملك.

دخل الملك الحجرة المحرّمة فدخلتها معه ولم يحس بوجودي. الحجرة هذه هرمية الشكل، بلا نوافذ وبلا كوى. لها باب واحد، يتوسطها سرير وثير فوقه تستلقي امرأتان، دميتان عاريتان مرتبطتان بدون سلك بحاسوب وجهاز رقمي صغير يمكن الملك من أن يتحكم بحركاتهما ووجهيهما وخصائص أخرى تميز الكائن البشري الحي. تنتصب فوق السرير شاشة تلفزيونية معلقة في الهواء تظهر، حسب الطلب، صورتين لوجهي امرأتين من أصل ألف امرأة وامرأة موجودات كلهن في برامج الحاسوب.

أغلق الملك الباب بسرعة، تخلص من تاجه وثيابه واستلقى بين الامرأتين. تناول جهاز التحكم عن بعد مثبتاً عينيه على الشاشة المعلقة أمامه. ضغط على أرقام معينة يعرفها، فظهر وجه كليوباترا، ثم ضغط

على أرقام أخرى، فظهر وجه بريجيت باردو كما كانا أصلاً في عز شبابهما. وفي نفس الوقت كانت الدميتان، تتحولان بسرعة فائقة.

آه! الآن هاهي كليوباترا وهاهي بريجيت باردو بشحمهما ولحمهما وأنوثتهن الملتهبة شبه أحياء، تهمسان وتتأوهان عشقاً وحباً كما لو كانتا على قيد الحياة فعلاً.

سر الملك بهما وغطت وجهه ابتسامة الرضا. قام بضم كليوباترا إلى صدره بينما هوى بفمه على فم بريجيت باردو ليصنع قبلة ملتهبة. أثر ذلك، قام بواجبه الذكوري، نحو كل منهما ولم ينس أن يتناول بضع حبات صنعها له مخبر الصناعات الشبقيه العولمية.

وتتابعت النساء حسب الطلب، هاهي زوجة رئيس البيت الأبيض وأبنته أيضاً، ثم زوجة ملك عربي مشهورة بجمالها وفتنتها...ثم دينا، ثم ماري أنطوانيت فالملكة فيكتوريا، الخ...كلهن حضرن حسب الأوامر بشبابهن وأنوثتهن والملك يقبل هذه ويعبث بثدي أخرى، ويقرب عضوه التناسلي من ثالثة وهكذا، من أصل ألف امرأة وامرأة كانت مخبأة في جوف الحاسوب.

غلب الملك النعاس والتعب فنام. وعندما سمعت شجيرة اقتربت منه. شاهدت قطعاً بلاستكية اصطناعية مثبتة بإحكام على ذراعيه وفخذيه وصدره وأجزاء من وجهه. وبدا وجهه بدون روتوش، أشبه بوجه حيوان الكنغارو الأسترالي، يحمل لحية كلحية تيس أشهب فاجاءه الغليان الجنسي في فترة حرجة من حياته.

أخيراً فتح عينيه، إنهما كعيني بومة شاهدت فأرة فَهَمّت بالطيران نحوه لالتهامه. ألقى نظرة على الشاشة التي أظهرت مارغريت تاتشر وجاكلين، تبعهما بنظرة أخرى على المرأتين الدميتين المضطجعتين بجانبه. ضغط على عدة أزرار فظهرتُ على الشاشة، صورة مشوهة التقطتها إحدى الكاميرات ذلك اليوم المنشود. لكن لا امرأة من الاثنتين تحولت لتتخذ شكلي بجناحي ووجهي الملائكي. على النقيض، فقد كتب تحت الصورة: لا يعلم جهاز الحاسوب عنها شيئاً. اجتاحته موجة من الغضب الشديد فشتمني، وختم قوله بالعبارة: سأقبض عليك أيتها العاهرة مهما طال الزّمن.

غادر السرير. لبس ثيابه. وضع التاج على رأسه وخرج من الغرفة المحرمة فخرجت معه في جولة تفتيشية على غرف القصر قُدّمت إليه أثناءها عدة علب زجاجية تحتوي على بعوضات جرى صيدهن في الليلة الماضية. أخذ العلب معه إلى القاعة العولمية، جلس على العرش وشرع في إخراج البعوضات الواحدة تلوى الأخرى، وتحطيم أجسادها لعلّ أحدها تكون "أنا". لكن خاب أمله وزاد إحباطه واشتدت نرفزته.

كنت أراقبه من بعيد وأنا أضحك. ولما فرغ من قتل البعوضات ألقى بالعلب الزجاجية على الأرض. أما أنا فقررت أن أغادر القصر عندما سمعت أصوات مناوشات واحتجاجات من خارجه. غنيت لنفسي لحناً لا أتذكره بالضبط، وأنا أتحَسّر على مصير المملكة، وحالة ملكها العولمي.

أنا الآن في الخارج. تنفست الصعداء، ورحت أشاهد فصول أحداث جديدة والألم يعصر قلبي عصراً

اليوم التسعون:

بثيابهم الممزقة وأجسادهم النحيلة حضروا إلى القصر. كانوا نساءً ورجالاً شيوخاً وعجائز وأطفال. حمل كل منهم سطلاً ليحمل به حصته من القمح في مخزن الملك. لقد أرسلت دول أجنبية كمية من القمح ليقتات شعب المملكة بعد أن أصيب محصول العام المنصرم بالعفن وقضى الجفاف على الجزء الأكبر من المنتوج العام الجاري. لكن الملك العولمي، بدلاً من أن يُوَزّع القمح المستورد على سكان المملكة، احتفظ به لنفسه في مخازن ملحقة بالقصر. خصص كيلو غراماً واحداً كل شهر لكل فرد من أفراد الرعية.

منذ الصباح الباكر لهذا اليوم الصيفي الحار حَضَر الضابط المكلف من قبل الملك بتوزيع القمح الجديد. وقف أمام الحشد وصرخ مزمجراً:

_ هيا اصطفوا جميعاً في صف واحد، كل واحد وراء الآخر. واحذروا أن يكون من بينكم من سبق أن حصل على حصته لهذا الشهر،...والأفضل له أو لها أن ينسحب فوراً. فإذا كشفت الآلة أنه يحاول أن يغش فسوف يسجن لمدة ثلاثين يوماً. مفهوم؟

فرد الجميع بصوت واحد:

_ مفهوم

ثم غيرّ نبرة صوته وصاح:

_ يحيا الملك..

فرد الحاضرون بصوت واحد:

_ يحيا الملك..!

رضخ الجميع لأمر الضابط. وقفوا بانضباط تام صفاً واحداً صامتون في أشعة الشمس التي بدأ لهيبها يلسعهم دون رحمة.

تقدمت المرأة الأولى نحو لوحة ثبتت على جدار معدني صنع خصيصاً للقيام بعملية توزيع القمح. ظغطت المرأة بإبهامها الأيسر، حسب الأوامر، على نقطة معينة في اللوحة، بينما كانت كاميرا خفية تلتقط صورة لها في حين كان حاسوب جيء به لهذا الغرض، يقوم بفحص البيانات التي تم جمعها. وأخيراً ظهرت كلمة "ok" على شاشة صغيرة مثبتة باللوحة، ففتح صنوبر في الجدار وتدفقت كمية من القمح إلى سطل المرأة. حملت المرأة سطلها وهتفت:

_ يحيا الملك

ثم انسحبت لتحل امرأة أخرى في مكانها وهكذا دواليك. كنت على صدر الضابط أعبث بالأوسمة والنياشين، التي منحه إياها الملك، وألقي نظرات تطفلية على شاربيه السوداوين وشفتيه الغليظتين وعينيه المفعمتين بالغرور.

ثم جرى فصل جديد، تقدمت عجوز وطفل كان يمسك بيدها وقالت باستعطاف بالغ:

_ سيدي الضابط...سيدي سامحني يا سيدي ثم غصّت بالكلمات، فلم تعد قادرة على إتمام طلبها، فقال الضابط محتداً:

_ ماذا تريدين يا عجوز؟

فجاوبته بكلمات مبعثرة:

_ سيدي...أنظر إليه...ابني مريض بالإسهال ومعدته بحاجة لشيء من القمح الجديد، يحيا ...يحيا الملك...سيدي الكيلو الذي أخذته الأسبوع الماضي لم يكفه...يحيا الملك.

فرد الضابط بلهجة أكثر حدة:

_ لا يا عجوز...لا غير ممكن...القانون هو القانون...كيلو واحد فقط في الشهر...هيا ابتعدي، فغيرك ينتظر غير أن المرأة التي حفر الفقر والشيخوخة أخاديد في وجهها لم تستجب لطلبه. وقالت تدافع عن قضيتها.

_ سيدي أقسم برب الناس أن ابني مريض أنظر إليه، الطبيب قال لازم يتغذى بقمح غير معفّن، تهضمه معدته...سيدي أنا لا أريد شيئاً لنفسي...فقط لأبني أنظر...أنظر إلى وجهه...أليس عندك أطفال؟ القمح في السوق لا يصلح للمريض سيدي يحيا الملك.

تضايق الضابط من إلحاحها، فقال مخاطباً بنرفزة واضحة:

_ لقد قلت لك أن القانون لا يسمح...لا يمكن أن نعطيك أكثر من حصتك...هل فهمت؟ هيأً ابتعدي ولا تعطلي عملي...هيا!!

لكن قبل أن يقترب من المرأة لإبعادها بالقوة، انطلق جرس الطوارئ في القصر. لقد رصدت أجهزة الرادار جسماً غريباً يطير في فضاء القصر. أصيب القصر ومن كان فيه بحالة هستيرية وانطلقوا لا يلوون على شيء في كل الاتجاهات. حمل عدد كبير منهم الشباك وانطلقوا لاقتناص البعوضة الأعجوبة، الفتاة الجَنَّحة. في هذه الأثناء زعق صوت عبر مكروفونات القصر يطلب ويحذر قائلاً.

_ تحذير...تحذير...أمسكوا البعوضة وإياكم أن تقتلوها أو تمسوها بأذى...إياكم أن تمسوها بأذى.

كنت مازلت على صدر الضابط الذي ترك موقعه وراح يركض هنا وهناك لعله يقبض عليَّ. قال يحدث نفسه وهو يلهث سأمسك بك يا ملعونة...سأنال الجائزة سأنالها...أكيد.

تركته وطرت نحو المرأة وطفلها التي لم تكن تفهم شيئاً مما يدور حولها. تناولت سطلها، وبحثت عن مكان مناسب له، قلبته، وجلست عليه والإحباط والحيرة يغمرانها.

اقتربت من المرأة وقلت بلطف بالغ:

_ لا تحزني...لا تحزني سأجد لك حلاً؟

غير أن المرأة لم تلحظني ولم تسمع أو تفهم شيئاً مما قلت لها. أما الطفل الذي كان دون العاشرة فقال لأمه:

_ ماما...ماما أنظري هذه بعوضة...أنظري...اسمعي ماما...إنها تتكلم ...تتكلم يا أمي...

فرَدّت الأم بحدة:

_ أسكت...يكفيني ما حدث..هيا نعود إلى البيت

_ لا لا يا ماما...انها تطلب منا أن نتبعها...أنظري هي تطير أمام عينيك...

وأخيراً اقتنعت بما سمعت من طفلها. نهضت من مكانها وتبعتني. قلت أخاطب الطفل:

_ هيا ضع السطل تحت الصنبور..تحت الصنبور بالضبط لماَّ فعل الطفل ما طلبته منه وأمه تراقبني بعينين شاحبتين. اقتربت من اللوحة،

وهبطت على النقطة التي من المفروض أن يضع طالب القمح ابهامه الأيسر وخاطبتها:

_ باسم الرب، رب السموات والأرض...افتح يا صنبور، باسم الرب افتح يا صنبور...

فجأة راح القمح يتدفق نحو السطل حتى امتلأ. تقدمت الأم مذهولة وحملت السطل محاولة أن تهرب قبل أن يكتشف أمرها.

قلت للطفل:

_ تعال معي لنخبر بقية الناس...هل خطر لك مرة أن تسابق بعوضة؟

وأسرعنا نحو الجمع الذي انتشر في الأزقة وما بين البيوت عائداً إلى سكناه.

وقبل أن تغيب الشمس ذلك اليوم، كان عند كل من رجع إلى الصنبور ما يحتاجه من قمح الملك، الملك الذي كان منهمكاً في البحث عني دون جدوى.

اليوم الحادي والتسعون:

جاء الإنكشارية جاء الإنكشارية: كلمتان تجعل المارة وأصحاب الحوانيت في شارع المدينة يرتجفون خوفاً ورهبة.

كانوا سبعة... ويرتدي كل منهم بزة يختلف لونها عن البقية، لكنها تشكل في مجموعها ألوان قوس قزح. يمتطون خيولاً مطلية باللون الأخضر، ثبتت وردة حمراء اصطناعية على كل أذن من آذانها.

الإنكشاري رجل صلب البنية، أعزب، ودون الأربعين من العمر، لحيته سوداء اللون كلحية تيس عجوز، وشارباه مصقوفان إلى الأعلى كأنهما عقربان، خوذة خضراء اللون ثبتت وردة حمراء اصطناعية في وسطها. سلاح الإنكشاري سيف أخضر، وخنجر أخضر، ورمح أخضر، وكلاشنكوف أخضر عليه أن يحملها دوماً كلها.

الإنكشاريون هم الحراس العولميون للملك، يقطنون في حجرة هرمية الشكل قرب القصر. تم انتقاؤهم من بين آلاف المتطوعين وأشرف الملك بنفسه على تدريبهم ليكونوا الأداة الفعاَّلة لتنفيذ كل ما يطلب الملك.

أنشئت كتيبة الإنكشارية بناء على نصيحة البروفسور "أناعرف" الذي قرأ عنها في كتب التاريخ، فأعجب بها ونقل إعجابه إلى الملك الذي قبل نصيحة وأمر بتنفيذها فوراً.

يتحرك الإنكشارية في شوارع المدينة على شكل استعراضي، فتتوقف السيارة والمارة، بينما ينشد الفرسان نشيدهم العولمي:

/نشيد الإنكشارية العولمية/

إنكشارية نحن

ولنا الفخر

جئنا من غابر الزمن

لخدمة الملك الأوحد

هيا أقسموا... هيا اقسموا

يحيا الملك... يحيا الملك

نحن فرسان العولمة

سباقون إلى الملحمة

ملحمة المجد والخلود

للملك الأوحد

هيا أقسموا...هيا اقسموا

يحيا الملك... يحيا الملك

بالسيف، بالرمح، بالكلاشنكوف

نؤز الأعداء ونهزم

نحن أسود المشرق والمغرب

نزأر، ننقض ونهجم

فداء للملك الأوحد

هيا أقسموا... هيا اقسموا

يحيا الملك... يحيا الملك..

سمعت جلبتهم وهم يعبرون قربي. فتّحت عَيْنَيَّ، ألقيت نظرة على ما حولي ثم أغمضتهما وأنا أحاول أن أرتاح من عناء يوم أمس.

اليوم الثاني والتسعون:

حَدَّث الملك نفسه وهو جالس على عرشه، وقال:

_ أنا غاضب من نفسي لأنّ نفسي لم تحقق ما تصبو إليه نفسي. لكني عاشق وعشقي بحر واسع يغرق فيه غضبي. لقد أصبح هذا القصر

صحراء مقفرة، فلا حب ولا ولد ولا حنين فيه. وحياتي بدون البعوضة ، "فطيمة" كما سمعت أن الناس قد سموها بهذا الاسم...حياتي بدونها مستحيلة مستحيلة

ثم بكى لأوّل مرة في حياته واسترجع بيتاً من الشعّر لأحد الشعراء بعد أن غيَّر بعض الكلمات فيه:

_ ضميني إليك يا فطيمة ضميني، يا أحلى مما بين جفوني ثم استدعى البروفسور "أناعرف" ليطلعه على الإستراتجية الجديدة للقبض على البعوضة، ذلك "الملاك_الشيطان_ الحشرة" كما وصفها أحد المقربين إليه قال البروفسور "أناعرف":

أولاً، يا صاحب الجلالة لقد كتبت قصيدة سأقرأها عليك بعد قليل. فأنا أخشى أن يطاردها بعض الناس الطامعين في الجائزة وقد يؤذونها. فلا بد من تحذيرهم وترغيبهم في التعامل معها برفق. وأقترح أن تذيع قصيدتي كل وسائل الإعلام حتى يعرف ما نريد منهم بالضبط. عذراً سيدي، سأقرأ القصيدة بعد أن انتهي من النقاط الأساسية للإستراتجية الجديدة.

ثانياً، بما أننا متأكدون أنها خارج القصر، لكن لا نعرف أين هي بالضبط، اقترح طلب المساعدة من البيت الأبيض، أقصد من أجهزة المراقبة بالأقمار الاصطناعية لتحديد مكانها بالضبط. وهذا أمر ليس صعباً عليهم كما هو الحال بالنسبة إلينا. ولا أعتقد، سيدي، إنهم يرفضون خاصة أنه يوجد بيننا وبينهم اتفاق أمني ودفاعي.

ثالثاً، اقترح أن توكل مهمة الإمساك بها إلى فرسان الانكشارية العولمية، باعتبارهم أحسن ما لدينا من جنود وقناصين.

رابعاً، عندما نلقي القبض عليها، اقترح أن نضعها في قفص من ذهب يليق بها. لقد طلبت بالأمس من صائغ المملكة أن يصنع القفص، وأظن أنه أصبح جاهزاً وسوف يكون بين يديكم بعد وقت قصير. هكذا يبقى القفص وما فيه تحت إمرة جلالتكم دوماً، حتى تتحول البعوضة إلى فتاة ذات الجناحين كما هي في الحقيقة.

خامساً، عندما يتم التحول بصورة تامة وكاملة تصبح عشيقتكم أو زوجتكم حسب رغبتكم ومرادكم. فإذا أنجبت سيكون لجلالتكم ابن أو ابنة ليس له مثيل بين الإنس والجن والملائكة..

والآن، اسمح لي يا صاحب الجلالة ن أقرأ القصيدة كما وعدتكم في البدء.

_ بعوضة مقدسة
طاهرة مخلصة
إلى الجنة تهديكم
ومن جهنم تنقذكم
يحيا الملك...يحيا الملك...

_ لا تقتلوها...لا تؤذوها
بالرفق وباللين، وبالحب
عاملوها...واستقبلوها..
حية ملكنا يريدها
يحيا الملك...يحيا الملك...

_ إذا قبضتم عليها
قدموا لها كل ما تشتهي
من أكل أو مشرب
وانقلوها إلى الملك الأوحد
يحيا الملك...يحيا الملك...

_ جائزة كبرى تنتظركم
والملك في قصره يستقبلكم
وليكن الرب معكم
يحيا الملك...يحيا الملك...

بعد انصراف البروفسور حاملاً معه مكافأته، شعر الملك بالارتياح والسرور. وقال محدثاً نفسه:

_ إذا أنجبت طفلاً كما أتمنى سيكون الإنسان المتفوق حسبما ذكر لي البروفسور...آه! يا له من إنسان متفوق من صنع المملكة العولمية، وسيحكم العالم الجديد والقديم على حد سواء، وسوف يأتي الملوك والأباطرة ليقدموا الولاء والطاعة لنا، وستصبح مملكتي مركز العالم...

تناول سماعة الهاتف وتكلم مع رئيس البيت الأبيض طالباً منه المساعدة في تحديد مكان وجود البعوضة بالأقمار الصناعية. فكان له ما أراد. فلم تمض ساعة من الزمن حتى جاء كبير رجال الأمن والعلم والتكنولوجيا في القصر وأطلع الملك على صورة اليكترونية أرسلت إلى

القصر بالانترنت، تظهر شجرة لبلاب تَسَلّقَتْ جداراً، كنت مختبئة بين أوراقها. أتصل الملك بالإنكشارية فوراً، وأمرهم بإلقاء القبض عليَّ فوراً...ودون أن يمسني أي ضرر.

اليوم الثالث والتسعون:

يوم المعركة

_ فطيمة...يا بعوضة...استيقظي...هيا استيقظي...

_ من يناديني؟

_ أنا حمودة.

إنه ذلك الطفل النحيل الذي جاءت به أمه لتطلب كيلوغراماً إضافياً من القمح الجديد من أجل معالجة مرض الإسهال الذي أصابه. كنت في غفوة صباحية لذيذة على شجرة اللبلاب التي أحبت أن تتسَلَّق الجدار الذي أقيم لتسهيل توزيع القمح. وأستطرد حمودة قائلاً:

_ أرسلتني أمي لأخبرك بأنّ الانكشارية يستعدون من أجل أن يصطادوك مثلما أمرهم الملك.

_ ومن هم الإنكشارية؟

_ جنود يركبون الخيول ويحملون أسلحة قوية.

وما إن أتم كلامه حتى أسرع هارباً كي لا يشاهده أحد يتكلم قرب اللبلاب. وفعلا كانوا على بعد قليل مني يمتطون خيولا صبغت باللون الأخضر وتزينها ورود حمراء ثبتت على كل أذن لها. كانوا خمسة فرسان يحمل كل منهم شبكة مثبتة على ذراع رفيع من الألمنيوم طوله يوازي طول

الرجل. كما أنّ خوذاتهم الفولاذية اللامعة كانت مزينة بالورود الحمراء مثبتة في أعلى كل واحدة منها. أما بزاتهم العسكرية فهي متعددة الألوان، تشكل في مجموعها ألوان قوس قزح (الذي يسميه الملك: قوس النصر العولمي، لأنه يجمع عدة ألوان في حزمة واحدة كما تفعل العولمة في واقع الأمر في العالم المعاصر). هذا وتوجد عدسة مكبرة ثبتت على عين من عَيْنَيّ كل فارس تمكنه أن يبصرني؛ وفي أذنه ميكروفون دقيق ينقل إليه أوامر الملك مباشرة وهو جالس على كرسي عرشه وأمامه لوحة الكترونية تنقل له صوراً للمكان ومجريات المعركة، وبجانبها مكبّر الصوت.

شرع الملك يفحص الفرسان الخمسة كلاً على حدة. هذا هو "أبو الأهوال" صاحب الوجه الذي لا يبتسم إلاّ بعد أن يصرع أحد أعدائه؛ بجانبه ابن عنترة الذي يفتخر بجده الذي عاش قبل حوالي ألفي عام. أما الثالث فهو "أبو الذبحين" الشهير لأنه بارع في ذبح الأشخاص بالسكين. الرابع هو "العوسج الشاطر" باستعمال الرمح والقتل به خاصة في التصدي للمشاغبين في مظاهرات الاحتجاج. أما الخامس فيلقب "بالقنبلة الماحقة" الخبير في إطلاق النار بالكلاشنكوف وبسرعة البرق إذا تلقى أمراً بهذا الخصوص من الملك.

وقفت الخيول الخمسة وفوق ظهورها الانكشارية الخمسة، مشكلة منظراً مثيراً للخوف في نفس من يتأمل وجوههم عن قرب. كانوا بانتظار إشارة البدء وكل منهم يحلم بالحصول على الجائزة الملكية الكبرى التي لم يعلن عنها لكنها كانت تتضمن حسب الإشاعات الرائجة في المدينة زيارة خاصة للحجرة السرية التي لا يعرف إلاّ الملك ما يوجد بداخلها.

بعد الفراغ من النشيد الانكشاري، لعلع صوت الملك في آذانهم معلناً بدء المعركة.

صاح الملك:

_ هيَّا...استعد...واحد

فرد الجميع بصوت واحد:

_ الرب واحد...يحيا الملك.

_ اثنان.

_ الرب والملك اثنان...يحيا الملك.

_ ثلاثة

_ الرب والملك والملائكة ثلاثة...يحيا الملك.

_ هجوم...

همزوا ولمزوا. تحركت الخيول محدثة جلبة عظيمة ومثيرة لسحابة من الغبار وانقضوا دفعة واحدة نحو النقطة التي كنت قابعة فيها. لكني قفزت إلى الأعلى قبل أن تصلني أية شبكة واختفيت بين أوراق اللبلاب اصطدمت الشباك ببعضها، وتراجعت الخيول بحركة دائرية وعادت إلى المكان الذي انطلقت منه.

أصيب الملك على إثر الحدث بنوبة عصبية كادت أن تفقده عقله وهو يلاحظ بأم عينيه فشل النخبة من جنوده. لعنهم جميعاً ثم أمر بأن يهجموا الواحد منهم تلو الآخر.

ها هو ابن عنترة يضغط على فكيّه حزماً وتصميماً، يلمز ويهمز وهو ينقض على البقعة التي رآها بعينه ذات العدسة. للأسف بالنسبة له، فلم

أكن في النقطة التي هوى بشبكته عليها. لمحني أحلّق، فأسرع ليضربني بالشبكة، غير أن ضرباته كانت عبثاً. ارتد الحصان إلى الخلف فجأة فكاد فارسه أن يسقط أرضاً. عَصَرَ الألم والخيبة قلبه عصراً عندما سمع صوت الملك يلعلع في أذنه قائلاً:

_ عيب عليك يا ابن عنترة...أخرق، اسم كبير لفارس مهبول. كان أطفال قد اصطفوا يتفرّجون على المعارك، يقهقهون تارة ويتغامزون تارة أخرى ويتبادلون عبارات التهكم والسخرية خاصة عندما جاء دور "العوسج" الذي كبابه جوداه فوقع على الأرض، بعد أن وَجّه ضربه قوية لشجرة اللبلاب ليكسر بها أغصانها ويقطع أوراقها. لم يكن حظ "أبو الذباحين" أفضل من حظ زميليه الذي أراد أن يتلافى أخطاء زملائه، فتبعني مهرولاً وهو يهوي بشبكته عليَّ دون أن تمسني.

أمر الملك بأن تتوقف المعركة كما أمر أن يحرق الفلم الذي صورته الكاميرا عن وقائع المعركة. انسحب الانكشارية الخمسة مذمومين مدحورين ينتظرون معاقبتهم على الأداء المخزي. والعقوبة عند الملك:

إما السجين يتبعه الموت أو الموت مباشرة بإطلاق النار كما كان حال لؤلؤ الذي نجا من الموت.

هرع الملك إلى حجرته السرية وهو في أشد سورات الغضب. لعن الانكشارية ولعن اليوم الذي وافق على تأسيس جيشهم. وما إن وصل الحجرة الميمونة حتى طلب امرأتين حالاً ليخفف من تأثير وقع الكارثة على نفسه وسمعته بين الناس. كانت المرأتان اللتان أمر أن تحضرا هما: (جان دارك) و(اليزابث تايلور). ولبت الأجهزة الالكترونية طلبه فوراً. ولما قضى

وطره سقط نائماً. استيقظ بعد حوالي الساعة وهو في حالة أسوأ من قبل. أمر أن تأتي إليه أم أبيه (جدته) وأخته لكن الجهاز لم يلب طلبه لأنهما لم تكونا مبرمجتين من بين الألف امرأة وامرأة.

اليوم الرابع والتسعون:

قالت اللبلابة:

_ أدخلتني يا فطيمة في حربك ضد الانكشارية وأنا بريئة. لا علاقة لي بالحرب ولا بالسلام. أنا نبتة ضعيفة، فلا قدرة لي على الوقوف منتصبة كباقي الأشجار. لابد لي من أن أتسلق شجرة أو جداراً لأعيش.أنا عالة على غيري...آه أنا حزينة يا فطيمة!

صحيح أن أوراقي خضراء واسعة تسر الناظرين وزهوري زاهية، لكن في الشتاء أكاد أموت برداً. تسقط أوراقي وهي صفراء كالحة، فأبقى مجرد أغصان رفيعة يابسة كأني أشرطة هاتفية بالية، لا تنقل صوتاً ولا دفئاً.

أدخلتني في حربك وأنا بريئة. اختبأت بين أغصاني وأوراقي بدون إذني. أنت التي جعلت الجنود يضربونني بالشبكة وذراعها، ويقطعون أوصالي وهم يحاولون الوصول إليك...آه! أضلاعي تؤلمني! أنظري حولك إلى أشلائي المتناثرة...هذه أوراق خضراء لامعة قطعت من أغصاني وأنا في أمس الحاجة إليها لا تَنَفّس، لأنقيّ هواء هذه المدينة المفعم بالدخان والغبار. أنظري هناك إلى تلك الوريقات كيف ذبلت وتكاد تفقد الحياة وهي ترنو إليّ، ولا تستطيع النهوض للمجيء إليّ، إلى أمها. هي تبكي حزناً... وتلك البراعم... أنظري عن يمينك... كنت أردت أن أحولها إلى زهور جميلة...

لكنها... تأملي... إنها تبكي بلا دموع... أنا أبكي بلا دموع كأمّ فقدت ابنها في الحرب. أنا جريحة...جريحة...

توقفت برهة ثم صاحت بصوت عالٍ:

_ انتبهي... ذاك الطفل تناول الشبكة التي تركها أحد الجنود يقترب...انه يريد أن يصطادك.

فعلاً شهدت طفلاً أكبر سناً من بقية رفاقه يلتقط شبكة...غافل الجميع ووجه ضربة أصابت اللبلابة لكن لم تطلني. هجم عليه رفاقه وأشبعوه ضرباً تدخلت وطلبت إليهم أن لا يمسّوه بأذى، ففعلوا. ثم وقفوا في صف واحد وراحوا يتأملوني، بحب وشغف. قال طفل صغير جداً بكل براءة:

_ أنت حلوة مثل أختي...أختي أيضاً اشترت جناحين من حانوت قرب بيتنا وتريد أن تطير كما تفعلين أنتِ.

_ وكيف ذلك؟...حمودة...حمودة هل سمعت ما قاله الطفل الصغير بجانبك؟...أتروني بعوضة أم فتاة؟

فرد حمودة بحزم:

_ أنا ورفاقي كلهم...ماعدا هذا، نراك...نحن كلنا نراك فتاة ذات جناحين صغيرة...صغيرة جداً ولكن...

_ لكن لماذا؟

_ حلوة، يعني جميلة كثيراً...كثيراً.

ضحك الأطفال من قوله، بينما رحت أتساءَل...هل فعلاً...صحيح أني أتحول...أتحول ببطء...يعني أنا مثل حواء. ياللمفاجأة! تدخلت اللبلابة التي كانت تصغي باهتمام فقالت:

_ وأنا كذلك...أراك فتاة صغيرة مثلما يراك هؤلاء الأطفال! غير أن الطفل، الذي التقط الشبكة اعترض قائلاً:

- أنت بعوضة، بعوضة، ولم أر أية فتاة...هذا كذب! عند هذه النقطة، عرفت بأنه كبير، تجاوز العشرَ سنوات من العمر فسألته عن عمره. قال:

_ أحدى عشرة سنة

قام حمودة بشرح الفروق بين الكبار والصغار للطفل الكبير الذي لاحت معالم الحزن والخيبة على وجهه فقال متسائلاً ببراءة:

_ كيف أصبح صغيراً إذاً؟

_ الصغير يصبح كبيراً لكن الكبير لا يمكن أن يصبح صغيراً...وعندما يكبر رفاقك يصبحون مثلك فلا تحزن.

وقبل أن نفترق، جاء الأطفال بالماء لتشرب اللبلابة كما جمعوا كل أغصانها وأوراقها الخضراء الملقاة على الأرض ووضعوها عند جذورها، كما طَلَبَت اللبلابة. وأخيراً...أنشدتُ مع الأطفال:

- رحل القوم لا يفقهون قولاً
- ارتد كيدهم إلى نحرهم لأنهم لا يعملون خيراً
- فلنتوجه إلى رب الناس حمداً وشكراً...

اليوم الخامس والتسعون:

على الجدار يقف عصفور صغير. كان العصفور يزقزق بطريقة خاصة يشوبها بعض الحزن والغضب. هو يلقي نظره إلى يمينه ونظرة إلى يساره ثم يزقزق زقزقة مفردة. يرفع رأسه إلى الأعلى، ينظر أمامه ثم يعاود عزف زقزقته اللطيفة. يصمت فجأة ثم يعيد الكرة.

سألته عن حاله فأجاب بصوت خفيض:

_ أنا أنادي أمي...لا أدري أين ذهبت، أخرجتني من العش بالقوة لتعلمني الطيران...لكني مازلت صغيراً..ألا ترين يا بعوضة أن جنَاحَيَّ صغيران! وضعيفان لا يحملاني بسهولة...آه يا ويلي!

_ وأين عشكما؟

_ هو بعيد من هنا...لقد تأخرت أمي كثيراً...جائع أنا جائع!.

بعد دقائق حضرت أمه تحمل طعاماً، أفرغته في منقاره. ولما فرغ من تناول وجبته اليومية قالت:

_ أنت تبكي يا صغيري...لكن لم تعد عصفوراً صغيراً...يجب أن تطير وحدك..لا داع للبكاء، يجب أن تطير وحدك وتحصل على طعامك بنفسك...هذه آخر مرة آتي لك بالطعام.

بكى العصفور الصغير وشهق، ثم قال:

_ آه يا أمي مازلت صغيراً ولا أقوى على الطيران...ولا...لا أعرف أين أجد الطعام!

_ ستَتَعَلّم بسرعة...عندما كنتُ في سنك، كنت أطير وأجد طعامي وحدي...دون مساعدة من أمي..جاء دوري لأقول شيئاً:

_ أنا البعوضة فطيمة...أنظري إلى اللبلابة قربك فقد قطعت أغصانها وسقطت أوراقها خضراء يانعة...إنها حزينة يا عصفورة...أيمكن أن تزقزقي قليلاً لها؟...هي تحب زقزقة العصافير،أليس كذلك يا لبلابه؟

_ أجل!

قالت اللبلابة وتابعت:

_ أحب أن تقف العصافير على أغصاني، فأشعر كأنها تقبلني...وكأني أقبلها

وتدخّل العصفور الصغير، وقال:

_ اصنعي يا أمي عشاً لي...هنا على اللبلابة، فأزقزق لها طوال النهار...عشاً بعيد...أريد عشاً هنا..فأنا أحب هذه اللبلابة.

وعلّق طفل لا أعرف اسمه:

_ في بيتنا شجرة لبلابه عليها خمسة أعشاش عصافير ابتسمت العصفورة الأم وقالت تخاطب صغيرها:

_ سأبني عشاً لك يا ولدي هنا...على شرط!!

فقال ولدها متعجباً من قول أمه:

_ وما هو الشرط يا أمي؟

_ أن تجمع معي القش اللازم لصنع العش

قالت هذا وحلقت بسرعة بينما كان العصفور الصغير يردد لنفسه بيأس:

_ جمع القش صعب عليَّ!...آه يا ويلي! صعب جداً فرد الأطفال جميعاً بصوت واحد:

_ كلنا سنساعدك يا عصفورنا الصغير...

وقلت:

_ وأنا كذلك!...لا تقلق!

قفز العصفور الصغير نحو اللبلابة وراح يتناول القش واحدة تلو الأخرى من الأطفال الذين انهمكوا جميعاً في البحث عن القشات وإحضارها للعصفور الصغير، الذي راح يتناولها بمنقاره الواحد تلو الأخرى ثم يرتبها بجانب بعضها. وما هي إلاَّ دقائق حتى تَشَكّل عش صغير وأنيق داخل ما تبقى من أغصان وأوراق على اللبلابة.

وأخيراً عادت الأم _العصفورة تحمل ثلاث قشات طوال بمنقارها. وما إن وقع نظرها على اعش الذي بناه ولدها بمساعدة الأطفال، حتى فتحت عينيها ومنقارها دهشة. سقطت القشات أرضاً. صَفَّق الأطفال فرحين زقزق العصفور الصغير فرحاً. اهتزت اللبلابة بمرح بالغ. ثم ترنم الجميع بلحن خاص مبتهجين.

اليوم السادس التّسعون:

جاءت أم حمود ومعها جارتان لها لتأخذ ابنها إلى منزل الأسرة في القرية. ومرة أخرى شكرنني من أجل القمح الجيد الذي حصلن عليه، ثم دعونني إلى زيارتهن. قالت أم حمود:

تفضلي زوريني يا فطيمة...اقسم بالرب بأنك أطيب مخلوق عرفته في حياتي. فليحمك الله من الأشرار الذي ينتظرون الفرصة المناسبة للانقضاض عليك...ليس لدي أسئلة محرجة لأطرحها عليك...أنا احترمك

ولا أخاف منك...لكن خذي حذرك...إذا عرف الملك أنك تكلمت معنا وأن علاقتنا حسنة معك فسوف يسجننا جميعاً حتى يحظى بك...وإذا لم يقدر على إلقاء القبض عليك فسوف يقتلنا جميعاً.

توقفت برهة عن الكلام. بلعت ريقها وأردفت:

_ زوجي يعمل في ورشة لشق طريق جديد في المملكة ولا يحضر إلى المنزل إلاّ مرة واحدة في الشهر. فمرحباً بك في بيتي في كل وقت.

أما رفيقتها، التي فقدت اثنين من أسنانها، وصبغت شعرها الأشيب بالحناء فقالت بلغة محبطة:

_ في الحقيقة جئت لأتعرّف إليك...عندي سؤال أريد أن أطرحه حول ابني هشام...أنظري هناك إليه...هناك...هو لا يطيعني...عنيد..ويفعل دوماً ما يدور قي رأسه. العجيب يا أختي أنه عكس أخويه الآخرين فليس عندي أية مشكلة معهما. ساعديني من فضلك...وأشكرك سلفاً.

أما المرأة الثالثة فقد أشارت إلى طفل آخر وقالت:

_ هو مشاغب..أنظري إلى شاهين وإلى النحلة بين أصابعه هو يهرب من المدرسة إلى الغابة القريبة من المدرسة ليصطاد حشرات طائرة كالجراد والنحل وغيرها...ثم يأتي بها إلى غرفة الدرس ويطلق سراحها هناك. يغضب المعلم منه..فإذا ضربه بعصاه يضحك ويضحك رفاقه معه..أنظري إليه يبدو مؤدباً مثل قطة مؤدبة..لكن أدير ظهري حتى يتقمص شخصية أخرى...فماذا أفعل؟ صدقيني أنا محتارة في أمره!!...

وعقبت أم محمود على ما قالت النسوة قائلة:

_ أما أنا فليس لديّ مشكلة مع حمود...إلا أنه يحب الحكايات التي تعلمتها من أمي...فمن أين آتي بحكايات أخرى! أليس كذلك يا حمود؟

كان حمود طوال الوقت يترجم ما أقوله. أما الآن فقد ابتسم وأمه "ابتسامة _ البراءة الطفولية التي حولتني إلى كائن آخر. بلمح البصر تحولت إلى ما كنت عليه سابقا، عندما كنت في الجنة...أنا الآن في الجنة...أنا الفتاة ذات الجناحين الذهبيين حلَّقت فوق المكان، فامتلأ الفضاء بالأنغام. كنت في غيبوبة...ولا أتذكر ما حدث. ذُهل الجميع، وبناء على طلبي شكل (النساء والأطفال) صفاً واحدًا وكنت في المقدمة نهرول تارة ونركض تارة أخرى، في طريقنا إلى القرية، عبر شجيرات الصبّار والعوسج وبقايا عشب جَفَّ بسبب نقص المطر هذا العام.

اليوم السابع والتسعون:

يوم يغني طفل بنفسه عن نفسه

يا ماما، يا حبيبه

أنا بحبك كثير كثير

وبعرف انك بتحبيني

لي عندك طلب صغير

عندما أقعد بحضنك

ضميني لصدرك

وغني لي غنّاية

واتبعها بحكاية

أولها كان يا ماكان

وآخرها بوسه من عَينّي

* * *

عن السندباد أحكي لي

وين سافر، شو عمل أشرحيلي

أنا بحب السندباد:

رحلاتي ومغامراته

بدي صير سندباد

مع أني صغير كثير

لكن عما أكبر، عما صير

أصبري عليَّ شوية

* * *

يا ماما، يا حبيبة

لما بستلقي جنبك

وبحلم حلمي البعيد

بشوف حالي مهندس

عما أبني جسر جديد

بيربط بين شعبين

حتى يعيشوا فرحين

صحيح أنا صغير كثير

لكن عما أكبر عما صير

أصبري عليّ شويه

*   *   *

يا ماما، يا حبيبة

لا تزعلى إذا غلطت

وسامحيني إذا نسيت

ساعديني لفكِّر

سعديني لعبِّر

بسّطي لي أفكارك

ولا تكثري من التفصيل

صحيح أنا صغير

لكن عما أكبر عما صير

أصبري عليّ شويه

*   *   *

يا ماما، يا حبيبة

لمّن تلاقيني معنّد

ما باكل، ما بشرب

ما بحكي، ما بعمل

لا تزعلي من فعلي

لحالي أتركيني

أنا مازلت صغير

لكن عما أكبر عما صير

أصبري عليّ شويه

*   *   *

يا ماما، يا حبيبة

إذا خالفت أمرك

باللطف نهيني

فهميني وين غلطت

ابتسمي لي، أضحكي لي

هكذا أنا بتعلم

هكذا أنا بتهذب

أنا مازلت صغير

لكن عما أكبر عما صير

أصبري عليّ شويه

*   *   *

يا ماما، يا حبيبة

علمني، أشرحي لي

كيف ربنا خلقنا

وكيف حَوَّاء ولدتنا

وكيف كبرنا وصرنا

حتى تعيش البشرية

أنا مزلت صغير

لكن عما أكبر عما صير

اليوم الثامن والتسعون:

كنا نغني ونحن نسير فرحين. يتعلم الأطفال من الأغنيات التي يغنون. وأم حمود وأنا بمعية الأطفال في طريقنا إلى بيتها في القرية.

فجأة...صرخة من حولنا:

_ خبئوني، خبئوني...هو يريد أن يذبحني، هو يريد أن يذبحني...

كانت تلك صرخة استغاثة من خروف أبيض صغير كان يركض نحونا بأقصى سرعته. اندس بين الأطفال فاختفى عن الأنظار. كان رجل ضخم الجثة ذو شاربين سوداوين يشهر سكيناً، يطارده. سأل الرجل والغضب يقطر من سحنته وكلماته:

_ هل رأيتم خروفاً؟...أين أنت أيها الخبيث؟

لم ينبس أحد. حدقوا في وجهه. ارتجفت أوصالهم هلعاً، وهم يتأملون السكين اللامع في يده. أراد بعضهم أن يهرب لكن إشارة أم حمود سمرتهم في أمكنتهم. تقدمت من الرجل بكل شجاعة، غير عابئة بسلاحه. سألته بهدوء:

_ ماذا جرى يا رجل؟ لم تحمل هذه السكين الفظيعة؟ هل أنت قاتل؟

_ لا أنا لست قاتلاً، أنا صاحب الخروف يا امرأة، وهو هرب مني، لكني أعلم أنه مختبئ بينكم

_ ولم تحمل هذه السكين؟

_ أريد أن أذبحه!

_ ولماذا تريد أن تذبحه؟ هل آذاك؟

صمت برهة، كأنه لم يتوقع مثل هذا السؤال، ثم قال:

_ لا...لم يؤذني...كل ما في الأمر أن زوجتي وضعت طفلاً ذكراً بعدما أنجبت بنات خمس، لذا نريد أن نحتفل بهذه المناسبة السعيدة، بأن نأكل لحماً...لذا أرجوك يا امرأة، ابتعدي عن طريقي، فأنا أعرف أن خروفي وراء ظهوركم..ابتعدي

فقالت أم حمود:

_ ألا تريد أن تسمع رأيه؟

_ رأي من؟

_ رأي الخروف.

ضحك ساخراً من قولها وأعقب:

_ اتسخرين مني؟...لا يوجد خروف ينطق أبداً أبداً

_ لا بل يوجد...حَمّود، يا بني اخبرنا ماذا قال لك الخروف؟

ابتسم حَمّود تلك الابتسامة البريئة التي أحببتها وقال:

_ قال الخروف لي:

- لا تذبحني، لا تأكلني
- صديقاً لأبنك اجعلني
- امشي خلفه لأسابقه
- آكل مما ترمونه
- خبز يابس، وقشر فواكه

- لا ترموها، لا ترموها..
- لا توسخوا الأرض بها
- أنا أحبها، أنا آكلها
- يا صاحبي،أنا أحبها، أنا آكلها
- يا صاحبي، يا صاحبي
- لا تذبحني، لا تأكلني
- أرجوك يا صاحبي
- من الذبح أعفني
- صديقاً لأبنك اجعلني

صَفّق الأطفال مبتهجين، بينما فغر الرجل فاه، غير مصدق ما سمعته أذناه، فسقطت السكين من يده

قالت أم حمود:

_ يصبح لديك ولدان يا رجل...قل لي بهذه المناسبة، ماذا سميت ابنك؟

_ لطيف!

_ وأنا أسمّي هذا الخروف ظريف...

التفتت نحو الوراء وخاطَبت الخروف...

_ هيا أخرج الآن...يا ظريف، أتحب هذا الاسم؟

أومأ الخروف برأسه وهو يبرز من بين الصفوف، ثم رقص وقفز، ابتسم وضحك. قال الرجل:

_ أجل...عفوت عنك،...عفوت عنك.

*   *   *

بعد هذا...

جاءت زوجة الرجل حاملة طفلها الرضيع في قماط. قالت تخاطب زوجها:

_ لقد تأخرت!...ألم تذبح الخروف بعد؟ ماذا يحدث هنا؟

فأجابها بلغة الواثق من القرار الذي اتخذه:

_ لا لن أذبحه، لقد أصبح صديقاً لولدنا...ولنا كذلك..ثم التفت نحو حمود وطلب منه أن يعيد "أغنية الخروف" التي سبق ذكرها...وبصوت عال.

أجل! شارك كل الأطفال في الأغنية. وكانوا يرفعون أصواتهم عندما وصلوا إلى:"لا تذبحني، لا تأكلني... صديقاً لأبنك اجعلني"... أغنية مؤثرة، اغرورقت لها عينا الأم. فرفعت طفلها إلى الأعلى ليرى وجهه كل الأطفال، كان وجهاً كللته ابتسامة غامضة تشبه ابتسامة حبيبي "لؤلؤ"، ابتسامة لا تعبر إلاّ عن القليل القليل عما في روح ذلك الطفل من أسرار وعمق لا يفقهها إلاّ خالق هذا الطفل.

اليوم التاسع والتسعون:

اقتربت مني طفلة، عندما وصلنا مشارف القرية. كانت طفلة صغيرة، فطنة تتكلم كأنها نضجت بالأمس فأصبحت سيدة محترمة، هي ملكة جمال الجسد الصغير، وملكة جمال الروح الكبير. قالت:

_ يا سيدة، يا بعوضة...أنا أريد أن أصبح مثلك...لماذا أنت لك أجنحة وأنا ما عندي،...ولا أقدر أعمل موسيقى هكذا مثلك....هكذا...تر لالالالا...؟

اقترب مني طفل آخر مباشرة بعدها، كأنه كان يلاحظها عن بعد، والغيرة تنهش قلبه...قال بأنه يريد مني مثلما قالت "وداد"...وعندما سألته إن كان يعرف ما قالت وداد، قال:

_ أنا أعرف...أنا أعرف...كلنا نريد أجنحة حتى نطير مثل البعوضة والعصفور...والنحلة كذلك..

تَوَقَّف فجأة، بلع ريقه، نظر في وجهي، تلعثم قائلاً:

_ من هو أبوك؟ ما عندك أم وأب؟

ابتعدت عنه. حَلّقت على علو منخفض وقلت أخاطب كل الأطفال:

_ لكل طفل أم...لكل طفل أب...أما أنا فما عندي أم...ما عندي أب...ما عندي إلاّ حب...أنا أحبكم جميعاً، وأنا دوماً في حب.

اني أبحث عن حبيب فقدته، على الأرض ضيعّته آه...يا ويلي! يا ويلي!

ثم سألت:

_ هل فهمتم معنى ما قلت؟

قال البعض "نعم" وقال البعض "لا". فَقُلت:

_ من فهم منكم فليحاول أن يُفَهّم من لم يفهم...هيا نغني معاً

فصاحوا بصوت واحد:

_ يا ماما غنِّ لي غناية

وأتبعها بحكاية

قلت:

_ لا...هذه المرة نغني: يا بابا...

اعترض عليّ طفل من بعيد:

_ صحيح يا صديقة...أنا أحب أبي أكثر من أمي...

قلت: هيا...

يا بابا غن لي غناية

واتبعها بحكاية

حكاية عن بعوضة

عما تبحث عن حبيبها

عما تبحث عن حبيبها

وين أنت يا آدم؟

وين أنت يا حواء؟

وين أنت يا لؤلؤ؟

* *

أنا هون...أنا هون

عما أبحث...عما أبحث

طول الدهر...كل الكون

مثل القمر... عما دور عما دور

ساعة بكمل، ساعة بنقص

ساعة بموت، ساعة بحيا

عما أبحث... عما أبحث

عماّ دور ... عماّ دور

* * *

يا بابا....يا حبيبي

غن لي غناية،

واتبعها بحكاية

أنا بحب الحشرات

وكل الطيور بتحبني

والمعلم هادا ما بيعجبوه

معه عصاً طويلة

بيها والله بيضربني

بآلمني بوجعني

يا بابا...يا حبيبي

من الدرس أنا بهرب

حتى ألعب بالغابة

بدي أتعلم لحالي

بدي فكر لوحدي

بدي جرّب بايدي

بدي أصنع طريقي

بدي أكبر...بدي صير

أصبروا عليّ شويه

* * *

يا بابا يا حبيبي

اشرح كيف يسقط المطر

وكيف يهب الزمهرير

ولا تنسى تعلمني

كيف السمكة بتسبح

وكيف الدودة بتعمل حرير

علمني أصنع طيارة

علمني أصنع سيارة

علمني أعزف قيثارة

حتى طير...حتى طير

* * *

يا بابا يا حبيبي

علمني عيش بسلام

علمني لكون لطيف

وما أقسو على الضعيف

وكيف أصل الأرحام

وكيف أعطف على الأيتام

وأعفو عمّن يؤذيني

* * *

صلوا معي يا أطفال!

صلوا معي يا أطفال!

حتى نبعد عنا الحرب

حتى نزرع زهور الحب

بدنا نعيش بسلام

في كل أرض الإنسان

نحن وكل البشرية

نحن وكل البشرية

اليوم المائة:

قالت أم حمود أنها تريد مني خدمة صغيرة. ولما سألتها ما هي؟ قالت:

_ زوجي يشتغل منذ سنتين في ورشة تعمل من أجل فتح طريق جديد في المملكة، بعيداً من هنا... يغيب عن البيت مدة شهراً أو أكثر، كما أظن أن له عشيقة... هل من المعقول أن يبقى بعيداً عني بدون امرأة! هل ينام وحده في فراشه في الورشة كما أنام أنا وحدي هنا في فراشي؟ لا... لا هذا غير ممكن... يقول أنه يحبني وأنا أصدقه أحياناً ولا أصدقه أحياناً... فمن الصعب أن تثق المرأة في كلام الرجل خاصة عندما يتكلم عن الحب.

_ وما المطلوب مني يا أم حمود؟

_ أريدك أن تساعديني على كشف حقيقة ما في قلب زوجي وما في رأسه. بماذا يفكر؟ بماذا يحلم؟ أريد أن أعرف كل شيء يخفيه عني... وأنا متأكدة أن لك قدرة عظيمة لا يملك مثيلاً لها انس ولا جان.

_ سأحاول، متى يحضر، أقصد هل يحضر إلى هنا عما قريب؟

_ غداً!!

_ وأنا عندي مشكلة... أنا أحب "لؤلؤ" الشاب الذي أنقذته من الموت على يد عسكر الملك. لا أعرف أين هو؟ فهل يمكن أن تساعديني؟

_ سمعت، لكن ليس أكيداً، أنه يعيش عند قبيلة في الصحراء... قبيلة بدوية... سأسأل لك... بدون شك.

سمعت أيضاً أن الملك عفا عنه.

_ أكيد.

_ آه، أخشى أن يعرف أنك هنا عندي... لو عرف فسوف يقيم الدنيا ويقعدها، كما يقال... لكن سأحميك منه... ثقي بي يا فطيمة!

كُنا جالستين نستريح مساءً، بعد عناء المشوار وما حدث اليوم...على حصيرة من القش عند باب مسكن أم حمودة. هو عبارة عن غرفتين: إحداهما للنوم، والأخرى للجلوس والطبخ واستقبال الضيوف. وكان حمود يصغي إلى حديثنا ويترجم أقوالي لأمّه. فطلبت أمه إليه أن لا يخبر أباه أو أي شخص آخر بما سمع. طلع القمر فأضاء بنوره الطريق الترابي، وأشجار الصبار والعوسج...والقرية ومساكنها.

سألتني إن كنت أريد أن أشرب القهوة معها، فأجبتها بالنفي. ولما عادت تحمل فنجاناً لها وآخر لابنها، قالت:

_ يسمونك فطيمة هنا في القرية والمدينة أيضاً. هل هذا اسمك الأصلي؟

قلت:

_ اسمي مريم!

فغطت الدهشة محياها وقالت:

_ مريم! هو اسم أم النبي عيسى عليه السلام...آه! لو عرف الناس أن اسمك الحقيقي مريم، فسوف يعبدونك، معتبرين أن الرب أرسلك لإنقاذ العالم لذا الأفضل أن تبقي اسمك "فطيمة"، وهو مصغر فاطمة وهي ابنة النبي محمد عليه السلام.

_ وأنت ما اسمك؟ أم حمود ليس اسمك، أليس كذلك؟

_ شهرزاد.

ثم أخبرتني أن أمها سمتها "شهرزاد" لأنها أرادت أن تتعلم من ألأم حكايات كثيرة مثل شهرزاد ألف ليلة وليلة التي أراد "شهريار" أن يقتلها، كما قتل المئات من الفتيات قبلها، لكنه فضّل أن يستمع إلى حكاياتها الجميلة لمدة ألف يوم ويوم.

ترامى إلى سمعي أصوات نحيب وبكاء...مكبوتة...وغريبة.

قلت وأنا أحاول التأكد مما سمعت:

_ شهرزاد...هل يوجد أحد هنا؟ إني أسمع صوتاً غريباً ثمة من يبكي...هنا عن قرب؟

فقالت فزعة:

_ بكاء ونحيب!! هنا؟ هنا؟

_ نعم!

_ أرجو أن لا يكون...أقصد...أن الملك أرسل أحداً

_ تعالي معي!

حملت فانوساً صغيراً وسرنا معاً في اتجاه مصدر الأصوات كانت هناك كومة من الحطب وأوراق الأشجار بجانب الكوخ. قُلتُ:

_ هنا...الصوت من تحت هذا الكوم...هيا نبحث وتعاونت الأم وابنها في البحث...ولما نقلوا الكومة إلى مكان آخر، تبين أن ثمة غصن صنوبر أخضر يبكي.

_ آه يا أمي...أين أنت؟ يا ويلي لماذا قطعتموني؟ لماذا؟ أنا غصن أخضر مازلت شاباً

قلت لأم حمود وابنها:

_ هذا...الغصن الأخضر يريد الرجوع إلى أمه...هو حي، هو الذي يبكي لأنه قطع من أمه صنوبرة ما...

حملناه معاً إلى شجرة الصنوبر القريبة. تسلق حمود الجذع، وبحث عن مكان الغصن...ولما لصق الغصن عليه، ابتسمت الشجرة، وكف الغصن عن البكاء.

قالت الشجرة:

_ شكراً...لقد أرجعتم لي أحد أغصاني

رأينا ضحكتها على شكل ومضات زرقاء حفيفه، تسطع من براعمها وزهورها. فغنينا معاً:

يا ماما يا حبيبة

أحكي لي حكاية

وأتبعها بغناية

حكاية الغصن الأخضر

الذي قطعوه من الصنوبرة

كان يتألم، كان يبكي

مثل طفل فقد أمه

عندما أرجعناه لأمّه

فرحت ونحن فرحنا معها...

فقضينا الليل مسرورين

مسرورين...مسرورين.

اليوم الواحد بعد المائة

قال الطفل حمودة:

وأنا كذلك مثل أمي، أريد منك خدمة صغيرة أيضا

قلت وأنا أتأمل عينيه البنيتين الجميلتين و شعره الخرنوبي المجعد، وتلك البراءة التي ترتسم على محياه عندما يبتسم

خيرا اعرف أنك تعبت من الترجمة...شكرا جزيلا

قال و هو يفرك عينيه مترددا:

- أريدك ... أريدك ...طيب...أريدك أن تكوني صديقتي

- أنت صديقتي بدون شك

يظن الكبار أني صغير...بل أنا كبير مثلهم، و أفكر مثلما يفكرون...إيه لكنهم أكبر جسما مني !

ثم أدار ظهره لي ليتجنب رؤية انعكاس ما يريد قوله في وجهي، و قال:

- فطيمة أريد أن تصبحي زوجتي..

أدهشني طلبه لكي ابتسمت ثم قهقهت فغضب. استدار نحوي و بغضب واضح مشوب بالرغبة في البكاء:

- أتضحكين؟

- أتعرف ! ... بعد سنة لن تستطيع فهم لغتي، لأن عمرك سيكون عشر سنوات !

كنت أريد التخلص من هذا الحديث اللزج لكنه فاجأني:

- ستلدين ابنا أو إبنة تقوم بالترجمة !

- عدة مرة أخرى لتفرس وجهه و اردفت:

- جواب ذكي ... لكن تعرف أني أحب شابا إسمه لؤلؤ

تأمل وجهي مليا. تظاهر بالعبث بعنكبوت صغير كان على الجدار. قال:

- هل هو يحبك حقا؟

- سأكتشف ذلك حقا، تماما مثلما سأكتشف إن كان لأبيك عشيقة، و قد سمعت أمس حديثي مع أمك.

لم ينبس، إنما نظر إلي بعينين فيهما كثيرا من التحدي. قال بهدوء:

- أريد قبلة...

- لا بأس خدها كما تشاء

و بدلا من أن يتقدم نحوي تلعثم، ثم قال:

-أنا أعرف ما يفعله الزوجان في الفراش معا، فقد شاهدت ما يفعل أبي ...و أمي... تضطجع على ظهرها و أبي...

- قف! ...قف كفى لا أريد أن أسمع المزيد من هذا الحديث... ما هذا يا حمودة! أتتجسس على أبيك و أمك...؟

- مثلما هما يتجسسان علي

برهة صمت مطبق، قال بعدها:

- لا تغضبي مني من فضلك... في الحقيقة شاهدت ما يفعله الزوجان على الأنترنت، و هو ممنوع على الذين أعمارهم أقل من 18 سنة... هذا سخيف...صغير، يقولون لي...بل أنا كبير على كل حال...على كل حال...فطيمة...أقصد مريم أريد أن أذهب إلى الجنة... سمعت أنك كنت في الجنة، فإذا رجعت إلى هناك خذيني معك...يعني، أقصد أن أقول حسبما سمعت أنها ملأى بالفتيات الجميلات سأجد لنفسي عروسا هناك، لا بأس ... أكثر...أنا أحبك، أحبك، أحبك يا مريم و الآن ما رأيك، أن تغني لي غناية و تحكي لي حكاية؟

قلت ومشاعر الدهشة و العجب تسيطر على حواسي:

- ليس الآن ... ليس الآن، أريد أن أفكر، أتركني لوحدي.

خرج، أغلق الباب وراءه، ثم عاد، أطل من شق الباب و قال:

- ألم تشاهدي حواء و آدم يفعلان كما فعل أبي و أمي؟

- خبيث!

أغلق الباب ثم توارى. قلت في نفسي أمعقول أن طفلا في عمره تسع سنوات يتكلم هذا...لا...لا إنه طفل في عمره تسع و عشرون سنة!

غرقت في خضم أفكاري و تأملاتي. ثم داهمني النعاس. و لم أفق حتى سمعت صوت أم حمودة تناديني:

- لقد حضر أبو حمودة...

اليوم الثاني بعد المائة

قلت لنفسي وأنا أراقب أبو حمودة: مستحيل أن يكون لهذا الرجل امرأة ثانية غير زوجته. فمن أين له القوة لمعاشرة امرأتين؟ لا بد أن أم حمودة واهمة، غيرتها تنهش فؤادها الرقيق .

أبو حمودة رجل كهل، قصير القامة، هزيل الجسد، شديد السمرة، يزين وجهه شاربان سوداوان رفيعان و حاجبان غليظان... يكاد شارباه أن يغرقا في منخريه الواسعين...و عيناه رماديتان، ضيقتان، ترف أجفانهما باستمرار، هو قصير الذراعين و يداه ضخمتان، و قد تصلب و تشقق جلدهما جراء تكسير الحجارة و الصخور بالفأس و المطرقة... في إطار عمله اليومي في شق طرق المدينة.

مستحيل يا أم حمودة، لرجل بهذا الشكل والقوام... فمن أين له القوة يا أختي؟

أما عمامته فيغطيها الغبار وكذا جبينه و أنفه، إذا مشي عرج، و إذا تكلم اختلطت الكلمات بغنة خاصة به، و إذا ضحك تبرز أسنانه المنخورة التي سودها دخان السجائر.

أما أنت!... آه مستحيل...آه يا صديقتي ما ألطفك! و ما أخف روحك!... و وجهك الصبوح الذي يجذب قلبي و يريح أعصابي ... هو دوما ينبض بحيوية رغم ... آه رغم ماذا؟ آه إنها القدرة العلوية التي تمكنك من أن تحتفظي بجمالك و رونقك...رغم الفقر المدقع...

ماذا تريدين أن تعرفي! امن المعقول ان يكون في رأس مثل رأس زوجك ارمأة أخرى غيرك! و أنت ليس لديك شوربة العدس و البصل و تقدميها لزوجك الذي أنهكه التعب... اعترضت أم حمودة على قولي:

- أنت لا تعرفين الرجال يا...

- أعرف لؤلؤ، حبيبي

-أجل! أعرف هذا...لكنك لم تعاشريه بعد، و لم تتزوجا و أنت على حالك هذا...دعيني أخبرك أن الرجال يفكرون بالجنس قبل أن يملأوا بطونهم... و لا صحة أن الطريق إلى قلب الرجل معدته...لقد كان أبو حمودة ذات مرة يتضور جوعا لكنه أصر على أن يضاجعني أولا ثم يأكل بعد ذلك...أي قبل أن يتناول طعام غذائه... و التقاليد في هذه المدينة... التقاليد و القانون تسمح أن يتزوج الرجل بعدة نساء في وقت واحد اما المرأة فلا يسمح لها ألا بزوج يعني رجل واحد...ألا ترين معي أن هذا إجحاف بحق المرأة! إذا سمع أحد الرجال ما أقوله الآن لك، شتمني أو ضربني...توقفت برهة ثم:

-لقد ذهبت إلى بعض عرافات المدينة و بعد أن قامت بحرق البخور و التكلم مع الجان قالت أن في حياة أبو حمودة امرأة ثانية و هي تعمل اللازم لتطليقه كي تتزوج به ... فهي لا تريد أن تكون و إياك...يعني أنا ...زوجتين في وقت واحد... أنا لا أنام الليل و قد فشلت كل جهودي في التعرف عليها...أبو حمودة يلوذ بالصمت كلما تكلمنا عن النساء... و أنا ..أما أنا فلا أريد غير زوجي، أبو حمودة، فقط هو ... و أظن أنه لا يوجد في الدنيا أحد يستطيع أن يعرف ما يدور في ذهن زوجي إلا أنت يا صديقتي مريم.

و أخيرا...هذا أبو حمودة أمامي...

آكل وشرب ثم استلقى ونام...شخر وشخر ثم بدأت الأحلام...

تسللت إلى فراشه، تأملت وجهه و جنتيه، و عنقه و أدنيه، لفحتني أنفاسه الحارة، و خشيت أن تجذبني إلى داخل أحد منخريه... إن وجهه و هو نائم يشبه وجه في السرك ارتدى قناعا من الجص ... توقفت عند إحدى أذنيه، و تسألت من أين أبدأ؟

و ساورني ريب أن رأسه أشبه بكهف مظلم فيه عناكب و حشرات...و أشياء أخرى... وددت أن أهرب ...لكن صديقتي ساعدتني على البقاء قيد الحياة... و الصديق صديق في وقت الضيق كما علمتني تجاربي في هذه المدينة الغريبة و أنا فيها غريبة أيضا.

اليوم الثالث بعد المائة

هبطت على جبين أبو حمودة. تحركت نحو حاجبيه. وبخفة ولطف غرست إبرتي بين عينيه، فرأيت ما يجري في رأسه المفلطح و هو نائم.

كان أبو حمودة في ثوب حريري فخم، جالسا على أريكه ذهبية براقة، تطفو على سطح بحيرة جميلة تحيط بها شجيرات ورد وياسمين ودفلة. كانت تطفو على سطحها أطباق ملاى من الأطعمة الشهية والحلوى والفواكه التي لم يذقها في حياته: دجاج مشوي، ملوخية، أرز، محشي بورق العنب، كباب، كبة... بقلاوة، زلابية، كنافة بالقشطة والفستق... موز، تفاح كمثري، برتقال، أناناس و غيرها...

أطباق وأطباق تحركها الأمواج، تقترب من أبو حمودة تارة وتبتعد تارة أخرى. هو كان يحاول جاهدا أن تصل يداه إلى أحدها لكن موجة تضربه فيبتعد، بينما يقترب طبق آخر، و هكذا دواليك.

كانت هناك أصوات رخيمة تناديه و موسيقى تأتي من الفضاء...أبو حمودة، أنا دجاجة مشوية تقول كلني...أبو حمودة... أنا الكباب ...لا تنسني... أنا البقلاوة أحب أن أنام الليلة في بطنك... وأنا الموز والبرتقال.. تتركنا وحدنا... عيب عليك... عيب...

كان المسكين في صراع مرير مع الأطباق الشهية التي ما فتئت تقترب وتبتعد دون توقف. وباءت كل محاولاته بالفشل للوصول إلى أحدها... اختل توازنه فجأة فسقط في الماء. حرك يديه و رجليه كي لا يغرق، لكن أشباحا غير منظورة دفعت برأسه إلى ما تحت الماء، فكاد أن يختنق.

صرخ، ثم نهض كالمجنون ونادى زوجته التي كانت نائمة إلى جانب إبنها في المطبخ.

قالت تسأله:

- ماذا حدث يا زوجي؟ خير...خير إن شاء الله

فأجابها بصوت مذعور:

- آه كابوس يا أم حمودة...كابوس...إلى ببعض الماء أكاد أختنق.

ثم أخبرها عما رآه في حلمه فضحكت وقالت:

- إنها ذكريات أنشودة تعلمتها من أمك وأنت صغير، وأنا حفظتها لكثرة ما رددتها في الحكايات...

- أية أنشودة...آه...نسيت تماما.

فقالت له بمزيج من الضحك والسخرية:

- اسمع ...سأعيدها على مسامعك...إنها أنشودة لذيذة ... وقد نقلها حمودة أيضا

يا الله يا مجيب

ارزقنا أكلة المغربية

لتشبعنا، نحن القوم الجواعة

اللهم أرض عن عبدك

أرفع عنه كل بلية

اجعل سجانه من يبرقحبسه كبه بصينية...

طمست طمسة بالعسل

والسمن غطاني

سلطان الخبز من خلفي لقدامي

خاروف محشي نطحني شلع أسناني

جيت شديته من دانه

سال علي الدهن غطاني

نهض حمودة من فراشه والتحق بأمه وأبيه. كان الليل قد مضى نصفه. ضحكنا جميعا... بينما كان أبو حمودة في أعماقه يستشيط غيظا وخجلا.

اليوم الرابع بعد المائة

قلت لأم حمودة:

- زوجك مسكين كل أحلامه تدور حول الطعام الذي حرمه الفقر منه، و ليس للمرأة غيرك دور في حياته.

فرددت بنبرة نزقة:

-هذا صحيح فنحن لا نأكل إلا شوربة العدس و الحمص و بعض الخضار، أما اللحم فقليل جدا. يعني من الطبيعي أن يحلم بالأطعمة اللفاخرة التي لم يدقها في حياته... لكن هذا لا يعني أنه لا توجد امرأة أخرى...كل ما أخشى أن يحضر من العمل ذات يوم بصحبة امرأة ثم يقولي لي: هذه زوجتي الثانية شرعا فإما أن تقبلي و إما أن ترحلي غلى أهلك... هنا الناس يقولون أن الزوج الذي خدعته زوجته هو آخر من يعلم بذلك، لكن في حالتي أخشى أن أكون آخر امرأة تعلم بأن لزوجها امرأة أخرى... حاولي مرة أخرى أرجوك..

ألقيت نظرة خاطفة على وجهها الذي حمل مسحة من القلق زادته جمالا، و قلت في نفسي إني أحبك يا صديقتي ثم رفعت صوتي وقلت:

- سأحاول مرة أخرى الليلة...

عندما شخر في نومه، اقتربت من عينيه وكالعادة غرست إبرتي وانتظرت لحظات... و هذا ما رأيت:

كان أبو حمودة في موقع عمله في محجرة الملك وقد أنهكه التعب فجلس راكنا ظهره إلى الصخرة. أغلق عينيه ودعا ربه أن يمد له العون في عمله الشاق... ثم فتح عينيه ليجد رجلا آليا (روبوت) أمامه قال الرجل الآلي:

- "أنا في خدمتك مرني بأي شيء لأنجزه في الحال واسمي مطيع أي أني لا أخالف أي أمر يصدر ألي"

قال أبو حمودة:

- "خد الفأس وكسر هذه الأحجار والصخور، فقد أنهكني التعب، وإذا لم أفعل ما هو مطلوب مني، فلن أتقاضى أجري... الذي أحتاجه لإعالة أسرتي"

- "على الرحب و السعة ...أنا تحت أمرك"

تناول (روبوت) مطيع الفأس و شرع في تكسير الصخور و الحجارة، بينما جلس أبو حمودة على وسادة حريرية يدخن باسما، و فرحا بما أكرمه ربه. و بعد أن أنجز (روبوت) المطلوب، ألقى الفأس جانبا و اقترب من أبو حمودة قائلا:

- "لقد أنجزت لك ما طلبته و عليك أن تدفع أجري حالا "

دهش أبو حمودة مما سمع وقال:

- "لقد أرسلك الرب لتخدمني والرب لا يتقاضى أجرا على ما يقدمه لعباده".

- "لكني بحاجة إلى الطاقة حتى لا أموت. فنحن معشر (روبوت) إذا لم نحصل على الطاقة الضرورية للحياة نموت !!

- "يعني ما تريد بالضبط؟"

- "أريد أن أنام وإياك في فراش واحد"

- كيف هذا؟ أنا لا أفقه شيئا"

- "إذا نمت معك على فراش واحد أحصل على الطاقة اللازمة لي للبقاء على قيد الحياة"

فكر أبو حمودة مليا و قد أذهلته المفاجأة:

- هل أنت ذكر أم أنثى؟

- "أنا ذكر بكل معنى الكلمة..

امتعض أبو حمودة، واصفر وجهه مما سمع واهتز جسمه خوفا واشمئزازا

- "لكني لا أحب و لا أرغب... بل أكره كرها شديدا أن يشاركني ذكر فراشي ..لا..لا أبدا...أبدا.

فقال (الروبوت) بعطف و هدوء:

- "سيدي لقد خدمتك بإخلاص فلا تجعلني أموت جوعا ... أتقبل أن أموت.. الحياة من حق كل كائن حي حتى و لو كان (روبوتا)"

- "لكني...لكني... صدقا لا أحب الذكور فهذا عمل حرمه الرب.

وقبل أن يتم أبو حمودة كلامه، تقدم (الروبوت) نحوه فجرت معركة غير متكافئة، عراه الروبوت من ثيابه وألقى به على الفراش ثم ألقى بنفسه فوقه. صرخ في نومه ثم نهض كمن مسه جان و هو يصيح فزعا.

حضرت زوجته فصاح باكيا.

- كابوس...كابوس...أمر رهيب...

استعاد شيئا من توازنه بعد شرب كأسا من الماء. لكنه اكتفى بالقول:

- حلم كابوس مخيف يا أم حمودة... اللهم اجعله خيرا...

قص على زوجته جزء مما شاهد في نومه وتجنب أن يخبرها عما فعل (الروبوت) له في سياق نومه.

اليوم الخامس بعد المائة

-آه يا صديقتي، يا أم حمودة، أخبرك يقينا أن ليس هناك امرأة أخرى في حياة زوجك...تأكدت من هذه النتيجة بعد بحث معمق في رأسه وأحلامه وأضغاث أحلامه...لكن للأسف يوجد في رأسه ما هو أسوء من ذلك...ماذا أقول؟ ...أبو حمودة لا يتردد في أن يبيعك و يقبض الثمن إذا سنحت له الفرصة...

-في حلم البارحة وجدته وسط حشد كبير من الناس. ازدحام لا مثيل له...أضرب أصحاب الحافلات فلم يبق في المدينة إلا هذه الحافلة الوحيدة، والتي مالكها رفض أن يشارك في الإضراب...لتنقل العمال إلى أمكنة أعمالهم. تقدم أبو حمودة ببطء وسط الجموع يشق طريقه وسط هذا الكم الهائل من الناس. كانت الحافلة تغص بمن فيها، وأحدهم حاول النفاذ عبر النافذة، و أخر كان يصارع جاهدا للصعود...

كان على وشك أن تصل يده إلى باب الحافلة عندما دفعه شاب أحمق فسقط أبو حمودة على الأرض. أغمى عليه فكان آخر شيء يذكره من هذا الموقف أحذية الناس المتدافعين حوله. كان أصحابها يحاولون أن لا تطأ أحذيتهم هذا الرجل المسكين الملقى دون أن يتدخل أحد لإسعافه. فجأة ترامى صوت يناديه من عل.قال الصوت:

- أعطني يدك يا أبا حمودة..

فتح عينيه، فلقى وجه شيخ وقور في ثوب أبيض، فضفاض. كان جالسا على بساط صغير كان يطفو فوق وجه أبو حمودة. هو مد يده، وابتسم الشيخ له ورفعه نحوه. ها هو الآن على بساط الريح، البساط العجيب الذي سمع عنه في إحدى الحكايات أمه رحمها الله وهو طفل. فرك عينيه وهو غير مصدق ما تراه عيناه: كان الشيخ يوجه البساط بعصاه السحرية حيثما شاء. مسح دموعه وأنفه بكم ثوبه وهو يلتقي نسمات خفيفة باردة غسلت كل ما علق بجسده و نفسه من تعب و قلق.

قال الشيخ بلهجة وقورة:

- مرحبا بك يا أبا حمودة...قل لي إلى أين تريد أن تذهب؟

فقال محدثا نفسه: لن أذهب إلى عملي اليوم. هذه المناسبة لا مثيل لها. فسأل بشيء من الخبث:

- و إلى أين ذاهب يا شيخي الجليل؟

- حيث تشاء يا عبد الله...

- أريد أن أرى مكة ... و ... و ...

- قال بالضبط إلى أين... لا تتردد..

- أريد أن أرى مكة والمدينة وكذلك دمشق وبغداد

في لحظات أسرع من لمح البصر بدت مكة عن بعد والكعبة والمسجد الحرام...ثم المدينة وقبر الرسول عليه الصلاة والسلام... ها هو الآن فوق دمشق الفيحاء ونهر بردى ثم ... بغداد الرشيد وشهرزاد... آه ما أسعدني! وحدث نفسه فقال لها ... لو لا أني إنسان طيب العقل والقلب لما من الله

علي بهذه النعمة...لكن ...ستنتهي الرحلة حتما وسوف يغادر الشيخ... ماذا لو باستطاعتي أن أحتفظ بهذا البساط. فخاطب الشيخ قائلا:

- شيخي الجليل... هل تبيعني هذا البساط.

فابتسم الشيخ مستغربا و قال:

- كم تدفع فيما لو كان معروضا للبيع؟

فقال أبو حمودة على استحياء:

- في الحقيقة أنا لا أملك نقودا.

- و ماذا تملك إذن؟

- أملك ما لا يقدر بثمن !

- و ما هو يا عبد الله؟

- زوجتي... زوجتي امرأة طاهرة وعفيفة... لم تخن العهد أبدا ... ولم تسيء إلي أبدا خلال السنوات العشر التي عشناها معا. تحملت مزاجي الصعب، المتقلب...باختصار إنها إمرأة لا تقدر بثمن.

- و ما علاقة زوجتك بالموضوع؟

- نتبادل ... تعطيني هذا البساط وأعطيك أم حمودة بديلا عنه.

امتقع وجه الشيخ و ظهرت على وجهه علامات الغضب الشديد والقرف... وقال بصدق:

- هيا يا خبيث...هيا أهبط من هنا... فأنت لست أهلا لهذه النعمة.

جرت مناوشة قصيرة انتهت بطرد أبو حمودة بعصا الشيخ الذي امتنع عن مغادرة البساط. تعلق بطرف البساط وهو يطير فوق الحشد رنت

عيون من فيه نحو الأعلى، ساخرين من أبو حمودة ويشيرون أليه بأصابع الشماتة، فسقط على الأرض.

* * *

نهض أبو حمودة من نومه مذعورا. شرب كأس الماء الذي أحضرته له زوجته و هي تقول:

- خير إن شاء الله ... خير ... هل الكوابيس تلاحقك دوما؟ .... حتى عندما تحضر إلى هنا... لم ينبس، رمقها بنظرة ذات معنى خاص، ثم عاد إلى النوم.

اليوم السادس بعد المائة

قلت أحاور أم محمود:

-أصغي إلي جيدا يا صديقتي...أكرر أن لا وجود لإمرأة أخرى في حياة زوجك...أبدا، أبدا. لكن أبو حمودة مستعد في أي وقت لبيعك أذا كان الثمن فريدا... قبل أمس باعك ببساط الريح والبارحة حاول أن يبيعك لعزرائيل...

- انتفضت أم حمودة خوفا و قالت:

-عزرائيل !! الله يخرب بيتك يا زوجي... تبيعني إلى عزرائيل...حسبي الله ونعم الوكيل... الله يخرب بيتك...آه أنا لا أريد أن أسمع شيئا عن هذا الحلم...

- لكن يا أم حمودة...حان الوقت لأسألك إذا كنت تبيعين أبو حمودة أذا كان الثمن بساط الريح.

أطرقت طويلا و قالت في تردد:

- لا أدري !!

- بل تريدين ... تصوري أن يكون لديك بساط طائر يحملك وحمودة إلى مكة، إلى دمشق إلى نيويورك إلى بغداد...كل ذلك بلمح البصر... لكن كل ذلك بالحلم... ربما أنا بحاجة إلى أن أرصدك وأنت نائمة فعرف الحقيقة.

ضحكت من قولي، وأدركت أن كل ما في الأمر مجرد منام، غيرت رأيها فقالت:

- هيا...ماذا فعل عزرائيل بزوجي...اخبريني

طرق عزرائيل الباب فرد أبو حمودة:

- من الطارق؟

- أنا؟

- من أنت؟

- أنا عزرائيل ملك الموت.

- وماذا تريد؟

- افتح الباب أولا..

- لا أجرؤ على ذلك

ضرب عزرائيل الباب ففتح، فقال أبو حمودة وهو يرتجف:

- ماذا تريد؟

- أريد أن آخذ روحك... روحك التي أودعها الرب فيك عندما خلقك.

- لكن يا عزرائيل... أرجوك، أرجوك أن تستمع إلي قليلا...

- هات ما عندك، و اختصر، عندي واجبات أخرى..

-أصغ إلي ...أنا كسار حجارة ، رجل أمي، لم أدخل المدرسة قط لكنني تعلمت الكثير مما أسمعه من أفواه الناس، من الشيوخ ومن التلفزيون أيضا... أتدري أن كل حجرة أكسرها هي مثابة أحد رؤوس حكام هذه البلد... يعني أن الحجرة الأولى تمثل الملك، الثانية تمثل قائد الجيش، الثالثة، هي رأس وزير المالية... و هكذا... كل ضربة هي ضربة لتكسير رأس، لأشفي غليلي، وأبقى على قيد الحياة... فهم لا يسمحون لي أن أقول شيئا ضد أي واحد منهم حتى لو كان لصا أو مجرما... فقط علي أن أردد: يحيا الملك... و هكذا يا عزرائيل...

- وما علاقة هذا بالموضوع؟ أريد أن آخذ روحك وأمشي...

-لكن عندي سؤالا...لماذا تاخذ الروح وتترك الجسد...فيا ليتك تأخذ الإثنين معا... والجسد أيضا هو من الرب... أليس كذلك؟ تترك الجسد وحيدا، وما يفعل الناس به فهم إما ... أقصد الدود يأكله...أو يصبح مكانه ضريحا ليتبارك بلمسه الناس... يشعلون الشموع حوله ويفون النذور و طوف النسوة حوله... أنا متأكد أن لا أحد يفكر ولا حتى زوجتي أو إبني أن يصنع ضريحا من جسدي... هذا أسهل... أرجوك. لما تأخذ نصف الأمانة وتترك النص الآخر؟ لماذا؟

- لا جواب عندي... أنا أنفذ أوامر الرب أريد روحك فقط...

- لكن رجاء عندي سؤال آخر...

- تفضل !

- هل تقبل أن تأخذ شيئا بدلا من روحي..؟

- لا أفهم ما تقصد؟

فخفض أبو حمودة صوته و قال هامسا:

- زوجتي ..أم حمودة... روحها طاهرة، نقية وهي أيضا حلوة وجميلة... لا توجد امرأة في المدينة أجمل منها.

ثم رفع صوته مناديا:

- أم حمودة... هيا تزيني... ضعي على وجهك بعض المساحيق...خاصة أحمر الشفايف... هذا عزرائيل هنا... يمكن أن تعجبيه فيأخذ روحك بدلا مني...

غضب عزرائيل أشد الغضب، وصاح صوتا ارتجت له جدران المنزل والأرض واهتزت الأشجار.

- آه يا خبيث...يا ملعون...تريد رشوتي... هجم عليه ليقبض روحه، لكن أبو حمودة حاول الفرار، فوقع من السرير حيث كان يرقد، وصاح يناديك لتسعفيه بكأس ماء... والبقية تعرفينها جيدا.

اليوم السابع بعد المائة

قال أبو حمودة:

-فعلا كما قلت يا أم حمودة ... أنا متعجب من كثرة الاحلام التي رأيتها منذ أن رجعت إلى هنا... وكان آخرها، حلمت كأني رأيت يدا غريبة تمتد نحوي من وراء الستار، ثم يمتد إصبع من أصابعها الخمسة ويخترق رأسي

ثم يصول ويجول في داخله...إصبع رفيع كأنه مسمار أو إبرة... ولا أدري معنى هذا..

توقف قليلا عن الكلام، نفث دخان سياجرته وقال:

- رأيت عزرائيل...أراد أن يقبض روحي فحدثته عجبا لا أذكر شيئا منه...

- فليبعد الله عنك و عنا كل شر... لا تقل هذا الكلام يا رجل !

- لماذا؟ لماذا؟ هذه الأحلام الغريبة...

- ربما بسبب القمح الرديء

- أي قمح؟

-القمح الذي وزعه الملك على الناس، كان عفنا، وقد مرض حمودة بسببه، ثم حصلت على بعض القمح الطازج الجديد التي استورده الملك لنفسه وبطانته، و صنعت شوربة القمح الذي استفاد منه حمودة...

-لقد سمعت من بعض الناس أن بعوضة سحرية أصبحت فتاة صغيرة تطير، لدغت أحد الجنود فأنقذت ذلك الشاب المسكين الذي حكم الملك بإعدامه...آه ! في الحقيقة، لا أدري يا أم حمودة... أنا لا أصدق هذه الخرافات...بعوضة تتحول إلى فتاة... غير معقول! صبي لي فنجانا آخر من الشاي الأخضر الطيب...صبي والله لا يوجد في العالم أفضل من أم حمودة! الله يطيل عمرك ويمدك بالصحة يا زوجتي العزيزة.

كنت أراقبهما عن بعد. كان جالسين امام الكوخ على ضوء القمر يشربان الشاي بينما حمودة كان على ركبة أمه يصغي. مد أبو حمودة رجليه، واعتدل في جلسته وقال مخاطبا إبنه:

- كيف أنت في المدرسة يا حمودة؟

- المعلم يطلب ثمن الطباشير، و أمي ليس معها لتعطيني...

فسأل أبو حمودة زوجته عما تبقى من لديها من مرتب الشهر الماضي:

- لا شيء... و قد استدنت بعض المال من جارتنا.

وهنا انتهز أبو حمودة الفرصة ليعبر لزوجته عما كان يدور في خلده، فسألها

- أم حمودة، ما رأيك في أن يشتغل حمودة، ويربح بعض المال، فنحل مشكلة الطباشير وغيرها؟

- وماذا يمكن أن يشتغل، هو ما زال طفلا لم يبلغ العاشرة بعد؟

- عندما كنت في السوق الأسبوع الماضي شاهدت طفلا جيبه يطفح بالنقود

- ومن أين له تلك النقود؟

- جلس ساعة أمام باب المسجد، بعد صلاة الجمعة ومد يده للمصلين الخارجين من المسجد، هكذا جمع الكثير.

انتفضت أم حمودة غاضبة وقالت:

- لا.. لا لن أسمح بذلك...أتريده أن يصبح شحاذا؟

فوجئ أبو حمودة بالرد فتراجع قائلا:

- لا ..لا، لا أقصد هذا، كل ما في الأمر، نهار الجمعة حيث لا مدرسة ولا دراسة.

- لالا..

- لا تغضبي! إذا دبري راسك بما لدينا من فلوس

- ما زال لدي قليل من الفلوس...

فنهض متثاقلا و قال:

- أتبقين سهرانة؟ أنا تعب...أريد أن أنام..

و عندما جلسنا وحدنا بعد أن غادر إلى سريره، قال أم حمودة:

- هل سمعت ؟ هل سمعت ما قاله؟

قال:

- سمعت

- فردت علي و هي تستشيط غضبا:

- والله يستحق أن تلدغيه لدغة لا قبل له بها، حتى يتعلم... حتى يتعلم أن لا يضر إبننا الوحيد...

- لكن ...

قلت مترددة:

- لكن ماذا؟

- هل تظنين أنه سيغير رأيه إذا لدغته؟

- المهم أن تلدغيه... تعاقبيه

خيم صمت مطلق، كنا نتبادل اثناءه النظرات، ثم قلت:

- أم حمودة... هل مازال لديك بعض القمح الجيد؟

و لما أومأت برأسها قلت:

- تعالي معي...سنبذره، هناك عندك فسحة صغيرة قرب الباب...و عما قريب ستكون عندك سنابل، في كل سنبلة مائة حبة...

عندما انتهينا من نثر البذور و رشها بالماء، قلت:

- اسمعي هذه الأبيات من الشعر:

ما احلى سهرتنا في ضوء القمر

سهرة تجمع الأحبة

نلبس والليل كساء

صنع من خيوط الفضة

تعزف الجنادب ألحاننا

ترسم الفراشات أشكالا مضيئة

إنها شهب الأرض في عالم الغربة

اليوم الثامن بعد المائة

اليوم حلم أبو حمودة في فترة القيلولة أنه أصبح ثريا. لقد جمع الكثير من المال أثناء جلوسه أمام باب المسجد يستجدي المصلين كانت جيوبه ملأى بالنقود المعدنية. نهض فرحا، وها هو في طريقه إلى بيته ليفتخر أمام زوجته و ابنه بما حققه: مبلغ من المال يفوق مرتبه الشهري، في مدة أقل من ساعة. غير أن حلمه لم يكتمل. فغناء الأطفال خارج الكوخ أزعجه، فنهض ليستطلع الأمر.

أجل! لقد تحلق الأطفال حول المكان، أمسك كل منهم بيدي الآخر ثم انطلقوا يغنون بصوت واحد، وكانت أم حمودة ونسوة أخريات وأنا مع الجمع:

يا بابا يا حبيب

أنا بحبك كثير كثير

أنا مازلت ثغير

لكن عما أكبر، عما صير

أصبر علي شوية

***

إذا صرت أتسول

ومد إيدي لأشحذ

راح الكسل أتعلم

ومن بعد رايح أندم

انا مازلت صغير

لكن عما أكبر، عما صير

أصبر علي شوية

***

يا بابا يا حبيب

من المدرسة لا تحرمني

علمني و شجعني

ومن الكتب كثرلي

أنا مازلت صغير

لكن عما أكبر، عما صير

أصبر علي شوية

يا بابا يا حبيب

ارضنا و الله جميلة

خصبة كثير وغنية

أنا بحب ترابها

وبحب ماءها وهواها

علمني أفلحها

علمني أزرعها

حنطة وذرة وشعير

أنا مازلت صغير

لكن عما أكبر عما صير

أصبر علي شوية

***

يا بابا يا حبيب

أنا بحبك كثير كثير

ساعدني أعمل بستان

لازرع تين ورمان

أنا وماما والجيران

دربني، علمني

أنا مازلت صغير

لكن عما أكبر، عما صير

أصبر علي شوية

****

وقف أبو حمودة جامدا يرقب ما يجري أمام بصره لم يكن يفهم شيئا. نادى أم حمودة و ابنها و استفسر منها فقالت أم حمودة له:

- هذا ليس حلما يا عزيزي. هذا هو نحن. لم نقل يحيا الملك...قل معنا يحيا الشعب! ألقى عليها نظرة ساخرة وقال وابتسامة صفراء تتوج محياه:

- انا أقول تحيا الملكة

فردت الملكة بدهشة:

- ايه ملكة يا زوجي؟ ليس في بلدنا ملكة ! !

هما تدخل حمودة قائلا:

- ماما...هو يقصد الملكة مريم...مريم، وأنت تعرفين من هي...

اليوم التاسع بعد المائة

غرست غبرتي في رأسه. وصلت إلى روحه. روحه لهب دافئ، فقاعة تتحول، تتكرر، تتمدد، تنفر من الأصابع. تقترب تبتعد. تهبط ثم ترتفع حسب ناموس لها لا تشد عنه و لا تنحرف.

لم أجد شيئا في روحه ! آه! إذا اين أنت يا أبا حمودة؟ تجولت حول حطام واسع من ذكريات عاشت ثم احتضرت وماتت. رأيت آهات وحسرات ورغبات معششة عنكبوتية داخل مغاور.

- أين أنت يا أبا حمودة؟

ثم رأيته واقفا على سحابة والناس تحته وهو يخطب "أيها الناس! اسمعوني جيدا. أنا لا أهتف يحيا الملك. أنا لا أهتف يحيا الشعب! أنا أهتف تحيا الملكة! تحيا الملكة! تحيا الملكة!

ملكة بلادنا امرأة جميلة، ذكية، مسالمة وجذابة. في قولها نغم وفي حركتها نور. لا تدخل حربا، لا تعادي بل تبغي السلام، تصادق وتهادن. الملكة تبني المملكة كما تفعل دودة الحرير. لذا فانا أحب الملكة... وأهتف تحيا الملكة!

أما أنت يا ملكنا... فلا شيء لديك يجذبني إليك. تقطع رأسا لا يهتف لتحيا. تأخذ من محصول القمح أفضله. تأكل من الطعام أجوده. و تشرب من الماء أعذبه. وتتناول الكحول حسبما يحلو الامر لديك. وما تبقى من فضلات ترسله إلي و عليكم أيها الناس. أنا يا سيدي لا أجد ماء نقيا أشربه و لا طعاما شهيا، و ليس لدي ثوب يدفئني.

سيدي... أخبرك... لا شيء يجذبني إليك... لا شيء أصبه لديك. عيناك كعيني اللص الذي سرق سروالي عندما كنت أسبح في النهر. وأنفك يا ملك هذه المملكة كأنف تيس جبلي نطحني ذات مرة فاقتلع من أسناني عددا. فذبحت التيس غضبا واقتلعت أسنانه ثأرا. أردت أن أثبتها مكان أسناني التي كسرت وسقطت... السن بالسن... لكن أهرب إذا رأيتك تبتسم. وارتجف خوفا من أذنيك إذا اهتزتا...إذا تموجتا ، إذا حركتهما وأنت غاضب...إنهما كأذني ابن آوى أذا داهمته ريح عاتية.

يا أيتها النفس ... نفسي الأمارة بالسوء ... ما أحلى السوء الذي تأمرين به! حلو لأنه فطري... لأنه أصيل، و هو أحلى ما لدي... نفسي تأمريني أن أعشق الملكة... أنا أشتهي الملكة لذا فأنا أطيعها. أنا أطيعها إذا أنا أصبح مواطنا صالحا... أنا مواطن صالح لأني أطيع الملكة. أنا أطيعها لأني أحبها. أنا مواطن صالح في مملكة ملكتي.

آه يا ملك هذه المملكة... أعرف أنك لا تغضب إذا هتفت تحيا الملكة! ها أنا ألمس رأسي. رأسي ما زال فوق كتفي. وما زالت روحي في جسدي... أنا أحب الملكة وهي عذراء، و يمكن أن تنجب بنيه بأمر من الرب.

لقد آن الأوان لظهور بنيه في هذا العالم العولمي... و لم لا؟ الملكة هي البعوضة و البعوضة هي الملكة أنا لا أحمل لكم البشائر...الملكة العذراء التي تضع بنتا بنيه لهذا العالم العولمي...

أيها الناس! أنا كسار أحجار. أول حجرة أكسره كل يوم هو رأس الملك. الحجر الثاني هو الوزير الأول. والوزير الثاني للحجر الثالث وهكذا دواليك. أكسر رؤوس كل القطيع الحاكم...

آه! لكني أعلم كما تعلمون أن رؤوسهم لم تكسر. هم هناك في القصور يعتقدون إجتماعا، بينما أنا أكسر أحجار... أنا اشتهي الملكة إذا أنا مواطن صالح... ما رأيكم أيها الناس؟

أوصيكم بطاعة ملكتنا...اشتهوها فتطيعوها، فتعيشون سعداء...الآن وغدا وبعد غد وبعده وبعده. كل مساء أدخل رحم الملكة...افتح الباب فأجد ملاذا دافئا، كما يفعل الجنين...أنا جنين داخل الرحم، طوال الليل، فإذا طلع الفجر، أخرج، اغلق الباب وأبدأ عملي بتكسير الأحجار..."

كنت منهمكة في مشاهدة أضغاث أحلام أبو حمودة وهذيانه، ... كما كانت تتكون شيئا فشيئا، ثم تتلاشى خطوة خطوة، لم يزعجني شخيره ولا نخيره ولا سحنته التي اتخدت شكلا غريبا. فاذا اقترب منتصف الليل، فسكن العالم واشتد الظلام. قلت بصوت خافت:

حمودة..أم حمودة.. هيا استيقظا ...انهضا... هناك من يبكي... هناك ليس بعيدا... من هنا هيا تعالا معي.

اليوم العاشر بعد المائة

خرجنا من الكوخ كنا ثلاثة و شمعتان. قلت:

- حمودة أتبعني أنت وأمك.

إنضم إلينا أطفال آخرون وأمهاتهم. استيقظوا عندما شاهدوا الشموع المضاءة تسير في موكب على الطريق المظلم. وأخبرهم أن مريم البعوضة سمعت صوت طفل يبكي من بعيد. ظن البعض أن الملك قتل طفلا لأن أباه رفض أن يهتف: يحيا الملك. وقال آخرون ربما الطفل ضيع طريقه وتاه في الظلام. لكن أما قالت أنه يمكن أن يكون طفلا سقط من السماء مع الصاعقة الرعدية التي ضربت المدينة منذ يوم.

و سرنا قدما...

كنت وحدي أسمع النحيب، لا أحد غيري. وصلنا إلى مكان خارج القرية. هناك من داخل كومة من التراب و الأوساخ كان الصوت يأتي إلي. قلت:

- هيا انبشوا هذه الكومة ...

حفروا بأيديهم، فوجدوا ما كنا نبحث عنه .. لم يكن حيوانا. لم يكن طفلا. لم يكن طائرا ... كان غصن صنوبر أخضر. صاح الغص متألما:

- آه يا أمي ! . أين أنت؟ يا ويلي!.. لماذا قطعوني؟ لماذا؟ خدوني إلى أمي خدوني... أرجوكم..

خاطبت الأطفال قائلة:

- أنظروا إنه غصن صنوبر يبكي. قطعة أحد الناس و رماه...

فاعترض طفلا قائلا:

- لماذا قطعه؟ لماذا؟

قال الغصن:

- قطعني من أجل أن يلعب ابنه بي.

قلت:

- الأطفال يبكون و الحيوانات تبكي والنباتات أيضا. عندما تقطع زهرة أو غصنا فأمه تبكي و هو يبكي لكن لا تسمعون بكاءهم.

فاعترض طفل آخرك.

- لكن ... هل تبكي البرتقالة إذا قطعناها؟

- قلت:

- لا...الثمار عندما تنضج لا تبكي...إذا لم نقطعها تصبح ثقيلة على أمها...نقطع الثمار فتفرح الشجرة الأم... هكذا هو الحال كما خلقها الله...

نظرا بعضهم في أعين البعض الآخر غير مصدقين. فهذا غير معقول! قال بعضهم..

- بل معقول! الغصن الأخضر كالطفل تماما... للأسف أنكم لا تسمعون صوت بكائه و آلمه...للأسف! لكن إذا لم يكن باستطاعتكم أن تسمعوا بكاءه اعرفوا أنه يبكي. الحشرات تبكي إذا قتلناها لكنكم لا تسمعون بكاءها

رفعت صوتي قائلة:

- هيا فلنحمله إلى أمه!

- أين أمه؟

- فلنبحث عنها..

على أدرعهم و برفق بالغ حمل الغصن أطفال ثلاثة و سرنا..

قال الطفل:

- أنا أعرف ... أنا اعرف، توجد شجرة صنوبر هناك وراء التل ... لا يوجد غيرها...

وسرنا ...

ما إن اقتربنا من الشجرة حتى سمعتها تنتحب:

- آه يا ولدي، يا ويلي! لقد قطعوا غصنا من أغصاني ... غصن جميل أخضر ... آه يا ويلي!

وصاح الغصن:

- إني أشم رائحة أمي ... أين أنت يا أمي؟

كانت صنوبرة خضراء، باسقة عظيمة. لا مثيل لها تسر كل من ينظر إليها

تسلق حمودة و طفل جذعها. بحثا ... أخيرا وجدا البقعة في الجذع التي كانت بداية الغصن ملتصقة بها.

- هنا، هنا ...

صاح الطفلان عندما رأيا البقعة في ضوء الشموع. رفع الغصن بل بالماء. و التصق بأمه. ضحك قائلا:

- آه يا أمي ... أنا جائع أنا مشتاق لحليبك...فردت الصنوبرة فرحة:

- يا فرحي يا طربي، لقد عاد إبني إلي ... شكرا يا بعوضة ... شكرا يا أطفال.

قلت: هيا فلنغن لها أغنية قصيرة:

يا شجرة الصنوبر يا حبيبة

نحن الأطفال ... نحبك فأحبينا

نحن أغصانك، نحن زهورك، نحب ثمارك

فابتسمي لنا ... واحتضنينا.

يا أمنا الخضراء، يا حبيبة

في ظلك نلعب، نتسلق، نتأرجح

علمينا العطاء ... علمينا...

لا تغضبي منا ... لا تحزني...

نحن الأطفال... نحبك فأحبينا

اليوم الحادي عشر بعد المائة

قالت لي شجرة الصنوبر:

-ابني لي يا مريم بيتا لك هنا على أغصانك، فنعش معا ونتمتع بالحديث في أيام الصيف الحارة و في أيام الشتاء الباردة، أنا هنا منذ إثنتي عشرة سنة، وحدي، فلم تغرس شجرة صنوبر أخرى قربي لعلها تؤنسني في وحدتي. كنت بذرة من بين البذور الكثيرة استوردها الملك من بلاد الهند لطعامه وشرابه، لكني سقطت مع اختين لي عندما سقط الصندوق صدفة على الأرض فانكسر. اختاي داس عليهما العابرون فماتتا، أما أنا

فعشت لأني سقطت بجانب الطريق. شربت من ماء مطر الغيوم، وتعلمت أن أمد جذوري إلى أعماق الأرض لأرتوي مما في جوفها من ماء... فلا أحد من سكان المدينة خطر بباله أن يسقيني جرعة ما ... حتى في أيام الجفاف الذي قتل كل ما هو أخضر على سطح أرض المدينة.

- آه يا أختي! قطع الناس الكثير من أغصاني لأعيادهم و احتفالاتهم ... بكيت ألما و حزنا!، لكن لا أحد سمعني و عوضت ما فقدت، فأنا الآن كما ترين شجرة باسقة عظيمة، ضخمة لكن ظريفة...أقدم حبوب الصنوبر لينتفع الناس بها، و أمد لهم أغصاني ليتمتعوا بظلي في أيام الصيف الحارة...آه يا صديقتي أشد ما يخيفني هو المنشار الذي بوسعه أن يجعلني جثة هامدة، ممتدة على الأرض... في دقائق كي يجعلوا مني حطبا وخشبا للأرائك والمناضد والأبواب. أنت تسمعين صوتي وتفهمين لغتي... أنما بنو آدم فصم، لا يسمعون ولا يفقهون لغة الأشجار والأوراق و الزهور.

أنظري هنا إلى الغصن الذي ارجعته لي أنه يشرب من حليب- نسغي...

هذا ما أنا...أما أنت يا بعوضة...فمن أنت؟

فأجابتها:

-تسألين من أنا، مع أنك سبق و أن عرفت أني كائن أنقذ غصنا أخضر من أغصانك...قبل أن يموت جوعا أو عطشا. أشكرك أنك جعلتني أعرف أن في أعماقي ما أستطيع به إنقاذ حياة شجرة...لأن أذني تسمع ما لا تسمعه آذن بشر و عيني ترى أكثر مما يرون. أنا تعبة و بودي أنام.

لكن الصنوبرة اعترضت قائلة:

-لكنلك يا صديقتي أنت أكبر من كل ما رأيت و سمعت في حياتي.. أتمنى لك نوما هنيئا مريئا على أي غصن تشائين من أغصاني و سوف نعود إلى سؤالي عندما تستيقظين.

اليوم الثاني عشر بعد المائة

قهقه أبو حمودة ساخرا عندما سمع بقصة غصن الصنوبر، وكيف تم إرجاعه إلى أمه. فقال متهمكا يحدث زوجته:

-ظننت أن ذراع الملك أو عضوا أخر مهم لديه قد قطع من طرف بعض الناس و قام بعد ذلك بتخبئته تحت كومة الأوساخ و الحطب ! لذا راح جيش من الناس و الأطفال للبحث عنه! لا أكاد أصدق، كل هذا العمل من أجل غصن شجرة! يا للأسف! آه، لو ؟أن الناس تعم أن في المملكة قد تم قطع أكثر من ألف شجرة زيتون و مشمش و تفاح و رمان... كل هذا من أجل شق طريق بين قصر الملك و المطار... هذه نكتة الموسم! نفث دخان سيجارته، بلع ريقه و هو يرقب أم حمودة تحضر له شيئا يأكله. و أردف قائلا:

-و الأسوء من هذا كله أن يخرج الجمع الغفير في منتصف الليل بقيادة من؟ ... من يحرز؟ بقيادة بعوضة!! ها! و يقال أن الأطفال وحدهم يفهمون لغتها، ثم يترجم أحدهم ما قالت للأمهات المرافقات للأطفال... ويخرج الجميع في مسيرة الشموع إلى شجرة الصنوبر التي تكلمت و رحبت بغصنها المقطوع، و ضمته إلى جذعها! ها ! ! يا ناس ! الليل للراحة من التعب وليس للقيام بموكب من أجل غصن شجرة ! أين تلك البعوضة؟ أريد أن أراها ...

أجابه حمودة و هو يتأمل قسمات والده:

- بقيت على الشجرة.

فعلق أبو حمودة محاولا أن يفرغ ما في جعبته:

- كانت أمي دوما تقول ... نقلا عن أمها، جدتي، أن النساء قاصرات العقل، تماما كما كان جدي يعلمها. اعترضت أم حمودة على هذه العبارة، فاستدرك قائلا:

- اسمعي يا زوجة! ... أنا لم أقل هذا، أنا أنقل فقط عن امرأة، كانت أمي، التي هي أكثر خبرة وذكاء من بنات اليوم... أؤكد أن أمي هي التي قالت هذا، مفهوم؟

صمت قليلا، تأمل حلقات دخان سيجارته و هي ترتفع ثم تتلاشى، ثم قال:

-مشكلة هذه المدينة، ذات شقين...الملك وهذه البعوضة، لو خلصنا الله من هما الاثنين لعاشت المدينة وأهلها بسلام...ومع ذلك فليحيا الملك... وعندما أبدأ عملي، سيكون للملك شيء آخر... قال هذا ونهض بتثاقل، تثاءب، تمطط و تجه مباشرة بعد ذلك إلى فراشه في الغرفة المجاورة. و ما إن اختفى وراء الباب، حتى خاطبتني أم حمودة همسا:

- أترين يا صديقة؟ زوجي وأمثاله من الرجال يستحقون أكثر من لدغة بعوضة،... هم بحاجة إلى لدغات حتى يمكنهم أن يتعلموا شيئا جديدا، ... هيا باشري عملك مع هذا التيس، زوجي... الذي يحتاج إلى ضربات بالمطرقة التي يكسر بها الأحجار. لم أقتنع برأيها، ... كنت شغوفة جدا لأرى إن كنت سأجد نفسي في رأسه! وتساءلت كيف أبدو في حلمه!

فتاة مجنحة أم بعوضة مكروهة؟ تبعته إلى فراشه، وقفت على جبهته كالعادة، ثم مددت إبرتي لأرى ما يجري داخل جمجمته. رأيت العجب!

- رأيته في بهو القصر الملكي. الملك والملكة جالسين على العرض يشربان الخمر بينما أبو حمودة يرقص رقصة اسبانية أمامهما، رقصة سبق أن تعلمها من أحد خبراء الإسبان الذي أتى بهم الملك من أجل المساعدة في شق الطريق. كان أبو حمودة يرقص برجليه، بقدميه بوسطه، بعينيه، بحركات عضلات وجهه،... بينما الملكة كانت تبتسم له خلسة حتى لا ينتبه إليها زوجها.

تقدم أبو حمودة نحوها وهو يرقص، حتى وصل إليها، ثم جذبها نحوه، ضمها إلى صدره وطبع قبلة على ثغرها. غضب الملك، فامتشق سيفا وهاجم أبو حمودة محاولا أن يقتله. غير أن أبو حمودة راوغه فباءت كل الضربات بالفشل. تناول أبو حمودة المطرقة التي يكسر الأحجار بها، وجرت مبارزة بين سيف الملك ومطرقة الأحجار ، بينما الملكة تراقب بقلق ما يجري أمام عينيها.

كنت أتمتع برؤية الحلم وانا أنتظر من يكون المنتصر في النهاية. لكن قبضة أبو حمودة الثقيلة هوت علي فحطمت أضلاعي، فرأيت روحي تفارق جسدي وترتفع في فضاء الغرفة، كلهبة زرقاء خفيفة، لطيفة ... متغيرة الأشكال. ثم رأيت جسدي يتعبها، ويندمج بها، وأنا أعزف بجناحي لحنا بديعا لأغنية حب نسيت كلماتها.

فتح أبو حمودة عينيه، وما إن رآني أطير فوقه، حتى قفز إلى الأعلى في محاولة فاشلة إلى التقاطي. لكني استطعت أن أفتح الباب واهرب فلحق

بي وهو يصيح: رأيتها ... رأيتها... وجدت عروسي وجدتها.. تبعني عبر الطريق الترابي، تعثر بإحدى شجيرات الصبار. شج رأسه لكنه نهض غير مبال وراح يركض ويركض متبوعا ببعض الشباب والأطفال، بينما حلقت عاليا جدا، و اختفيت تماما عن الأنظار.

اليوم الثالث عشر بعد المائة

هذا يوم هجرتي ... هجرة الى حيث لا أدري

حلقت في فضاء المدينة. ارتفعت ثم كالسهم انطلقت. نحو أفق بعيد بدا غياب الشمس فيه كالسراب. أنا أتوق لأبتعد عن هذا العالم. ابتعد، ثم ابتعد ... لكني لا أدري إن كنت ابتعد أم اقتربت!

أنا لست سهما، فالسهم يعرف راميه مبتغاه. أما أنا فلا أدري، هل أنا رميت نفسي أم أحد رماني؟

بلغني الظلام كأنه قبري... يسجنني بين طياته وثناياه. الظلام، ظلامي جدران كثيفة، تراني لكن لا يسمح أن أراه!

هذا الليل اندثرت كواكبه في مجاهيل السماء، و راء ضباب سميك لا أفقه مغزاه. فلا نور و لا نار من تحتي أو من فوقي... حتى أن جناحي اختفى الضوء منهما، وقيثارتي لم تصنع نغما تروق لي موسيقاه.

إني أفكر...أنا أفكر واعرف أني لا أفكر. أنا لا أتقن من التعليل والتحليل. خرجت من الجنة، ومن يخرج من الجنة في الظلام فوقه ظلمات لا يعود إليها كما كان.

قالت لي نفسي وهي تحاورني: قصرك في الفردوس تلاشى، هناك قصر في الجحيم بانتظارك.

ونفسي تسألني: هل أنا أموت لأحيا، ثم أحيا لأموت. لقد هشم جسدي، وروحي فارقتني ثم عادت برفقة نفسي. أخبرتها أني أهرب من نفسي ثم أجدني في أعماقها ابحث عني.

سألت من أنا؟ إني أسأل... إني أسأل ثم أسأل. تلاشى سؤالي في فضاء بلا حدود و أجوبتي تلاشت كقش تذروه الرياح.

هل أنا جاسوسة، أبحر في أعماق البشر، ثم تحطمني قبضتاه؟

إلى أين؟

الأرض كرة، قد ترجعني إلى منطقتي...حيث أبدأ منفاي ... هل ولدت اليوم من جديد؟

أم أن جسدي يعيد دورته دون قديم أو جديد ؟

أنا أحب الأطفال أطفالة أنا؟

هي يا أطفال ! سأغني لكم غناية، واتبعها بحكاية. وما الحكاية في فضاء يغشاه الظلام؟ ... وأنا أنطلق، لا أتوقف في كوكب أو في نجم... و لا في قمر!

آه! حكاية بقعة من الظلام ... أم بقعة من النور ؟

آه! أنا أهبط...أهبط نحو النور بسلام.

اليوم الرابع عشر بعد المائة

بعد رحلة طويلة و شاقة، أنا الآن أقف على زجاج نافدة لمنزل صغير في الصحراء التي تبدو بلا حدود.

في الداخل أرى رجلا أشيب، جدي ووقور الملامح جالسا على كرسي يقرأ في كتاب تحت ضوء خافت يصدر مصباح كهربائي على طاولة صغيرة قرب الرجل. قلت وأنا أعلم أن لا أحدا يسمعني:

-جئت من مكان بعيد، أنا منهمكة القوى فافتح لي بابك أيها الرجل المجهول...تعصف الريح حولي، وبرد يكاد يقطع أوصالي، فافتح لي بابك أرجوك.

انتظرت لحظات لعله يرفع عينيه عن الصفحة التي يقرأها لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، حسب ما تعلمت من أم حمودة. واصلت قولي:

-افتح لي الباب أيها المجهول، أنا وحيدة في هذا الظلام الدامس، لما رأيت نورك هبطت إليك...أتمنى لو تسمعني!

لكن التعب غلبه. وضع الكتاب جانبا، وأطفأ المصباح. فرك عينيه واستسلم إلى النوم

عندما نهض في الصباح الباكر لتناول طعام الإفطار، تمكنت من الدخول عبر إحدى النوافد. ةقفت على كتفه أراقبه، وانعم بدفء لذيذ يصدر عن أنفاسه الحارة. شعرت بالإرتياح وأنا أراقب تقاسيم وجهه: عينيه سوداوين وأنفه صغير، ووجنتيه غامقة السمرة.

تناول من المطبخ قصعة صغيرة وصحنا. خرج إلى الحقل الصغير الملحق بالمنزل، وهناك استقبلته عنزته بالترحاب، فملأ القصعة بحليبها الطازج الدافئ، ومنها نحو دجاجته البيضاء التي وضعت بيضتين كبيرتين له، بعدها تقدم إلى نحلاته التي بدت سعيدة لقدومه إليها. جمع بعض

العسل، و عندما ألقت الشمس أشعتها الأولى، كان "الرجل المجهول" قد تناول طعام إفطاره: حليبا و بيضا و عسلا لم تمسها يد و أداة و لا آلة.

فكرت في أن أطير نحو سقف المنزل لأنه أكثر دفئا. و ما إن رفرفت قليلا حتى لمحني فتبسم ضاحكا، و تتبع طريقي و هو يرنو بكلتا عينيه نحوي، و أخيرا قال و هو يلقي نظرات فاحصة علي و على السقف:

- اعرف أنك البعوضة ... مرحبا بك في منزلي يا فاطمة.

و تابع يقول:

- هل تشتهين دمي؟ البعوضات حسبما أعلم تحب الدم!.

فأشرت له برأسي بأني لا أحب الدم و لا أشتهي دمه.

فقال معقبا:

- حسنا! بعض الحليب والعسل ... أنا أيضا لا آكل اللحم ... نباتي كما يسمونني.

توجهنا معا نحو المنضدة. و أشار إلي بيده كي آكل ما أشاء مما في الصحنين من حليب و عسل ففعلت. ثم أردف قائلا:

-أريد أن أعرف أكثر عنك...لكن يجب، نرجئ ذلك حتى يأتينا من يترجم ... أما بالنسبة إلي... فأنا بشر كما تريني... لا أعرف من هو أبي وأمي...يعني أنا لقيط...تركتني أمي و امرأة أخرى، لا أدري قرب كومة القمامة ... وكدت أموت لولا كلبة كانت ترضع صغارها...فرق قلبها...فأرضعتني... وبقيت معها حوالي السنتين وأنا أظن أنها أمي ...لعبت مع صغارها، وكدت أصبح واحد منهم... اقصد كنت سعيدا ... وعندما أرى البشر كنت أهرب منهم وأختبئ حتى يختفوا ... ثم حدث أن طفلا فقيرا كان يقتات مما في القمامة من خبز

وبقايا أطعمة ... شاهدني الطفل، فذهب الطفل وأخبر أمه التي كانت من البدو الرحل ... فجاءت إلي وأمسكت بي رغم مقاومتي وحملتني، بعد ان ربطت كلتا رجلي وقدمي حتى لا أهرب، وحملتني على حمار، وعشت بينهم ومعهم، فتعلمت الكلام والعادات الإجتماعية منهم...

سكت قليلا ثم واصل قصته:

-أتعلمين، نحن لدينا قصص ألف ليلة و ليلة صاحبتها أقصد بطلتها شهرزاد التي كانت تروي ألف قصة وقصة على مدى ألف ليلة وليلة للملك الظالم، نسيت اسمه، فلم يقتلها...أنا رجل وأروي قصصا كما لو كنت شهرزاد، ...لمن ؟ ليس للملك ... بل لصديقتي فاطمة..

لاحظ إبتسامتي فقال:

-آه! أعرف أنك تفهمينني جيدا ... أنا سعيد لذلك...اسمعي...كلميني بالإشارات .. فإذا كنت توافقين على شيء هزي رأسك ... وإذا كنت معارضة فطيري على شكل دائرة صغيرة، ثم ابتعدي عني وارجعي بعد ذلك... ارجعي إلي يا فاطمة المحبوبة فافهم قصدك... الآن علي أن اشتغل بالحق قليلا فلنذهب مها...هيا!

اليوم الخامس عشر بعد المئة

قال الرجل المجهول:

-مرحبا بك يا فاطمة في منزلي! أنت أكثر من زائرة، أنت صديقة... ولا بأس أن تسمحي إذا شئت أن أسميك: فاطمة، فأنا أحب هذا الاسم لكن إذا كنت لا تحبينه، أستطيع أن أبدله حسبما تشائين... أنا أعلم أنك

تفهميني ولكني للأسف لا أفهم لغتك، وسوف نجد حلاّ لهذه المعضلة... أنا وحيد هنا في هذا المنزل المنعزل، فقد نفاني الملك إلى الصحراء، لعلي أموت فيها لأسباب سأخبرك عنها في ما بعد... لكني لم أمت فأنا أعيش حياتي مع الطبيعة،... حولّت أشعة الشمس إلى طاقة كهربائية تضيئ المنزل وأطهي الطعام بها، وعندي ثلاجة صغيرة لهذه الصحراء شديدة الحرارة... أحب "عزيزة" عنزتي التي تقذ الحليب الطازج لي، و"مطيعة" وهو اسم دجاجتي التي تمدني بالبيض... أما النحلات فكثيرات منهن: "أسماء"، "علية"، "فيحاء"، "سعيدة" و"بشرى"... وغيرهن يضعن العسل لي، وأنا أحبهن وعن يحببني كثيرا كما شاهدت كما توجد أمور أخرى سأخبرك عنها فيما بعد... أقصد أن صحتي جيدة، أفضل من صحة الكثيرين من سكان المدينة بما فيهم الملك وحاشيته...

مرة أخرى، مرحبا بك يا فاطمة... بالرغم من أنك بعيدة عني، على السقف، فأنا متأكد أنك سعيدة بوجودك هنا... وأنا مندهش أنك طرت كل هذه المسافة ليلا من المدينة إلى هنا... فأجبته طبعا دون أن يسمع قولي:

- لقد ضللت الطريق، قتلني أبو حمودة فمت كني عدت إلى الحياة، وهربت... طرت على غير هدى حتى لاحظت من عل نور هذا المنزل فهبطت إليك أيها الصديق... وانتظرت الليل كله... على زجاج النافذة وأنت لاه عني تقرأ كتابك...

- أعرف أنك تشكين و أنا أتعاطف معك يا صديقة و أسف... ربما نجد طفلا يخبرني بكب ما في رأسك من أفكار و آراء... أقصد رأيك بي... سنرى كيف يمكن تحقيق ذلك... لكن ثمة أمر هام ... ماذا تأكلين؟

ضحك و واصل كلامه:

- سنكون صديقين صادقين مع بعضنا و سوف تساعدني، أنا أساعدك وأحميك من مخاطر العيش في هذا الفضاء الصحراوي الذي استطعت أن أجعل منه وسيلة للحياة هنا وحدي، هل تفهمين ما أقول؟

- أشرت برأسي و يدي و أنا في موقعي على السقف، إلى أني موافقة. فهم إشارتي فأتم قوله:

- يمكنك أن تهبطي الآن. الوقت متأخر... و أنا تعب مثلك... اختاري أي مكان في هذه الغرفة و حتى غد إن شاء الله... ليتك سعيدة قال هذا و أطفأ المصباح.

اليوم السادس عشر بعد المائة

كان يشتغل في حلقه الصغير المتاخم لمنزله، وكنت أقف على ساق شجيرة ورد أرقبه، وأشعر بالأسى لأني لا أستطيع مد يد العون له. نظف الأرض من الأعشاب الضارة، و زرع بذور الطماطم و البصل و الثوم و الحمص. ثم نقل إلى الحقل التي خلفتها العنزة و الدجاجة سمادا طبيعيا يغذي الأرض.

رفع رأسه و خاطبني قائلا:

- أتعرفين يا فاطمة أن في قلب هذه الصحراء الشاسعة بحيرة كبيرة، ماؤها يكفي لجعل كل هذه الصحراء جنة الله على أرضه!... أنا لا أستخرج إلا مقدارا صغيرا من هذا الخزان الهائل بواسطة الطاقة الشمسية،... في الحقيقة أنا أشكر قوافل البدو الرحل التي تعبر الصحراء من وقت لآخر، و تنقل الأنغام و الخراف و الإبل من مكان لآخر للتجارة، كما توزع حليف الناقة، الذي هو شفاء من كل داء كما يعتقد الكثيرون فتقدمه للناس طازجا، خرج للتو من ضرع الناقة.

- صمت قليلا، و استعاد بعضا من ذكريات طفولته و قال:

- أنا نفسي شربت الكثير من حليب الناقة منذ أن عثرت على بدوية وأنا طفل صغير بين الكلاب منذ أن رمتني أمي على القمامة... واعتبرتني الكلبة أحد صغارها، لا فرق بين بشرة حيوان لديها. أقصد أني شربت الكثير من حليب الناقة، وقد ساعدني الحليب على استعادة خصائصي كبشر، ليس كلبا... فيما بعد سأخبرك لماذا نفاني الملك إلى هنا... وأرادني أن أموت جوعا وعطشا... لكن البدو الرحل، احفاد المرأة البدوية التي التقطتني،... ساعدوني فجلبوا لي من الدولة المجاورة الأدوات اللازمة لبناء هذا المنزل، وحفر بئر ماء، والآلات اللازمة لتوليد الكهرباء من أشعة الشمس من أجل طهي الطعام والتبريد والضوء والتدفئة لأن بعض الليالي الصحراوية باردة جدا...

هذا أنا يا فاطمة، آه... لقد نسيت أن أخبرك أن اسمي بشير... مرحبا بك في كل وقت...

ثم راح يدندن أغنية أو شبه أغنية:

أنا صانع هذه الجزيرة الخضراء

غزيرة الماء

في وسط الصحراء

الشمس فيها كأمنا الحنون

والليل مهرجان للقمر والنجوم

فاطمة وأنا...

نحتفل بميلاد هذا اليوم

بسمائه الزرقاء...

وريحه... رياحه!...

صعبت عليه المسألة... فلم يجد الكلمة المناسبة فضحك و عاد يتمتم أغنيته:

وسمائه الزرقاء

ورياحه الهوجاء... لا... لا الفيحاء،...

ضحك من هذه التناقضات اللغوية، اتجه صوبي و رمقني بنظرة، ثم قال:

- أتدرين يا فاطمة، أنا في حيرة من أمري!... تارة أراك بعوضة و تارة، كلمح البصر... أراك فتاة صغيرة جميلة ذات جناحين كما شاهدك الآلاف من الناس عندما انقذت لؤلؤ... اقصد ذلك الشاب العنيد... أنت التي أنقذته من الموت... آه... من أنت يا فاطمة؟ أعرف أن التحدث معك بحاجة إلى طفل لم يبلغ من العمر عشر سنوات... وعلي أن أنتظر حتى

تأتي القافلة عابرة الصحراء، لا بد أن يكون لدى امرأة، أم، طفلا صغيرا يجيد الكلام ليعم التفاهم بيننا. أليس كذلك؟

أجبته بإيماءة برأسي أني موافقة على ما قال. فأضاف باسما:

- أنا مسرور الآن... على الأقل أنك تفهمين ما أقول... حسنا، دعينا نعود إلى المنزل لأرتاح قليلا ثم سأريك شيئا فريدا، أنا متأكد أنك لم تره من قبل.

اليوم السابع عشر بعد المائة

أنا الكائنة البكماء، وحدها مع الرجل المجهول في الصحراء... بكماء، بكماء... و شكل قبيح. لكن مضيفي المجهول يرى ببصيرته ما وراء الحجاب. أشكر ربي أم مضيفي ليس أبكما مثلي! و يراني أفضل مما أرى نفسي و جسدي... و قد يحبني!! قال الرجل المجهول:

- تعالي يا صديقة عندي مفاجأة حلة لك!

خرجنا من المنزل. و أمام الباب، تناول فأسا و حفر التراب في فسحة معشوشبة صغيرة. ثم تناول تبتته صغيرة قائلا:

- أتدرين؟ إنها زيتونة... غرسة زيتون... سأغرسها هنا وسوف تصبح شجرة زيتون كبيرة تقدم ظلا ظليلا لعابري السبيل من هنا،... في جهنم هذه الصحراء، وتقدم إليهم زيتونا... أنظري هناك أيضا إلى ساقية الماء الصغيرة، تقدم ماء طاهرا نقيا لكن فلمان. لقد سميتها فاطمة باسمك يا فاطمة. أنت زيتونة ساقية ماء ونور في الظلماء...

صمت برهة، ثم التقى نظرة نحوي، ثم نحو السماء، و نظرة ثالثة إلى أعماقه و قال:

- أنا مسلم يا فاطمة! هذه زيتونة، لا شرقية ولا غربية، كما جاء في القرآن... القرآن يا فاطمة هو الكتاب المقدس عند المسلمين، القرآن يا فاطمة كتاب منزل من رب الناس أجمعين، على رسوله محمد بن عبد الله عليه السلام... هل سمعت بالقرآن؟ فأجبته أن "لا" بحركة من رأسي. فواصل قائلا:

- لقد جاء في القرآن ما يلي: بسم الله الرحمان الرحيم "الله نور السماوات و الأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية و لا غربية يكاد زيتها يضيئ و لو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء و يضرب الله الأمثال للناس و الله بكل شيء عليم" صدق الله العظيم.

- اهتزت روحي و اهتز جسدي لما سمعت ما سمعت و بينما أنا أقلب الأمر، و الرجل المجهول يراقبني حط بلبل قرب الساقية فقال له الرجل مخاطبا:

- مرحبا بك يا زائرنا... يا بشارة الخير... هذا يعني أن قافلة في طريقها من الشرق إلى الغرب وسوف تمر من هنا... هيا أشرب يا ضيفنا العزيز سآتي لك ببعض الطعام.

كنت على الباب و شهدت ما جرى فقلت أخاطب البلبل:

- مرحبا بك أيها الزائر الظريف... أريد أن استمع إلى بعض ألحانك.

دهش البلبل و لما لمحني قال:

- بعوضة هذا؟... يا رب، ما الذي جاء بك إلى هذا المكان! ماذا تفعلين؟ أنت مثلي لا يفهمك الناس إلا بالألحان و الإشارات... ماذا تفعلين هنا؟

- بل قل لي ماذا أنت تفعل؟

- أنا أرافق قافلة، وهي ستمر من هنا... أنا أحب صاحبها وابنه لأنهم حموني من الصقر وأنقذوا حياتي... ولم يحبسوني بقفص... أسافر معهم عبر الصحراء، مع الجمال، لأن السيارات لا تتحمل حرّ الصحراء و الرمال... الجمال كما يقول الناس هم سفينة الصحراء... أتدرين أني أسرع من الجمال؟ أطير فوقها و أسبقها... اسمعي... أنا لا أستطيع الغناء، و علي أن أهرب هناك صقرا و عقاب يطاردني... أنا أسرع منه، لم يستطع الوصول إلي... وداعا.

لما عاد الرجل و بيده بقايا طعام قال بانزعاج:

- أين البلبل؟ هرب! فأومأت إليه. فأردف قائلا:

- كنت أريد أن أسأله عن الأطفال في القافلة أقصد طفلا دون العاشرة... لا بأس، دوما يوجد بالقافلة أطفال من خلف الأعمار... أنا تعب قليلا أريد أن أغفو قبل أن تصل القافلة.

اليوم الثامن عشر بعد المائة

قال لي مضيفي، الرجل المجهول و هو يروي قصة حياته بادئا بقصة حياة أمه:

- أمي فاطمة بدوية، حدث لها حادث، فقد سقطت من الهودج عندما كانت قافلة قبيلتها تمر عبر المدينة، وكان عمرها عشر سنوات فأصيبت

إصابة بالغة في دماغها، مما جعلها متوحشة، تعيش دون أي اعتبار للأخلاق والعادات والتقاليد الاجتماعية، وحاول أبوها وحاولت أمها أن يغيروا من سلوكها دون جدوى. ولما بلغت سن المراهقة وداعبتها عواطف الحب والغريزة بدأت تنظم أشعارا عجيبة. فقد علمت أنها نظمت قصيدة قالت فيها: حبي هو حياتي، ولا أرغب بحياتي بدون حبي، أقتلوني إن قتلتم حبي، فلا حياة لي بعد حبي، و خيار إلا خيار قلبي... و أضافت إلى هذه الأقوال تخاطب أباها الذي أراد أن يزوجها بابن عمها، كما يفعل رجال القبيلة وشبابها، قالت يا أبي إنك لا تفهم أفضل من قلبي... أنا لا أهتم بحياتي بعد أن يضمني حبيبي... فلا تجبرني على أن أربط حياتي بمن تراه أنت مناسبا لي... لا تجبرني... أنا جسد وروح، يمكن أن تمزق جسدي ويمكن أن تحرقه، لكن روحي ليس لك عليها أي سلطان فلا تخطئ بحقي... باختصار كانت أمي متوحشة في حبها، فهي وحدها التي ترغب أن تختار وأن تحب ومع من تمارس الحب و الجنس... و مرت الأيام وأصبح عمرها خمس عشرة سنة، و ذات مرة كانت القافلة تعبر المدينة، فأبصرت أحد الكناسين، وجامعي قمامة وهو يقوم بعمله في تنظيف شارع في المدينة، فاقتربت منه دون أن يعرف بذلك أحد وقالت: فلتكن من تكون، فغير مهتمة بذلك، لكي أحبك، وقعت في حبك منذ أن رأيتك... أنا لا أسألك ما اسمك؟ ولا تسألني ما اسمي؟ الحب يجب أن يكون فجائيا، صاعقا، بارقا، سرعة العاصفة العنيفة... هذا حبي... فنظر إليها نظرة، وألقى مكنسته جانبا وقال: نعم أنا أحبك حبا من أول نظرة، وهو أول حب في حياتي... كما تحبينني حب مجهولة لمجهول، لا يتأثر بأي عادة أو تقليد... فذهبا معا إلى

زاوية في حديقة المدينة، ومارسا الحب، وحملت أمي بي منذ تلك اللحظة... تركته وعادت إلى القبيلة بعد أن أخبرته أن القبيلة ستقتله إن علمت بما فعل... وأضافت تقول له: أنا لا أهتم بحياتي... فموتي وحياتي سيان، أحدهما مثل الآخر... ولم يدر أحد بما فعلت، وتظاهرت بأن بطنها يؤلمها وتعاني من الغازات في معدتها وأمعائها... وهذا حفاظا على حياة الجنين، الجنين الذي هو أنا... ولما مضت الأشهر التسعة، وعرف أبوها وحكماء القبيلة قرروا أن يقتلوها رجما... وفي اليوم المحدد، استيقظت أمي قبله بيوم، ليلا، وزحفت على ركبتيها، حتى خرجت من الخيمة وخارج المكان الذي كانت القبيلة قد حطت رحالها فيه... حتى لا يراها حراس الليل... ووضعتني، ثم حملتني و وضعتني على كومة القمامة قرب كلبة وضعت قبل قليل. ولما عادت إلى الخيمة، علم رجال القبيلة بما فعلت فقرروا أن يرجموها ليلا. حفروا حفرة لها، ثم أمسك بها أبوها وأخوها ليقنادوها إلى الحفرة. لكنها كانت أسرع، فقد جرحت معصمها بسكين، وراح الدم ينزف، طبعا ليلا، فلم ينتبه إلى ذلك أحد. ولما وصلت إلى الحفرة، كانت قد فارقت الحياة. وتحت ضوء الشمعة، شاهد الجميع ابتسامتها بعد موتها، فقرروا أن لا يرجموها... لكني لا أدري شيئا عما حدث بعد ذلك، إلا قصة أحد المسنين الذي اكتشف أني لم أمت، وأن كلبة أرضعتني، فأخبر أحد أصدقائي وبذلك علمت كيف جئت إلى هذه الحياة.

توقف المضيف للرجل المجهول عند هذه النقطة وراح يبكي.

اليوم التاسع عشر بعد المائة

منذ الصباح أشرت عليه بأن لا يكلمني و أني أريد أن أنفرد بنفسي، فقال معلقا:

- كما تريدين يا فاطمة... أشكرك على أية حال، في الحقيقة أشعر وكأن همومي انشطرت إلى شطرين: تلاشى بعضها عندما أصغيت علي بقلب مفتوح... شكرا مرة أخرى... لكن البشر، آه من البشر يا فاطمة، عندما يعلم أحدهم أني رضعت من كلبة، سيجد في كل سيئ أقوله آثار الكلبية ليجردني من صفات الإنسان... لا يرق لهم قلب خاصة أن الكلب حيوان لا يرغبه أغلب الناس في المدينة، مع أنه أكثر وفاء منهم... سأراك قريبا...

قال هذا وغدر الغرفة. أنا الآن وحدي... إيه لو مارست الحب مع لؤلؤ كما فعلت أم مضيفي لكان مصيري الرجم... الرجم حتى الموت... إذا كان لي شكل البشر... آه متى يرفع عني الرب هذه اللعنة... لكن إذا رفعت تحل لعنة أخرى... لعنة الرجم... إذا... إذا... ماذا؟... و الحب! أي حب!! الحب المتوحش... هذا هو الحب الحقيقي حب بلا تدخل أحد، بلا تقاليد الحب نفسه، آه! لكنهم... سكان المدينة يرغبون بالحب المتمدن... ها! يا للسخرية!!

وتابعت أحدث نفسي... فإذا قتلت و أنا بعوضة فإن روحي تعود إلى بعد مغادرة جسدي!... أما إذا قتلت وأنا كالبشر فمصيري القبر، في حفرة يردمون التراب على، حتى تأكلني... آه... لا أدري أصحيح أن الديدان... ثم سمعت بيوم البعث لكل البشر...

مرّت في مخيلتي مواكب الجنازات والدفن،... فاقشعر بدني وقلقت روحي... آه! ان خلقت لأعيش دهورا... لم يكلمني الرب عن الموت عندما خرجت من الجنة...

بكيت...! رحلات إلى منابع الحب والموسيقى والشعر ودروسي التي أعطيها لحيوانات الجنة وأسماكها... صعدت إلى سطح المنزل. كانت النجوم وحدها في السماء الصحراوية الساكنة، الهادشة والصمت المطلق... وكان الهواء عليلا. وبعد هذا كله؟ أنا إلى أين؟ سألت نفسي الآن... أفهم أن حبي للؤلؤ مهزلة! إنه حب بلا معنى بلا أساس بلا نكهة...

عدت إلى البكاء... ثم غلبني النوم... رأيت آدم و حواء في نومي. نظرا إلى نظرات عتاب وتساؤل! لم ينبسا ببنت شفة... ارتسما للحظات على صفحة السماء ثم تلاشيا...

آه يا نفسي المعذبة

بحثت عن النور

فوجدتك أيها المجهول

أنت الشعاع الذي أضاء الطريق

طريق حياتي المعذبة! قوة الحياة تدفعني دون توقف

كان الرعد والراكين خلفها

إلى أين يا فاطمة؟

على أين...

من يدري؟

من يدري؟

اليوم العشرون بعد المائة

قال المجهول الذي أود أن أسميه "الناسك" كما أسماني "فاطمة". قالت العرب أن الجمل سفينة الصحراء... وبما أني لا أملك جملا، فقد صنعت سفينة الصحراء. تعالي وأنظري يا فاطمة. كانت السفينة التي تتسع لشخص واحد فقط وقد صنعت من جذوع شجر النخل، ربطت ببعضها بحبال رفيعة ومجهزة بأشرعة إذا ضربتها الريح، انزلقت على سطح الرمال والكثبان.

ركبنا معا. فتح الأشرعة وعدلها وتفحص الحبال التي تثبت جذوع النخل ثم قال: هيا، بسم الله بسم الله مجراها ومرساها. تحركت السفينة الصغيرة ثم انطلقت ببطء تارة وبسرعة تارة أخرى. ابتهج أيما ابتهاج والريح الساخنة تلفح وجهه. تقدمنا عبر الصحراء الخالية، ولم ندر أننا قطعنا مسافة لا بأس بها. كانت الريح تسوي الأخاديد التي تصنعها السفينة على سطح الرمال. نظرت على الخلفان فإذا بمنزلنا قد اختفى من الوجود. حاولت أن أخبر الناسك مضيفي الذي كان مشغولا بتوجيه الشراعين والتحكم في وجهة السير، لكن أحد الحبال انقع فتوقفنا عن السير. ترحل من السفينة، وحاول إصلاح ما أفسدته الريح فلم يستطع. بدأت معالم التعب تظهر على وجهه بجانب مسحة من القلق لم يستطع إخفاءها. ولما ينس من إمكانية إصلاح السفينة تلفت حوله فإذا نحن وحدنا. قال:

- أين نحن يا فاطمة؟... آه أنا عطشان... كنت أحلم بصنع سفينة لتعفي الجمال من مشقة السفر وحمل الأثقال عبر الصحراء دون محركات نارية... أما الآن؟؟

أشرت عليه بأنني أريد الطيران و التحليق عاليا فقال:

- لك ما شئت... على الأقل كي نعرف طريق العودة. ارتفعت في الجو فوق المكان، واستطعت أن أرى المنزل من بعيد. هبطت بعد ذلك إليه وأشرن إليه بأن يتبعني. ففعل. سرنا معا: كنت أطير ببطء و هو يسير على الأرض و كانت قدماه تغوصان في الرمال من وقت لآخر.

عندما وصلنا، كان صديقي على آخر رمق قال:

- أنا عطشان يا صديقتي الذكية

- ثم توجه مباشرة إلى المطبخ أين تناول جرعة من الماء البارد من الثلاجة العاملة بالطاقة الشمسية. شكرني، استلقى على الأرض، أغمض عينيه و غفا. لم أكن أشعر بالجوع لكني تناولت بعض الماء. وقفت قربه على الجوار ورحت أتأمله باسمة. وغنيت لنفسي:

صديقي يفتد طريقه

في صحراء تطبخه وتسلقه

ركب سفينة صنعها

لم تلبث أن خذلته

لكن بعوضة أنقذته

على الطريق دلته

و على بيت الأمان فادته

*****

بعوضة... بعوضة هي أنا

البعوضة هي نفسها ضائعة

في أنحاء الأرض الأربعاء

لا بيت لها و لا سكن

لا تحمل شيئا

لا تملك إلا حبا غامضا

يندثر ثم يحيا كأنه نجم ولد لتوه!

اليوم الحادي والعشرون بعد المائة

- لدي حلم ...

هذا ما قاله صديقي الناسك بعد أن استيقظ من نومه.

- فبالأمس، بعد أن أنهكني العطش و الحرارة، حلمت أني رأيت بني البشر يسيرون و يعملون ويلعبون على أرض هذه الصحراء كما لو كانت أرضا عادية ، معتدلة الحرارة. رأيت أناسا كثيرين و قد ألصقوا على أجسادهم خلايا تعمل بالطاقة الشمسية تمد كل منهم بالبرودة اللازمة في أوقات الحر، و بالدفء المناسب في أيام البرد ... إني لا أدري كم تحتاج البشرية لإنجاز هذا الاختراع ! اعتقدي أن حياتي لن تمتد إلى رؤية ذلك اليوم ... لكن بما أنك كائن خالد، فبإمكانك أن تعيش لترى صديقا آخر، لا

أنا، يرفل بالبرودة اللازمة لجسده و هو تحت أشعة هذه الشمس اللاهبة .... أي أن تصبح الشمس صديقة ودودة للإنسان تقدم له حسبما يرغب ما يجعله يعيش سعيدا صيفا و شتاء.

ثم وجه كلتا عينه نحوي وسألني :

- هل فهمت ما قلت؟

- فأومأت إليه بأني فهمت فتبسم ضاحكا، شرب بعض الماء و نحن نراقب معا غروب الشمس والاحتفال السماوي الذي صنعته أشعتها عند الأفق البعيد. ثم:

- إن حلمي مازال جنينا، يمكن أن يسخر الناس مني إن سمعوا ما قلت لك، تماما كما سخروا من أن كلبة أرضعتني، وبذلك بقيت على قيد الحياة ... ويمكن أن تتخيلي معي أفرادا تحمل أجسادهم مثل هذه الخلايا يجوبون المناطق القطبية و يلعبون مع الدببة القطبية و طيور البطريق و غيرها ..

نادته العنزة بصوتها الرقيق اللطيف الذي أحببته منذ أن سمعته لأول مرة. فنهض صديقي وهو يتمتم لنفسه :

- العنزة تناديني لأخفف العبء عن ضرعها المليئين بالحليب.

- عاد بعد قليل و قد غطت وجهه مسحة من البهجة و الفرحة حاملا إناء مليئا بالحليب . ثم قال:

- أتدرين عندما تصل القافلة سأذهب مع بعض الرجال لإحضار السفينة التي صنعتها والتي يمكن أن تكون الرمال قد غطتها ...و ... و

سأحاول أن أعلم رجال القبيلة نساءها كيف يصنعون مثل سفينتي ... عسى أن يستطيعوا بذلك أن يريحوا الجمال من حمل أثقالهم عبر الصحراء ... و لكن ... آه .. نسيت ... لكن ماذا سيفعلون بالجمال !! إني أتساءل؟ أظن ... أظن من الأفضل أن يحتفظوا بإناث الجمال من أجل الحصول على حليبها الذي له خصائص مفيدة للجسم، تساعده على تحسين المناعة لديه. أما الذكور، ... وأيضا الإناث من الإبل فيمكن، حسبما أتخيل ، أن يصنع لها ... هودجا جميلا من الحرير و اللؤلؤ، لنقل المحبين في شهر العسل عبر الصحراء ... وأيضا يجب أن لا أنسى فكرة تنظيم مباريات ملكة وملك جمال البشر ... كل ذلك يجب أن يجري هنا في الصحراء، وقد جهزت الأجسام كلها بالخلايا المعدلة للحرارة كما أخبرتك قبل قليل ... ايه ! لا أدرؤي يا فاطمة إن كانت حياتي ستمتد إلى ذلك اليوم الي أرى فيها حلمي وقد أصبح حقيقة واقعة ... لا ادري، فحياتنا بيد الله سبحانه وتعالى ... على كل لنترك جانبا الأحلام، كي أخبرك المزيد حول طفولتي.. لقد بدأت و لم أنته بعد.

اليوم الثاني و العشرون بعد المائة (122)

قال صديقي:

- أريد أن أخبرك المزيد عن حياتي يا فاطمة. فما رأيك؟

- فأجبته بإشارة من رأسي بأني موافقة. فقال:

- كانت البدوية التي أنقذتني مكن القمامة أرملة و عندها ثلاثة أطفال، احـدهما صـبي. وقـد أحبتني حبـا جمـا فكانـت تنعتني بالاسـم الـذي اختارتـه لي وهـو (حبيـب قلبي)، فتشـدد على مخـارج حروفـه وتطيـل أحـرف العلـة عنـدما كانـت تنـاديني أو تعـاتبني على شيء فعلتـه ولـم يعجبها. بهذا خففت الكثير من الشعور بالغربة والعزلة الذي عانيت منه كثيرا وأنا أتعلم عـادات حياة البشـر، فمثلا أن اشرب الماء بالإناء أو الكأس ولـيس لعقـا وأن أسـتعمل الملعقـة في تنـاول الأرز أو البرغـل. لكـن ابنهـا تضـايق مكـن اهتمـام أمـه الزائـد بي و عطفهـا الحـار علي، فصار يقول مناديا: (يا حبيب كلبي) مع أن هذا التغيير في الأحرف كان يغضـب أمـه فلـم أكـن أبـالي أو أتضـايق، وذلـك لأنـي أعلـم أن كلبـة أرضعتني و أنقذتني من الموت. و عندما كبرت كثرت الألقاب و الأسماء المـأخوذة مـن حـالتي وظـروف نشـأتي.كـان بعـض الشـباب يلقبـونني (بالشـاطر الكلبي)، وأحـد الرجـال قـال أنـت في الحقيقـة (كلـب بشري). أما أغرب الأسماء فكانت من صنع معلم مدرسة و هو (كلسـان الطيـب) و (كلسـان) هي كلمة مركبة من (كل) من الكلب، و إنسـان المقطع الأخير (سـان)، فتصـبح (كلسـان) و أضـاف إليهـا صـفة الطيـب. و لـم يشـكل ذ=لـك عـبء علي، فلـم أتـأثر بهـذه الألقـاب، فقـد كنـت "أنـا" هـو "أنـا" فكأن الانتقال من العيش في معشر الكلاب إلى معشر البشر قد منحني مناعـة ضـد الهازئين و الكارهين لي. هـذا و تعلمـت اللغـة بسـرعة فائقـة أثـارت دهشـة الكثيرين ولكني وجـدت صـعوبة كبيرة في فهـم المغـزى أو المعنى المبطن للكلمات والعبـارات. مثلا عنـدما كان أحـد الكبـار يصـرخ

غاضبا من الأطفال لأنهم فعلوا شيئا لا يريده كان أحد الأطفال يهمس لي : "لا .. لا هو ليس غاضبا، هكذا ... يتظاهر بالغضب" فكنت أسأل : كيف؟ لكن الأطفال كانوا يفهمون شيئا أعمق مما أنا أستطيع أن أفهمه . فإذا قال شخص " أنا أحبك " كان أحد الأطفال يقول : " لا تصدق ... هو يقول هذا لأنه يريد لأنه يريد أن يحصل على شيء منك، أنت لا تريد أن تعطيه إياه ! فالمعنى المضاعف للكلمة كان يحيرني. غالبا ما كنت أمي و الأطفال يبتسمون ساخرين من سذاجتي اللغوية ويكررون أن الكلمات التي يقولها الناس لها عدة معاني، ويجب أن أتعلم التمييز بينها. و حدث ذات مرة أن قال طفل لي :"يا ابن الكلبة " فلم أغضب فأنا فعلا أنتب إلى كلبة أرضعتني و أبقتني حيا. و بكل بساطة قلت له: " و أنت ابن كلب ما رأيك؟" فهجم علي وشج جبيني وأنا أفهم سبب غضبه، فقد كنت أعتقد أن في الكلاب خصلة إنسانية و عاطفية فريدة كما أن عند الأشخاص خصلة كلبية ... وهذا ممكن حسب رأيي، لكنهم لم يقبلوا ذلك.

باختصار يا فاطمة، يا ضيفتي العزيزة و يا صديقتي، كنت في الكثير من الأمور متقدما على أقراني صحيحا أني كنت شاحبا و نحيلا لكني كنت سريع العدو، أسبقهم جميعا فلا يملكون إلا أن يقولوا ساخرين (حبيب كلبي) كنت و مازلت أشم رائحة الكحول و المخدرات عند .. أي إنسان من على بعد ثلاث ين مترا و أحيانا من على بعد خمسين مترا إذا كانت الريح مواتية. و ذات مرة بينما كان ضابط جمارك يفتش البيوت و الحقائب بحثا عن المخدرات قلت له: " أنت تحمل مخدرا في جيبك الأيمن داخل

جيبك الكبير ". ولما فتشه رئيسه، وجد القطعة كما قلت له. فأعطاني مكافأة على ذلك و قال: "سأرى كيف يمكن أ، أوظفك في مطار المملكة للكشف عن المخدرات." لكن شيئا من هذا القبيل لم يتم، لأن أفراد الشرطة في المطار يتعاطون المخدرات سرا، و أنا أستطيع أن أكشفهم بسهولة. المهم بعد أن حصلت على المكافأة، ترصدني رجل الجمارك وأشبعني ضربا ولكما.

ذات مرة يا فاطمة اقتحمت منزلا اشتعلت فيه النيران وأنقذت ثلاثة أطفال من ألسنة اللهب. حملت احدهم بيدي اليمين والآخر بيدي اليسار والثالث بأسناني. فبكى والدهم وأعطاني مكافأة مالية قدمتها لأمي التي أنقدتني من بين الكلاب."

توقف عن الكلام عندما سمع الدجاجة تناديه وقال:

- اسمعي إنها تناديني لأنها وضعت بيضة. آه يا فاطمة ! تمنيت لو كنت أستطيع أن أضع بيضا كالدجاجة، ليستفيد منه الجائعون .. لكن ليس بوسعي هذا ... كل ما أملك هو حلم داخله حلم، داخله حلم.

- ونهض ليتفقد صاحبة البيضة.

اليوم الثالث والعشرون بعد المائة

شكرا لك يا صديقي. أنك تعلم شيئا عن الكلاب و بعض الشيء عن البشر، لكنك لا تعلم شيئا عن البعوضة. لذا حكمتك منقوصة و عالمك بعيد عن الكمال.

عنزتك حلاّبة ودجاجتك بيّاضة ... أما فلدّاغة.خلقني الرب لألدغ. لكني قررت لنفسي و بنفسي أن لا ألدغ من أحب، ... أنا لا أحب إلا من يحب. ألمحك تارة فأحبك وألمحك تارة أخرى فينمو حبي. تلمحني يا صديقي فتحبني تارة، و تلمحني يا صديقي تارة أخرى، فيشمئز قلبك مني ...

أنا أعلم، أنا أعلم ... لقد شاء الرب أن لا تسمعني، لقد شاء أن لا تفهمني.

فلننتظر الطفل لينقل الحكمة والحب إليك، ... أما أنا فقد استلكت رسالتك ... وانتظر ...

هذه نجمة الصباح تتألق ترنو إلينا ... باسمة ، صامتة ، ووحيدة في هذه الصحراء التي جف بها كل شيء... إلا حبي ...

كان هذا خطابي لهذا اليوم.

اليوم الرابع والعشرون بعد المائة

القافلة تقترب وكلابها تعوي. صديقي يهش ويبش كلما طرق أذنيه نباح كلب. عندئذ هو يتذكر الكلبة الحنون التي سبق أن أرضعته وأنقذت حياته. أما أنا فبقيت اليوم داخ المنزل؛ هيأت الكلمات والأفكار التي أريد من سليمان أن يترجمها.

ها هو صديقي الناسك يخرج من البيت يستقبل القافلة و زعيمها، التي حطت الرحال غير بعيد عنا، و لما ألقيت نظرتي الأولى عليها خلال النافذة، بدت لي كتلة متماسكة و متراصة من البشر و الحيوانات

والأمتعة، تحركت ببطء وسط صحراء ملتهبة، مترامية الأطراف، لا ترحم أحدا.

هرع الجميع إلى البئر. شربوا من مائه، غسلوا و اغتسلوا و سقوا حيواناتهم التي كاد بعضها أن يهلك من العطش.

تقدم زعيم القبيلة نحو مضيفه و تبادلا عبارات المودة و التحيات الحارة، بعدها قال صديقي للناسك :

- أنا بحاجة لولدك سليمان يا أخ العرب.

غطت سحابة من الدهشة و الاستغراب وجه الزعيم الأشيب، لمس عقاله و قال:

- خير إن شاء الله ... هو في خدمتك يا أطيب الناس ... لكن لماذا؟ ما الأمر؟

- ثمة أمر هام ، بودي أن يساعدني على إنجازه.

فعلق الرجل بمزيد من الدهشة قائلا:

- عجيب يا شيخنا ! ابني الذي لم يتم الثامنة من عمره بعد ، يساعدك في أمر هام ، ما هو؟ إذا سمحت لي يا سيدي أن اسأل :

- لأنه صغير السن، أنا بحاجة اليه

- كيف؟ أنا لا أفهم ... الطفل أيها الشيخ الجليل، مخلوق جاهل ، لم يتعلم بعد أمورا وأشياء كثيرة... إبني دخل المدرسة بضعة أشهر ثم غادرها لنرحل إلى الغرب بحثا عن الكلأ بعد أن طل الجفاف في المنطقة الشرقية من بلدنا ... إنه بالكاد يستطيع أن يكتب اسمه بدون ارتكاب خطأ ...

- اعرف ذلك يا عزيزي ... لكن أتدري أن قلبه أبيض، صاف، بريء من الذنوب و أفعلا المنكر و الشر ...

- أتقصد أننا نحن الكبار قلوبنا غير بريئة ! غير صافية؟

- أتدري ن أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قلا: يولد الطفل على الفطرة، فطرة الله، الطاهرة البريئة من كطل ذنب، التي ... التي لا تعرف إلا الخير.

- صحيح ما قاله رسول الله ﷺ ... لكن في الحقيقة يا شيخنا المحترم .. أنا لا أعرف معنى الفطرة !!

- أقصد ... أقصد أن ابنك يستطيع فهم لغة الحيوانات و الحشرات لكننا نحن الكبار عاجزون عن ذلك.

قهقه الضيف ساخرا ، و أردف قائلا

- هناك مثل يقول : خذوا الحكمة من أفواه المجانين و الأطفال ... على كلّ ، إذا كانت هذه رغبتكم ، لا مانع لدي ... مع إني غير مقنع بالمسألة برمتها .

ثم استدار و نادى ابنه الذي كان يلعب بالرمال مع أطفال آخرين :

- سليمان ... سليمان ... تعال إلى هنا ... اسمع الشيخ إبراهيم بحاجتك لتخدمه ..سامع؟ أفعل كل ما يطلبه منك ، و لا تخالف أمره أبدا في أي شيء مفهوم؟ و عاد إلى الشيخ قائلا:

- إذا عصى لك أمرا فعليك بالعصا ...

نهض من مكانه و تابع:

- عنـدي بعـض الأشـغال ، منهـا سـأحلب النعـاج هـذا المسـاء ... و لـك حصة من حليبها و قشدتها و زبدتها ...

- شكرا لك ... شكرا جزيلا.

اليوم الخامس و العشرون بعد المائة (125)

سليمان الصغير ، حبيبي:

نجوم الصحراء في عينيك

وقمرها في وجنتيك

شمسها سمرتك

و رياحها طهرتك

و بسمتك ... آه ابتسامتك:

كتلك التي عند الذي أحببته

عندما كنت في الفردوس بصحبته

وحالما انتهت قال الطفل:

- شكرا لك ... أنا أحب الأغاني

- هل غنت لك أمك من وقت لوقت؟

- أحيانا ... لكن هذه أغنية حلوة ، كثير كثير ...

- سأغني لك كثير من الأغنيات و أنت هنا..

و تدخّل الناسك قائلا

- أنت تفهم لغتها يا سليمان بينما أنا لا أسمعها و لا أفهمها ... لهذا أردتك أن تأتي لتكون معنا ... فما ذا قالت لك بالضبط الآن ... هل غنت لك أغنية؟

فأعاد سليمان الأغنية تماما كما هي دون أن يخطئ

- أحسنت ... و الآن لنبدأ يا صديقي ... هيا أخبرني بالتفصيل عن قصة حياتك، كما فعلت أنا ...

غير أن سليمان قال:

- و ماذا تعطيني يا عم مقابل الترجمة؟

فرد الناسك بدهشة:

- أتريد أجرا؟

- أمي قالت من يعمل خيرا يعطيه الله قصرا في الجنة ، و تعرف أن أبي سيقدم لك هدية ... حليب و قشدة و زبدة ... أنا؟

- ماذا تريد ؟عندي فلوس يمكن أن تأخذ منها ما تشاء:

- لا .. لا ..

- إذا ما ذا تريد؟

اطرق سليمان قليلا ، فكّر ثم دبّر ، ثم قال:

- أريد أنه تعلمني ..

- ما ذا تريد أن تتعلم؟

- علمني كيف صنعت الكهرباء من الشمس ، و كيف جعلت هذا المكان باردا والصحراء تلتهب كالنار حولنا. فضحك صاحبي مما سمع ، وقال:

- عظيم ! ... سأفعل ذلك ... لكن نحتاج الوقت و القافلة سترحل بعد أيام ... لا بأس دعنا نبدأ الآن، فضيفتي هذه التي هي أمامك، أريد أن أعرف قصة حياتها ، ... قصة حياتي ، لكن لا أعرف شيئا عنها ..

- أولا أنا متعجب يا عمي ، أنظر إليها تارة فتظهر بعوضة ، ثم أنظر ثانية فتظهر لي كأنها فتاة صغيرة. هل هي جنية؟ أمي تقول أن الجنيات هنّ هكذا ..

- لا .. لا .. ليست جنية ، دعنا الآن نستمع إليها .. هيا نبدأ .

اليوم السادس والعشرون بعد المائة

جلسنا نحن الثلاثة في ضوء القمر. كانت الصحراء ساكنة و القافلة نائمة. سألت القمر : هل أخبر صديقي بما لا يعرفه عن حياتي ؟ فهز القمر رأسه و ابتسم مسرورا . سألت نجمة الصباح : هل أخبر صديقي بما لا يعرف عن حياتي ؟ فزاد تألقها و توهجها. أما الريح التي قرأت ما في قلبي دون علمي فقدمت نسمة باردة لطفت جو الصحراء الحار . قلت:

- سليمان ، هيا نبدأ ... أرجوك يا حبيبي الصغير أن لا تحسّن و لا تقبح ما تسمعه مني ، كما لا تزيد و تنقص شيئا منن كلماتي و أقواي .

هزّ سليمان رأسه موافقا وقال:

- أنا لا أترجم أنا ... أكرر ما أسمعه منك لأن صديقك لا يستطيع سماعه ولأُفهم ما تقولين علنا أو غير ذلك ...

قلت :

- أحسنت ، و شكرا ... أقول : في البدء كنت في العدم ، لا وجود لي و لا حياة، مع لك وقع لا رب في حب ليخلقني ... اختار كومة من تراب الجنة و قال مخاطبا إياها : " أمرتك أن تكوني فتاة بشرية ذات جناحين " . هكذا كنت . و أردف يقول : سميتك بعوضة. لذا يا صديقي كما ترى ، أنا لست مثلك، لا أب أنجبني و لا أم و لدتني و لا أحد أرضعني . أني الآن في عمقي كما كنت عندما خلقني الرب ، لم أنمُ ولم أزد أو أنقص ، ما عدا شكلي الذي أصبح شكل بعوضة. سأخبرك فيما بعد لماذا حدث هذا . المهم إني كنت قبل التحول فتاة صغيرة في غاية الجمال، و ذات جناحين ذهبيين ... و أهداني الرب قصرا في غاية الروعة، كان معلقا في الفضاء فوق نهر تجري مياهه براقة فضية ، بهدوء عجيب . و كان يحلو لي أن أنطلق من شرفة القصر فأحلق فوق مروج الجنة و زهورها و غاباتها و بحيراتها التي تفوح منها رائحة عطرة ليس له مثل هنا على الأرض .. عشت في قصري طويلا ، و كنت سعيدة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معان .

وذات يوم ....

جاءني ملاك مجنح ، حط على الشرفة و خاطبني قائلا : " إن الرب يريد منك أن تعلمي سكان الجنة الأنغام و الألحان و الشعر و الحب " ... فالجنة خرساء و هذا لا يعجب خالقها . قلت:

- لكني لا أعرف شيئا عن الموسيقى و الشعر و الحب

فرد الملاك قائلا:

- الرب يعرف هذا ، لذا فهو يأمرك أن تقومي برحلة غلى المنابع الثلاثة للموسيقى و الشعر و الحب . وهناك ستتلقين منها ، تعودين لتقومي بتعليمها للحيوانات و الطيور و الحشرات و زهور الجنة وأشجارها.

قلت: لكن كيف أسافر إلى هذه المنابع الأبدية، و الطريق طويل بلا شك؟

قال: سيعينك الرب كي تقومي بالرحلة

وفي لحظات نصب لي طريق من النور الأبيض ، امتد من شرفة قصري إلى ما لا نهاية.

و سافرت ....

و هناك عند تخوم الأبدية ، استقيت من الألحان ، و الأنغام و الأشعار و تعلمت معنى الحب ، و صرت قادرة أن أعزف لحنا موسيقيا مهما كان ... بجناحي.

و هنا قاطعني سليمان:

- يا بعوضة ، أنا أريد أن اذهب إلى الجنة ، لماذا تركتها و جئت إلى الصحراء ؟ .. أقصد الأرض؟

- سأخبرك بعد قليل ... و الآن دعني أتمم قصتي لما عدت شرعت في تعليم العصافير و الطيور و الفراشات و مختلف الحيوانات و الأسماك ما تعلمته من منابع الموسيقى و الشعر و الحب . و بهذا أصبحت الجنة أكثر نشاطا ، فأينما توجهت تجد من يعزف أو يغني أو يردد أشعار الحب والمودة و الصداقة. ودام هذا سنوات لا تحصى ... وذات مرة كنت أحلق فوق أحد المروج ، قرب أحد الأنهار الرائعة، فوقع بصري على كائنين

جديدين جالسين تحت شجرة التفاح، ثمرها كأنه مصابيح ضوئية تتألق بمختلف الألوان . اقتربت منها وجدتهما يعزفان لحنا لحنا حلوا. تطلعا نحوي و ابتسما لي، و أشارا أن أهبط ففعلت.

- من أنتما ؟ لم يسبق قط أن رأيتكما من قبل؟

فأجاب أحدهما:

- أنا آدم و هذه حواء زوجتي .

- ومن أين جئتما؟

- خلقنا ربنا منذ مدّة قصيرة.

وقالت حواء:

- ومن أنت؟

قلت:

- أنا بعوضة ، خلقني الرب منذ سنين عديدة

اليوم السابع والعشرون بعد المائة

كما ذكرت لكما البارحة، كان المخلوقان الجديدان : آدم و حواء . فرحت بلقائنا لأن هيئتنا الجسدية واحدة و نتكلم لغة واحدة . و بعبارة واحدة تعارفنا ، تصادقنا ثم أصبحنا أحبابا. غنيت لهما و عزفت ألحانا رائعة بجناحي ، و قرأت أشعار الحب مما تعلمته من المنابع الأبدية للموسيقى و الحب و الشعر.

- أجل ! أجل ... لقد شهدت بداية البشرية

لكني أدعوه أن لا أشهد نهايتها

وأدعوه أن يؤجل نهاية البشرية إلى ما بعد وجودي، مضى زمن طويل، خلت أثناءه أنّ سعادتنا تدوم إلى الأبد. هنا في الجنّة لا موت ولا مرض ولا حزن و قلق بل الفرصة تتلوها الفرصة بدون قيود أو حدود. لكن يا لخيبة الأمل الكبير ! فقد طرأ أمر نغّص حياتنا و أدى غلى ما لا تحمد عقباه. فوجه حواء المتلألئ الذي تظله دوما ابتسامتها الساحرة بدأ يتغير شيئا فشيئا. و مسحة من التجهم و الحزن و القلق راحت ترتسم على محياها . سألتها عمّا فلم تجبني . طفقت تغوص في صمت مريب و تتحاشى لقاءنا أو الجلوس معنا. قال لها آدم و هو في غاية القلق : يا حواء ، يا حبيبة قلبي وعيني نحن في جنة الخلد ، في خضم السعادة الأبدية ، فلم هذا الحزن، فلم تجبه ، و نأت بوجهها بعيدا ... مضى زمن لا أدري كم مدته و حواء تتحول من أسوأ غلى أسوأ . و أخيرا تكلمت بحذر شديد قالت: يا بعوضة ، يا صديقتي العزيزة على قلبي اشعر أن حياتي رتيبة هنا . كل شيء يتكرر صباحا مساء ... لا حب جديد و لا ألحان جديدة و لا أشعار تحرك أوتار قلبي .. أشعر كأني في سجن ... صمتت قليلا ثم أردفت تقول : آه يا صديقتي، ليت لي جناحان كجناحيك فأسافر بهما إلى الينابيع لأعرف من الحب والموسيقى و الشعر ما يملأ قلبي و يجدد حياتي و أيامي ... انظري .. . أنا لا أملك إلا قدمين ليس بمقدورهما نقلي إلى أبعد من المرج المجاور ... أما أنت فتطرين ، .. تحلقين ، تسافرين كل يوم حيثما شئت، بعيدة أو قريبة ... أما أنا ! ....

بكت حواء وبكى آدم وبكيت معهما... وبعد تفكير طويل اهتديت إلى حل.. أن أقوم برحلة ثانية إلى الينابيع وآتي لحواء بألحان جديدة وأشعار

جديدة وحب جديد. أعجبت حواء بالفكرة لكنها استدركت قائلة: يا ليتني أستطيع أن أرفقك ! وافق الرب على الرحلة، فنصبت الملائكة الطريق من الضوء الأبيض المتوهج، امتد مم شرفة قصري إلى الينابيع . وباختصار شديد ، بإذن منكما أنجزت الرحلة على أحسن ما يرام. وقلت في نفسي وفرحة كبرى تغمر قلبي : ستعود السعادة غلينا كما كانت ، الشكر لك يا رب .

و عدت أدراجي ... لكن في طريق عودتي استرعى انتباهي أن طيور الجنة و عصافيرها و حيواناتها كانت صامتة ، فلا زقزقة و لا تغريد و لا أحاديث وهمسات اعتادت الحيوانات هناك أن تستقبلني بها ... كما اختفت البهجة، التي ما بعدها بهجة، من الزهور و المروج و الأشجار ... ثمة معالم حزن دفين في كل مكان. آه ايا رب ماذا حدث !؟

وفي المكان الذي اعتدنا على اللقاء به لم أعثر على أثر لحواء و لا لآدم . توجهت نحو قصرهما ، ثم هبطت بالقرب منه . آه ! يا لهول ما رأيت ...

كان القصر محاطا بملائكة غلاظ شداد منعوني من الدخول والاقتراب من القصر ... كان آدم و حواء هناك محاصرين ، وقد نزعت عنهما ثياب الجنة ، ... في حالة يرثى لها ... بعد بعض الوقت أرعدت السماء وزلزلت الأرض وسمعت صوت ملاك يخاطبهما بغضب شديد ... " يا آدم ! يا حواء ! لقد خالفتما أمر الرب فأكلتما من الشجرة التي حرّمها ربي عليكما ... لذا أمر ربي أن تطردا من الجنة إلى الأرض حيث تعيشان وذريتكما وتموتون ... حتى يوم الحساب ثم تحاسبون على ما فعلتم سواء أكان خيرا أم شرا .

اختفى القصر بلمح البصر ، واختفت الملائكة أيضا ، كنت وحدي ... فرحت أبكي ثم أبكي ثم أبكي، وارتميت على الأرض في غيبوبة ... ثم أفقت على صوت ملاك راح يخاطبني بود ولطف . لكني قاطعته قائلة : لماذا أحرم من أحبائي؟ لماذا ؟ .. وقال الملاك : لا تحزني يا بعوضة ... لا تحزني فقد خلق ربي لك قصرا لا مثيل له، ستعيشين فيه سعيدة مكرمة إلى الأبد ... تعالي معي .... نهضت، ألقيت نظرت غاضبة و قلت معترضة: لا ..لا.. لا أريد قصرا أريد آدم و حواء ... فرد الملاك قائلا : هذا غير ممكن ... لقد خرجا من الجنة ، وهما الآن في كوكب الأرض . تملكني غضب شديد ، فانفجرت باكية مولولة : هيا دلني على الشجرة المحرمة ، أريد أن آكل من ثمرها كما أكل آدم و حواء ... ألحقني بأحبائي ... يا رب ... وما كدت أكمل عباراتي حتى سمعت صوتا آخر يخاطبني من السماء لقد غضب الرب عليك ، فأمر أن تتحولي إلى حشرة ، وأن تطردي من الجنة إلى الأرض ، وأن يصبح طعامك من دم البشر ، تفهمين لغتهم و لا يفهموك ، تحبينهم لكنهم يكرهوك ...

عندما فتحت عيني وجدتني في مستنقع على هذه الأرض .

اليوم الثامن و العشرون بعد المائة

كان يوما جميلا معتدل الحرارة، بدأته بالسؤال حول حبيبي آدم و حواء فقال صديقي الناسك :

- في الجنة لا وجود للموت . الوجود هو الحياة هناك. لقد خلق أهل الجنة ليبقوا إلى الأبد على قيد الحياة. آدم و حواء أصبحا من أهل الأرض فماتا منذ زمن بعيد لا يعرف إلا الرب مداه .

صمت طويلا ثم استأنفت :

- أما أنت فمازلت من أهل الجنة مع أنك هنا على الأرض منذ دهور و دهور. أنت هنا لتقضي فترة عقوبة فحسب ، ثم ترجعين إلى الجنة ، و غلى سكانها الذين علمتهم الموسيقى و الشعر و الحب. هم بانتظارك . قصرك لم يزلزل ، فأنت لم تأكل من الشجرة المحرمة. أليس كذلك؟

قلت : صحيح ، صحيح . أنا باقية هنا ... هنا أنا باقية

لأبحث عن حبي الضائع

أبحث عن أحباء مروا من هنا

ثم ضاعوا في متاهات الكون

ضاعوا و ضعت معهم.

يا صديقي ... أنا هنا أمامك

و لكني لست أنا

فما تراه عيناك هو ليس أنا

فلي وجود غير ما تكشفه العيون

رد صديقي قائلا :

- أعرف هذا ... أعرف هذا . ان الصديقة الفردوسية و بودي أن أسميك غفران . أتقبلين؟

- وما معنى هذه الكلمة ؟

- العفو والسماح

- وأنت ما اسمك ؟ أعرف أني سميتك الناسك !

- أنا إبراهيم الكلبي ... كما ذكرت لك ، فكلبة أرضعتني و لا أنسى فضلها علي . الناس تسخر من كلمة : كلب و كلبي و أنا أفتخر بها ...

- و أنا كذلك ... أنا غفران البعوضة ، لا بد أن أرجع إلى الكلمة الأصل رغم المعنى المكروه عند البشر لكلمة : بعوضة و ... و بعوصية ... بالمناسبة هل تعرف إنسانا اسمه لؤلؤ؟

- آه الشاب الذي أنقذته من الموت !

- صحيح !

- الملك عفا عنه ... الملك الذي يظن أنه أصبح من سكان الجنة الخالدين ... لكنه من سكان الأرض و مصيره الموت الذي يفر منه ...

- و ماذا فعل لؤلؤ بعد أن عفا الملك عنه ؟

- تزوج و عنده طفل !

- آه ! يا للأسف !

- هل أنت في شوق لرؤيته ؟

أخبرته قصتي مع المرأة المقطوعة القدمين أمه ، و السرداب الذي حفرته الفأرة ، الذي يصل بين بيت أمه و السجن الذي وضعه فيه الملك ... و كذلك حول الطعام الذي حملته إلى لؤلؤ، و كيف تسللت إلى زنزانته دون أن يعلم. ثم حدث أن سمعنا الدجاجة ، فقال إبراهيم:

- لقد وضعت الدجاجة بيضة ... و هي الآن جائعة سأعود بعد قليل .

و ما أن غادر إبراهيم المكان حتى بادرني سليمان بالسؤال:

- أريدك أن ترجعي كما كنت في الجنة ، فتاة جميلة تطير بجناحين ذهبيتين !

تنهدت وقلت :

- يا ليت !

- غفـران .... غفـران .... أريـد أن تأخـذيني إلى الجنـة .... ألا يمكـن أن تحمليني بكلتـا يـديك وتطـرين بي فـوق الجنـة ؟ كيـف هي الجنـة ؟ اخبريني قبل أن يعود إبراهيم .

- طبعـا يمكـن . هيـا تمـدد هنـا على الأرض وأغمـض عينيـك و تصـور أني أطير في الفضاء كفتاة صغيرة ذات جناحين ذهبيتين مثلما كنت في الجنة ، و أنت ممسك بكلتا يدي .. هيا.

- و مـا إن اسـتلقى على الأرض و أغمـض عينيـه حتى شـرعت أغني أغنيـة و أعزف بجناحي.

اليوم التاسع و العشرون بعد المائة

أغنية الطفل في الجنة:

عندما الشمس طلعت

و الأرض نوّرت

و الأشجار تنفست

و الزهور تفتحت

شفت بنت صغيرة

صغيرة ، صغيرة كثير

شفتها شفتها بعيني

عم بتطير ، عم بتطير

عما تعلا عما التصير

مثل حمامة بيضاء

و بجناحاتها الحلوة

عما تعزف أنشودة

لمن شافتني ماشي

ابتسمت لي و صاحت لي :

يا سليمان يا حبيبي

هيا نطير هيا نطير

للجنة السعيدة

هبطت ، نزلت لعندي

حيتني و باستني

و بايديها مسكتني

و لفوق، لفوق حملتني

حدثتني قالت لي

هادي هي الجنة

عصافيرها بالتزقزق

و طيورها بالتغرد

و أشجارها بتسبح

الرب الذي خلقها

أنظر هون ، أنظر هون

مرج و زهور عند الكوم

و هذا قصري المعلق

فوق النتهر معلق

و هذا هو البلكون

منه طرت لكل الكون

للينابيع الأبدية

وين الشمس ما بتغيب

و النجوم بتلألأ

بالمحبة العلوية

أنظر هون ، أنظر هون

تحتك في خاروف صغير

اليوم ولد بالجنة

عما يركض و ينادي

لا تسرعي يا أمي

أنا الآن فقت من النوم

يا سليمان يا حبيبي

ننزل هون ، ننزل هون

حتى نزور السلاحف

والضفادع والسمكات

عما يحكوا ويضحكوا

اسمع ، اسمع شو بيقولوا

هاتدي هالبنت الحلوة

عم بتطير عم بتطير

عما تعلا عما التصير

مثل حمامة بيضاء

و بجناحاتها الحلوة

عما تعزف أنشودة

و حاملة لود بايدها

راسه عند رجليها

هاها، هي هي

اليوم الثلاثون بعد المائة (130)

صحت بأعلى صوتي :

- سليمان ، سليمان ، انهض ، الباب يقرع ، هناك من يحاول الدخول .

فتح سليمان عينيه . نهض بتكاسل قائلا:

- أين وصلنا في الرحلة يا غفران ؟ لماذا لا يوجد أرانب في الجنة

كان في الباب ثلاث نسوة ، جئن يطلبن المساعدة عندما سمعن أني هنا.

قالت الأولى:

- أنا امرأة متزوجة منذ عشر سنوات و لم أنجب حتى الآن . الطبيب قال أني عاقر ... أرجوك يا بعوضة ساعديني ربما على يديك ربنا يرزقني طفلا ... الدغيني لدغة مباركة تجعلني أحمل إنشاء الله ... أنقذيني أرجوك ... فزوجي يهددني دائما أنه لن يصبر إلى الأبد .... يريد الزواج بامرأة ثانية أو

الطلاق إذا لم أنجب ، بنتا أو صبيا ... أرجوك ساعديني ... الدغيني أرجوك لدغة مباركة ...

وقالت الثانية:

- أنا متزوجة و عندي ستة أطفال و الحمد لله ، ثلاثة صبيان و ثلاث بنات ... لكن المشكلة أن زوجي شهواني كثير جدا، فهو يشتهي ممارسة النكاح مرات عديدة كل أسبوع ، ربما ثلاث مرات كل ليلة، وتعرفين أيتها البعوضة المباركة، أني أشتغل طوال اليوم بتحضير الطعام والخبز للأسرة، وتحضير العلف للدواب وغسل الصحون والثياب ، وهذا يجعلني تعبانة في نهاية اليوم ، لا أرغب إلا بتناول لقمة ثم أنام، لكن زوجي يريدني أن أكون جميلة باستعمال المساحيق والزينة ، كما تفعل المرأة في المدينة ، وإذا لم أتزين كما يريد، يشتمني ويهينني أمام الأولاد ، كما أنه يهددني بالزواج بامرأة ثانية، فالله حلل الزواج حتى أربع زوجات، ويوجد الكثيرات اللواتي يعشقن الرجل الفحل كما هو ... أرجوك يا بعوضة الخير، أرجوك، أنا أدلك على مكان وجوده ، يلزمه لدغة قوية جدا للتخفيف من شهوته الجنسية، هو أشبه بالتيس في أوج هيجانه، وكذلك استعمل مانع الحمل، مثل نساء المدينة، لكن سرا فزوجي لا علم له بذلك، ولو عرف فإنه سيغضب كثيرا فيضربني ، خاصة و أن أحد شيوخ القبيلة قال لزوجي بأن أي امرأة تستعمل شيئا لمنع خلق الأطفال، كما يريد الله، ستكون و زوجها حطبا لجهنم، ساعيدني أيتها البعوضة المباركة، وأنا تحت أمرك ، أطلبي مني أي شيء، عندي ليرات ذهبية خذي ما تريدين منها، أرجوك خلصيني من زوجي التيس الشهواني العنيد ، أرجوك ...

وقالت الثالثة:

- أنا امرأة مؤمنة ، أصوم وأصلي راضية بما قسم الله لي، تزوجت منذ سنوات لكني أنجبت بنات فقط وزوجي يريد ذكرا، وأنا الآن حامل، أرجوك أ تخبريني، أيتها البعوضة المباركة، إن كان ما أحمله في بطني صبيا أم بنتا... حتى إذا كان بنتا فاذهب غلى أهلي عند أبي وأمي، حتى لا يغضب زوجي، فيضربني... أما إذا كان ذكرا صبيا، إن شاء الله، فابقى في بيتي، حتى يفرح زوجي و يحتفل، يذبح كبشا وبالطبل و الزمر والرقص والغناء ... أرجوك يا مباركة، ساعديني واضربيني، هل ما في بطني صبي أم بنت، لا أحد غيرك يعرف الإجابة إلا الله وأنت... أرجوك فجأة سمعنا وقع أقدام خارج الباب تقترب. فاصفرت وجوههن خوفا من أن يكون أزواجهن قد جاءوا.. فأسرعن بالتسلل من النافذة، بينما راح سليمان يضحك عليهن وأنا أشعر بالأسى.

اليوم الواحد والثلاثون بعد المائة

قال الطفل الذي أحبه:

- هل هذا صحيح يا غفران البعوضة؟

- ماذا تعني؟

- ما سمعته منم النساء الثلاثة حول لدغاتك القوية؟

- لا أعرف بالضبط يا سليمان ! لا أعرف .

ضحكت من سؤاله وأردفت :

- ما زلت لم ألدغ أحدا من ما طلب مني.

- أريدك أن تلدغي أبي !

- لماذا؟ و ماذا فعل حتى ألدغه؟

- هو يريد أن يزوج أختي إلى ابن عمها ، لكن أختي لا تحبه.

- هل تحب شخصا آخر؟

- نعم وأنا أعرف هذا، لكن أمي وأبي لا يعرفان هذا ... وكذلك أبي دائما يقول لي: أنت ما زلت صغيرا، أسكت إذا تكلم الكبار ، وكثيرا ما يطلب مني أن أكذب لأيد أكاذيبه... هس ... أرجوك ألدغيه لدغة قوية حتى تتحسن معاملته لي ... أسمعي ... أبي جلده سميك كما تقول أمي عنه،

- و ما معنى جلده سميك؟ يعني مثل الفيل !

- أقصد لا يحس ولا يفهم ... يعني ... يعني، أقصد ، بينك و بيني ، يقول أبي أن أمي غبية لكنه هو الغبي، وهو لا يريد أن يقول أحد هذا عنه ، ولو كانت أمي قوية لضربته، لكن، على أية حال تعالي معي لأدلك أين ينام ... أبي ... الدغيه، لكن أين تلدغيه ؟ في جبينه أم في رقبته؟ ..

- اسمع يا سليمان ... أنا لا أفعل هذا ... هذا غير ممكن !

- لكنك لدغتي لؤلؤ

- ماذا؟

- أجل ! أجل لدغتي الجندي، ولا أدري بعد ذلك ماذا حصل له، ربما إبراهيم يعرف ماذا جرى ..

- اسمعي ... والله أنا أحبك، إذا لدغتني سأصبح بطلا ... سوبرمان، كما في السينما ... آه ما أجمل أن أكون بطلا كبيرا !

نهض من مكانه وشرع يقلد أحد أبطال الكاراتيه يضرب بقبضته وقدمه الهواء ويصرخ كما لو كان بالفعل بطلا ... لكن دخول إبراهيم جعله يتوقف فقلال سليمان ضاحكا :

- آه ما ذا يحدث هنا ؟ هل بتعلم غفران الكاراتيه؟

قلت: اسأل إبراهيم عما حدث للجندي الذي لدغته

قال إبراهيم : تغيرت أحواله كثيرا، صار مولعا بالبعوض ، يأكل بعضا منه و يقتل بعضا آخر ... و أخيرا سمعت أنه فقد صوابه وراح يجول في الغابات وحده ... فقلت معلقة على ما قال إبراهيم:

- هل سمعت ؟ ستصبح سليمان البعوضي، عن جدارة إذا لدغتك

فتدخل إبراهيم مخاطبا:

- خبئي يا غفران لدغتك ليوم آخر... من يدري ربما نحتاجها لأمر هام يوما ما ... لقد أنقذت حياة لؤلؤ، وربما... ربما لا بد من إنقاذ شيء آخر ، أكبر بكثير من لؤلؤ... لكن الآن دعينا من هذا الموضوع ... إذا رحلت القافلة ورحل سليمان معها، لا يوجد هنا من ينقل كلامك إلي ... باختصار لقد جئت بكتاب صغير مخصص للصم البكم، أقصد تعلم الكلام بالإشارات، فلنبدأ الآن، الآن كيف تعبّرين عن نفسك وكيف تجيبين عن أسئلتي بالإشارات، وحركات الجناحين وباستعمال إبرتك وأرجلك وجسمك.

اليوم الثاني و الثلاثون بعد المائة

خاطبني إبراهيم هذا الصباح فقال:

- تعالي معي يا غفران لتري شيئا لم يسبق أن رأيته من قبل.

نزلت معه وسليمان إلى غرفة صغيرة تحت مسكنه قال لي و هو يشير بيده إلى طاولة عليها ثلاثة كتب في إحدى الزوايا:

- أترين؟ هذه كتب : التوراة و الإنجيل و القرآن. أتى بها ثلاثة أنبياء ، هم موسى و عيسى و محمد عليم السلام جميعا، و تحتوى هذه الكتب على كلام من الرب، كما وصل إليهم .

قلت بشيء من العجب:

- و لماذا أرسل الرب هؤلاء الأنبياء و معهم هذه الكتب ؟

- كي يرشدوا ذرية آدم و حواء إلى الطريق الصحيح في حياتهم، الطريق إلى الخير، إلى الحق ، وكي يبعدونهم عن الطريق الخطأ ، طريق الشر والباطل .

- في الحقيقة ، أنا لا أفهم ما تقول يا إبراهيم !

حك بيده رأسه ، و بدا و كأنه يفحص أعماق نفسه مرة أخرى ، ثن قال:

- يجب أن تعلمي أنك متميزة عن بقية البشر كلهم يا غفران، لقد كنت في الجنة وتكلم الرب معك عبر الملائكة، فتعلمت التفريق بين الحق والباطل، وبين الخير و الشر، أما نحن أقصد الناس من ذرية آدم وحواء، وهم كثيرون ، فلم يتكلم الرب إليهم، وإنما اختارا عددا محدودا منهم، وهنا أذكر منهم موسى و عيسى وحمد عليهم السلام، وتكلم إليهم وأيضا عن طريق الملائكة، لإرشادهم إلى اتباع طريق الحق والخير ليعلّموا الناس كما أراد الرب.

- إذا أين المشكل؟ أنا لا أفهم يا إبراهيم ما تريد أن تقوله هذا الصباح !

- دعيني أكمّل ما بدأت ... و بلّغوا الناس أنّ من يطيع الأنبياء حسبما أمر الرب يكون مصيره الجنة و من يتمرد ويرفض الأنبياء ، يكون مصيره في جهنم حيث يعذب عذابا شديدا ..

- اعرف أن الله خلق جهنم بعد ما خلق الجنة بسنين لا تحصى، وبعد أن خالف آدم حواء أمر الرب فأكلا من الشجرة المحرمة ، هذا ما علمته قبل أن أهبط إلى الأرض ..

- صحيح ، كما أعتقد وأصدّقك ... لكن ... لكن ... أن ثمة مشكلة، فالكثير من الناس لا يخاف من جهنم ولا يخشى نارها و عذابها.

- إذا فليذهبوا إليها، ...

- لكن أعمالهم على الأرض ، تضر الآخرين، الضعفاء من ذرية آدم وحواء ، تضرهم ضررا كبيرا، فهؤلاء الضعفاء يتعذبون و يتألمون كثيرا على يد الأقوياء الذين لا تخيفهم جهنم و لا تخيفهم نارها، ... فعلى الأرض هذه التي نعيش عليها جميعا، نراهم يسرحون و يمرحون و يأخذون خيرات الأرض كما يحلو لهم ..

- آها ! ... أجل الآن بدأت أفهم

وتذكرت قصة الملك مع القمح الفاسد الذي وزعه على الشعب المسكين و احتفظ بالقمح الجيد لنفسه و لعائلته و جنوده. قلت:

- أجل يا إبراهيم ! الملك الذي أراد أن يقتل لؤلؤ كما قتل أباه ، لؤلؤ الذي رفض أن يهتف يحيا الملك.

- بالضبط يا غفران ! لقد فعلت خيرا كثيرا عندما أنقذته من القتل .

- و الملك أيضا أراد أن يسجنني ، و أرسل خيرة رجاله للقبض عليّ ، لأني فتحت صنبور القمح الجيد و أخذ الناس منه ما شاءوا ..

- الملك دائما يردد: أنا هنا أفعل ما أريد ، و كل ما أريده أفعله حسب ما أشاء . و ليفعل الرب بي ما يريد، و أنا غير مهتم سواء كان مصيري في الجنة أو في جهنم . أنا حر ، أعرف أن الرب خلقني و انتهى كل شيء، أنا حر، سيد نفسي استشير نفسي و لا أهتم بالأنبياء و بما يقولون"

- آه ! أنا حزينة يا إبراهيم ، حزينة جدا.

- وأنا حزين مثلك ! فأمي التي ولدتني أرادوا قتلها و حرقها و رجمها بالحجارة حتى الموت ...لماذا؟ لأنها أحبت و كنت ثمرة هذا الحب . فعاقبوني و أرادوا قتلي أيضا، ... إن كلبة كانت أكثر عطفا منهم ... كنت أنام وحدي وأنا على كومة القمامة ، و أصرخ من شدة جوعي ، لكنهم كانوا كلهم يقولون : مت يا ملعون ! يا ابن العاهرة، فما ذنبي يا غفران !

بكيت وبكى إبراهيم و بكى سليمان معنا. ثم مسح سليمان دموع وقال:

- يا غفران ! هيا نذهب إلى الجنة ! أنت كنت هناك، فلنرجع إليها، .. أقصد نحن الثلاثة ... إذا ذهبت ، لا تنسي أن تأخذيني معك ...

تدخل إبراهيم قائلا:

- يجب أن نضع حدا لهذا الملك ومن يؤيده ويعمل معه. إذا كان لا يخاف من جهنم ونارها ، سنجعله يخاف منا، ... هنا ... في هذه الحياة.

اليوم الثالث والثلاثون بعد المائة

قضيت الليلة قلقة . لقد طرد حديث إبراهيم النوم عن جفوني . قلبت ما سمعته من أفكار مرات ولم أصل إلى نتيجة أرضى بها.

من أنا ؟ ما ذا كنت ؟ ومن سأكون؟

أنا عنصر من هذه الأرض وما عليها من بشر و نبات و حيوان و صحراء و جبال و بحار. هذا أنا . فلا ثمرة ترجى من مزيد من الحزن أو الأسف على الفردوس الذي فقدته... ولا يفيدني القلق لا يفيدني في شيء.

سمعت من قال بأنه باستطاعة الرب أن يعفو عن آدم و حواء بعد ارتكابهما الخطيئة الأولى. وسمعت: كان يمكن الرب أن يضع حرسا من الملائكة حول الشجرة المحرمة حتى لا يصل إليها آدم وحواء... آه ! تمنيات وتمنيات أكل الدهر عليها و شرب...

آه يا أحبائي ! يا آدم ! يا حواء ... يا حواء هل سنلتقي ؟ هل نعود إلى ما كنا عليه قبل أن نطرد من الجنة ؟ من يدري؟ من يدري ما يدور في خلد الرب ... وما ذا سيقرر ؟ آه أشعر و كأني أطارد قشة طفت فوق سطح المحيط وأنا لا أجيد السباحة ! لقد جفت ينابيع السماء و الأرض عطشى . لا أنبياء، ولا رسل جدد ...

ما عدا هذا الملك. لعل إبراهيم على حق : لا بد من زحزحة الملك ! أو قتله ! آه ! لكني أنا ابنة الجنة لا أقتل ! لا أذبح ! لا أسفك دما !

الأسئلة كثيرة و الرب صامت . لا جواب من عل و لا من مكان آخر . سليمان يريدني أن أعود إلى الجنة كي يعود معي . فلنترك هذا الكوكب ليفترس نفسه ، و ليفترس أهله ... و لننج وحدنا ، ثم نطل من نافذة

سماوية لنرى هذا الكوكب يضمحل ، يحتضر ... يموت ببطء أو بسرعة بينما أنعم و سليمان بالحياة في جنة الخلد و ملك لا يبلى، لا ، لا ! لن أذهب وحدي !سآخذ الجميع معي ، سنذهب معا كلنا أو لا أحد. و من يختر جهنم فليكن له ما يريد.

كان الليل يقترب من منتصفه، و إبراهيم يغط في نوم عميق. أجل ! من يدري ، ربما نجد أبواب الفردوس مغلقة. فانتابني شعور بالضيق. أحسست حمّى غلفت قلبي و روحي . خرجت . حلقت فبدت الأرض قرصا مدورا تزينه بقايا شفق أحمر و سحب داكنة . خاطبت الأرض متسائلة :

- ماذا تفعلين لأجلنا أيتها الأرض ؟

فجاوبتني و المع في مآقيها:

- وأنتم ما ذا تفعلون لأجلي ؟

- وتلاشى السؤال في ظلمة الليل البهيم

اليوم الرابع والثلاثون بعد المائة

بدأ يومي هذا بالاستماع إلى حديث بين صديقي سليمان وإبراهيم استهله سليمان قائلا:

- لقد رأيتها يا سيدي الناسك ، فعلا رأيتها بعيني هاتين ... بينما كنت تغط في نومك، و كنت أتظاهر بأني نائم .. رأيتها تتحول من بعوضة تارة إلى فتاة جميلة، ... جميلة حدا تارة أخرى، سيدي و لها جناحان ذهبيان يشعلن نورا أبيض- أزرق خفيفا، و موسيقى لذيذة عندما ترفرف .

توقف برهة ثم تابع:

- لها خدان أحمران مثل الورد الدمشقي، و مثل الياسمين الأبيض ، وشعرا أشقر، آه ! يا سيدي ما أجملها؟ أرجوك أجعلها تبقى على حالتها هذه، يعني بنت أرجوك، اجعلها تبقى بنتا ...

فرد عليه إبراهيم:

- اسمع يا صديقي الصغير ...

- أنا لست صغيرا ! أنا كبير و أفهم مثل الكبار.

- لا بأس ... لا بأس يا صديقي العزيز، استمع جيدا إلى ما أقول لك ... إذا أصبحت غفران فتاة ، بصورة دائمة لا تتغير ، سوف يلقي جنود الملك القبض عليها بسهولة ...

- لماذا ؟

- لأنها لا تستطيع أن تختبئ و هي بجسم الفتاة ، أما إذا كنت بعوضة فإنها تستطيع أن تختبئ في مكان صغير ، صغير جدا ... إذا قبض عليها الجنود وهي بصورة فتاة ، فسيضعونها في قفص من حديد ويأخذونها إلى الملك ، وعند ذلك قد يعذبها الملك أو ينام معها، كما يفعل الزوج مع زوجته ، وأعوذ بالله من الشيطان ، أقصد الأفضل أن تبقى بعوضة هكذا ... هل فهمتني؟

أومأ سليمان برأسه مذعنا محاولا أن يفهم ما سمعه من إبراهيم ، ثم أطرق برأسه و قال بصوت خفيض:

- أنا أحبها ... أحبها كثيرا ، و ما أحلى أن تكون لي عروس ذات جناحين من ذهب ... آه ... آه ما أحلاها ! ... و هي سيدي و أنا بنفس العمر !؟

- غفران يا سليمان هي من سكان الجنة ... هي بنت لا تكبر و لا تصغر ، و لا تموت ... سليمان. اسمع جيدا ... غفران ربما عمرها آلاف السنين !!

- آلاف السنين !! أنا لا أصدق هذا ... أبدا .

- بل يجب أن تصدق ... ألم تسمعها تقول أنها كانت صديقة لأبينا و أمنا آدم و حواء؟

- صحيح قالت هذا ؟

- إذا، ... أين نحن منها؟ مستحيل، نحن نعيش لا أكثر من مائة سنة، أما هي فآلاف !

- سيدي تقصد أنها تبقى دوما شابة ، لا تصبح مثل جدتي ؟

- تماما ... و قد ترجع إلى الجنة بعد وقت ... لا أحد يدري إلا الرب

- و هل ستأخذني معها إلى الجنة؟

- لا أعرف ! لا أعرف ! ... المهم الآن ، إني بحاجة غليها كما هي الآن ... بعوضة لا أكثر و لا أكثر ولا أقل

- لا أفهم ما تقول ! لماذا تحتاجها كبعوضة فقط؟

- لا أدري بالضبط ! لا أدري ... الكل يعلم أنها أنقذت لؤلؤ من الموت وهذا شيء عظيم عظيم جدا ...

- نفرت دموع حمراء من عيني سليمان، و حملق في وجه إبراهيم متأسيا ... لكنه ابتسم ابتسامة بريئة ، و ما كان يدري و لا إبراهيم أيضا أني كنت أسمع و أرى كل ما يجري ...

اليوم الخامس والثلاثون بعد المائة

كل من عرفني تمنى أن أعود إلى هيئتي البشرية ، و كما كنت في الجنة . ما عدا إبراهيم . فهل آثار الكلبية في نفسه جعلته يفضلني كبعوضة حيث تتوافق نزعته الكلبية مع نزعتي البعوضية لا أدري ! هو يقول أنني إذا كنت بعوضة أستطيع عندئذ أن أختبئ في مكان صغير جدا ، في شق ، في فتحة، في كوة ، فلا يراني أحد. أما إذا أصبحت بنتا صغيرة ، فالاختباء أصعب بكثير ... يسهل على جنود الملك أن يقبضوا علي و يضعوني في قفص ويقدموني هدية لذيذة و جميلة لا مثيل لها ، ليفعل بي ما يشاء.

هل يخطط إبراهيم حتى ألدغ الملك انتقاما لأفعاله الشريرة؟ لكنه قال بأن لا أحد يعرف بالضبط كيف سيتغير سلوكه.

فإذا أصبح بعوضيا، يمكن أن يتصرف تصرفا أحمق ... مثلا يمكن أن يأمر بحرق المدينة، كما فعل أحد أباطرة روما عندما أحرقها. و أضاف إبراهيم بحزم و ثقة كبيرة بنفسه:

- أن تعودي إلى هيئة البشرية الأصلية ، كما كنت في الجنة ، أمر يقرر الرب وحده ... فهو الذي أمر أن تصبحي بعوضة و نفاك إلى الأرض قبل أن تلدني أمي بآلاف السنين ... أجل ! لقد لؤلؤ من الموت و كل شعب المدينة يشكرك على هذا ... لا بأس ! لكن من ينقذ المملكة من الملك ؟ ... أعتقد أنه يمكنك مد يد العون في هذه المشكلة ... كيف؟ لا أدري بعد. يجب أن تتحلي بالصبر الجميل، ثقي بأني لا أريدك كبعوضة إلا لفعل الخير.

- فكرت مليا . و قلبت الأمر من كل جوانبه، فتساءلت بيني و بين نفسي ترى من يكون إبراهيم هذا الذي يجري في دمه شيئا من دماء

الكلاب ! و ما الذي جاء به غلى هذا المكان المنعزل في صحراء شاسعة لا يحدها شيء !

قال إبراهيم :

- عندما أخبر الجواسيس الملك عن حالتي أمر بأن أعمل مع رجال الجمارك لكشف المخدرات .... هكذا كنت أستطيع الكشف عن أية كمية منها على بعد عدة أمتار، و كان باستطاعتي أن أكشف المكان الذي خبئت فيه بالضبط ، سواء كانت مدسوسة بين الأمتعة أو في جدار أو كانت على جسم شخص ... لذا سر الملك بعملي ، و اكتشفت كميات كبيرة استحوذ الملك عليها، و قام ببيع جزء منها في السوق السوداء ، و إلى المدمنين في البلدة المجاورة، و حصل على المال وحده، أما الجزء الباقي فوزعه على أعوانه و حراسه و الجنود الذين حوله، كي يبقوا دوما في حالة نشوة مخلصين ، مذعنين ... لكن ذات يوم ، أمر لسبب لا أعرفه أن أغادر قسم الجمارك وألتحق بحرسه الخاص ، لأكون قريبا منه ، لأكشف أي سلاح أو مخدرات أو مركبات كيميائية تبث رائحة مخدة أو مميتة ، يحمله أي سفير أو رئيس دولة أو غيره يحضا بمقابلة الملك. غير أن مفاجأة كانت تنتظرنا، لم تخطر على بال أحد. لقد كانت تصدر عن الملك رائحة لا يشمها إلا أنا. يعني أني كنت أشم أي رائحة أو صوت يصدر من أحد مخارج جسده مهما كان ضئيلا ... و بما أن في طبيعتي شيئا من الكلبية أو خصائص طبع الكلاب ، فقد كانت تصدر عني أصواتا غريبة، رغما عني ، كان يستطيع من يقف بجانبي أو هو قريب مني أن يسمعها، مما يدفعه إلى الابتسام سرا ... ثم يهمس إلى شخص آخر و يقول شيئا ، أو تتحرك

عضلات وجهه أو وجهها بصورة مثيرة للانتباه ، و كل ذلك في حضرة الملك الجالس عرشه والذي كل ما يصدر عن الجمهور في حضرته أن يكون صامتا ، مصغيا، في وضع مثير للرهبة و الخوف. انزعج الملك من هذه التصرفات غير المقصودة ، وانذرني و قلت له : سيدي أن هذا خارج عن إرادتي تماما ... وأخيرا قرر الملك أن يبعدني عنه و عن القصر فخيرني بين السجن أو النفي إلى الصحراء. ذلك أن عودتي إلى عملي في الجمارك يمكن أن يكشف شيئا مما أراد الملك أن يخفيه فاخترت الصحراء .

حدد قائد الشرطة يوما سينقلني خلاله إلى مكان ما في الصحراء ، لا طرق معبدة تؤدي إليه. وأضاف:

- يمكن تأخذ معك ما تشأ من أمتعة و كتب وطعام وشراب ... تلك هي أوامر الملك.

وقبل يوم موعد السفر، وبينما منت أتجول في شوارع المدينة لأقول وداعا لمن أعرف من الناس، شاهدت كلبا في إحدى شوارعها كان ينبح بطريقة غير عادية، وفهمت مباشرة أنه ضل الطريق إلى بيت صاحبه. سرنا معا عبر الأزقة حتى بلغنا تخوم المدينة ... ثم سرنا عبر طريق صحراوي تحف به أشجار التين الصبار أدى بنا، بعد يوم كامل، إلى هذه القافلة التي حطت رحالها قرب المدينة آنذاك . وهناك التقى الكلب بصاحبه الذي هو والد سليمان الطفل الذي ترجم لي ما قلته لي حتى الآن . و لما أخبرته بكم الملك قال:

- اطمئن يا أخي إبراهيم ... لا تقلق ... لن نتركك وحدك . الخلاصة أن قائد الشرطة مع أثنين من أعوانه حضروا بصحبة شاحنة صغيرة أقلتني و متاعي إلى هذا المكان الذي نحن فيه الآن.

اليوم السادس و الثلاثون بعد المائة

لم يتصرف الملك معي كما تصرف الرب مع آدم و حواء . فلم يعتبرني كشجرة محرمة يمنع لمسها و أكل ثمرها لمدة ستة أشهر ، أعتقد أنها كانت كافية لهلاكي في صحراء ليس فيها إلا الحر ، و لا زرع و لا ماء . صحيح أن لا أحد كان يجرؤ على الاقتراب مني أو مد يد المساعدة خلال هذه المدة، لكن القافلة و أبا سليمان و رجاله أنقذوني . ساعدوني في حفر البئر بعد أن حددت المكان ، و في استخراج مائه و إقامة المنزل ، كما أهدوني الدجاجة و العنزة كما ذكرت .

بعد انقضاء الشهور الستة ، شرع الناس يأتون ألي يستخدمون الحمير والبغال لأن الملك منع استخدام السيارات للوصول إلي ، كما زودوني بمحرك كهربائي و أدوات أخرى ساعدتني في تحويل الطاقة الشمسية إلى طاقة كهربائية كما علمت أن الكثير من سكان المدينة يشكرني كثيرا لأني أنقذت أبناءهم من المخدرات ، فلم يعد بالإمكان أن ينقل المهربون إلى الصغار و الشباب و غيرهم أية مخدرات ... و من بعد تغيرت الأحوال عندما فصلني الملك عن عملي و أرسلني إلى هنا..

ماذا أقول يا غفران، يا صديقتي فقد كانت وما زالت هذه الصحراء الشاسعة نعمة لا تقدر . لقد ساعدتني العزلة والجو الهادئ الصامت على

التفكير و الابتكار. اخترعت مادة لاصقة لحبيبات الرمل من الرمل ذاته، هكذا صنعت اللبنات اللازمة لبناء هذا المسكن . وكذلك اخترعت المرهم من لعاب حيوان صحراوي يشبه التمساح الصغير ، ... المرهم الذي جعل جسدي مقاوما للحرارة و البرودة .

وفي ضوء القمر كنت أجلس وأقرأ. قرأت الكتب المقدسة كلها، و تعلمت منها الكثير عن الجنة و الجحيم و قصة آدم و حواء و ما جرى لهما قبل أن تخبريني قصة حياتك . و بناء على قراءتي للكتب هذه و ما جاء به الأنبياء صنعت لنفسي صلاتي الخاصة . لم تعجبني الاختلافات بين الديانات الثلاث ... فكل جماعة تصلي للرب الواحد نفسه بصورة مختلفة ، لم ترضني . فأنا يا صديقي أصلي للرب في كل لحظة من لحظات حياتي، فأنا أعتقد أنه حاضر معي في كل وقت و في كل مكان أنا فيه ... أنا أصلي للرب ليس طمعا في جنته و لا خوفا من ناره كما يفعل الكثيرون من سكان المملكة بل لأن الرب حقيقة و حق . فبصلاتي أدمج وجودي و حياتي بهذه الحقيقة و الحق . فالصلاة وسيلتي لتحقيق ذلك . و هنا قاطعته بالسؤال :

- ألم تقع في الحب أيها الناسك؟

تلألأ وجهه بنور عجيب. توقف عن الكلام وأطرق مفكرا ، ثم قال:

- الحب عندي هو أنا ، كياني و وجودي. أنا أحب الربي لذا أصلي له، و أحب الحقيقة والحق ، لذا دمجت وجودي بهما . الحب هو تلك القوة التي تنبع من أعماقي فيدمجني بالرب و بالكون و بالحياة على هذه الأرض في كل أرجائها و كل من فيها من نبات و حيوان و إنسان و شمس و نجوم . اسمعي

يا صديقتي إن الحب هو الذي دفع الناس إلى اختراق الصحراء مشيا أو على ظهور الدواب ليصلوا إلي و يقدموا المساعدة ...

- أقصد من سؤال أن تحبك فتاة أو امرأة كما أنا أحببت لؤلؤة !

سكت طويلا ، و كأنه كيف يجيب ، ثم قال :

- ماذا أقول ... تصدر عني أصوات و حركات تقوم بها الكلاب عندما تقع في الحب ، و هذا ما جعل أي فتاة تعرفني تنفر مني ... كما فعلت سهام و غيرها ... آه ! كنت أشم رائحتها عن بعد مهما كانت ضئيلة ، فلا أستطيع تمالك نفسي ، هكذا تصدر عني أصوات غريبة فيها بعض النباح ، مما كان يجعل الفتاة تبتعد عني و تهجرني، إلى هنا ، غلب النعاس سليمان وهو يصغي إلى حديثنا، فتوقفنا عن الكلام.

اليوم السابع و الثلاثون بعد المائة

ليلة للقلق ولأغنية حب.

جرجر الليل أذياله . لقد خسر نصفه . وأنا فارقني الكرى . سهرانة وحبيب بالقرب يغط في نومه و يتكلم أحيانا ما لا أفهمه . يشخر شخيرا لا يشبه الكلب في نباحه . و لا يشبه عما عند البشر من أصوات . و سليمان الصغير كأ،ه أخ صغير لي ، يتقلب في فراشه § هل هو نائم ؟ أم مستيقظ و قد أغلق جفونه .هذا الصديق الجديد يريدني بعوضة و يحبني بعوضة ، و يكلمني كما لو كنت فطنة و ذكية. لكنه لا يريدني بشرا. أهو سر من أسراره مطمور في أعماقعه ؟ لا أدرى و لكشف سره قفزت نحو جسده

النائم . هبطت على شعره الشائب . اقتربت من صدغه و تأملته تأملا لم أفعل من قبل مثيلا له.

سحرتني ملامح وجهه و أدفأتني أنفاسه. آه ما أحلى قبلته ! لو كنت بشرا ... يا للحسرة . آه ! فقبلتي الآن تزعجه و تؤز كيانه . لكني أحبه !

إني أحبه ، و لا أجرؤ أن أخبره،

فليبق حبك في قلبي كبذور الورد في زهره.

عليه أن يعرف حبي بقلبه

لا بكلمات على لسانه

فإذا تحول الحب كلمات

فقد رحيقه و روحه

إني أحبه ، و لا أجرؤ أن أخبره

أرجوك يا حبيبي

دع عينيك تحدثني

عما في قلبك عني

ثم أنظر في غيني

فترى ما لم تره

* * * * *

إني أحبه و لا أجرؤ أن أخبره

وإذا القمر سألني :

لماذا أحبه؟

أتذكر أني رأيت صورته

و أنا في طريقي

من جنتي إلى أرضه

* * * * *

منذ الأزل ، ..آه ! ..آه !

في ركن من أركان روحي

رأيت صورته

في نبح الحب الأبدي الذي زرته

ثم تلاشت صورته

و أنا في طريقي

من جنتي إلى أرضه

* * * * *

منذ الأزل ، ..آه ! ..آه !

في ركن من أركان روحي

رأيت صورته

و سمعت همسته

فاندمجت روحي بروحه

مع أني لا أعرفه

غنيت أغنيتي و أنا قرب عينه

إني في طريقي لأعرف ما في قلبه

أجل ! أجل ! إني أحبه و لا أعرف كيف أخبره !

اليوم الثامن والثلاثون بعد المائة

حلم أول الليل

رأيت إبراهيم مرتديا ثيابا بيضاء خير مخيطة، في مكان لم يسبق أن شاهدته من قبل في تجوالي على سطح الأرض . كان بصحبة أناس كثيرين يطوف و إياهم حول صرح أسود ضخم ، و مكعب الشكل تزينه كتابات وخيوط مذهبة . كنت على كتفه الأيمن و كان يسمع و يفهم ما أقول دون وساطة سليمان . كان يتلو ، و هو يطوف حول الصرح عددا من الأدعية و الصلوات التي حفظها عن ظهر قلبه . لم يكن ممكنا أن أفهم بالضبط ما كان يقول لأننا كنا وسط جمهور كبير كان أفراده يرددون أدعية و صلوات أثناء طوافهم . و بعد ثلاثة أشواط من الطواف ، شعرت بالغثيان فقلت :

- إبراهيم ... إبراهيم إني أشعر بالدوار ، و لماذا تقوم بهذه الحركات الدائرية؟

- أنا أقوم بشعائر مقدسة ...

- و ما معنى مقدسة ؟ أنا لا أفهم ما تقصد !

- لقد أمر الرب بها ، من أجل أن تخلص الناس من ذنوبهم ، إرضاء للرب نفسه ..

لم يعجبني رده . فقلت أحدث نفسي أن الرب يحيط بكل شيء علما ... إنه يعلم كل شيء، فلماذا المجيء إلى هذا المكان للدوران ! و ما دام يعرف كل شيء ، فالتطهر من الذنوب يجب أن يبدأ و ينتهي بتطهير القلب ...

قلت:

- أتذكر يا صديقي أن سبق أن أخبرتك بأن الرب خلقني قبل أن يخلق آدم و حوزاء ، لذا فأنا مختلفة عنك و عن هؤلاء من حولك ، و في الحقيقة لا أريد أن أشاركك القيام بهذه الأفعال ، كما أني لا أشعر بدافع القيام بها.

- أنا أعلم ذلك ... أنا أعلم ذلك يا غفران.

فأجبته و أنا مؤمنة بما أقول :

- إن نفسي أمّارة بالخير و لكنها لا تأمرني بالسوء ، لذا فأنا أطيعها حتى و لو أني هنا في هذا المكان المقدس ... أرجوك يا إبراهيم تمهل قليلا ريثما أغادر كتفك ، لكني أضيف أن المشكلة الكبرى عندي هي مع ملك هذه المدينة و أمثاله الذين يمارسون السوء و أظن أنه يفرح إذا رآنا نتغاضى عمّا يفعل و ننهمك في أمر غيره

- أجل ! لقد جاء الملك و قام بالطواف كما أفعل الآن.. لكن لم تتحسن معاملته للناس، وقام بعدئذ بحبس شباب لم يهتفوا : يحيا الملك ..

- لكن لم جاء إلى الطواف مثلما أنت تفعل؟

- يريد أن يذهب إلى الجنة، و هو يعتقد أن الطواف يجعل الرب يرضى عنه و يسامحه فيبعده عن جهنم.. قهقهت. شكرته ثم طرت جدار قريب.

- ثم طرأ حادث لم يكن بالحسبان ولم يخطر على بال أحد. شاهدت جحافل من طيور البطريق القطبية تغزو المكان . و كانت تزعق بصورة مزعجة و كأنها أصيبت بالهستيريا . ومع أن الجو قبل قليل كان حارا ، فقد تغير فجأة ، و بدأ الثلج يتهاطل بغزارة ، بينما الطيور راحت تطوف حول الصرح و قد سيطر على سلوكها الذعر الشديد.

- هذا غضب من الرب ... الرب الغضب علينا فاستغفروه.

صاح شيخ من الحاضرين . وأردف آخر صائما :

- يا لطيف ! يا ستار ! اللهم لطفك ! وعفوك !

- أصيب الجمع بأكمله بالذهول ، و اشرأبت الأعناق نحو السماء التي أكفهرّ شكلها و اسود لونها . و غصت أصوات الناس فلم أعد أسمع إلاّ همهمات و تعابير غير مفهومة ... و بينما كنّا مذهولين و نحن نحاول أن نستوعب ما تراه عيوننا ، صفرت دببة بيضاء قطبية و هاجمت طيور البطريق و راحت تلتهم جثثها ، و ترمي عظامها و ريشها حيثما يحلو لها ...

ما كنت أدري أنّ شكلي تبدل ، فأصبحت فتاة مجنحة كما كنت أقف بخيلاء على منبر للمسجد.فاتجهت أفكار الحاضرين نحوي . و صاح رجل :

انظروا ... انظروا هذه معجزة الرب ... صلوا له شكرا و خشوعا .

ما كنت أدرك ما ذا يجري لي في تلك اللحظات من حلمي . و عدت أطرح السؤال على نفسي من أنا ؟ ... ما ذا جرى لي ... و خضم دهشتي البالغة تنحنح إبراهيم قليلا . حرك يده و فرك بها أنفه ، لكنه ما زال نائما . أسرعت إلى سحب إبرتي من رأسه ، ثم غادرت رأسه نحو الجدار .

بينما تابع إبراهيم نومه ، وحلمه.

اليوم التاسع والثلاثون بعد المائة

حلم منتصف الليل:

المشهد الأول : أنا أصبحت شهريار و إبراهيم أصبح شهرزاد . رأيت نفسي جالسة على عرش الملك . كنت بعوضة ضخمة بحجم كائن بشري ،

إبرتي سيف حاد ذو شعبتين جاهزة للقيام بواجبها حسبما آمرها. التاج على رأسي و الصولجان بيدي ، انظر بازدراء إلى ما حولي . و إبراهيم كان جالسا على الأرض على ركبتيه ينظر إلى وجهي باستعطاف واضح . قال:

- أيتها الملكة شهرزاد ، صاحبة الجلالة ، أرجوك سيدتي لا تلدغيني ، فعندي حكايات عن عالم الأرض ، لا مثيل لها في عالم الجنة الذي كنت فيه، ... سأحكي لك يا صاحبة الجلالة حكاية الملك الأحمر ،

والملكة البيضاء كالثلج و الأميرة التي تخدع كل الناس و لا يستطيع أحد أن يخدعها ، و قصص لا تحصى عن الحيوانات و حكمتها ... أرجوك سيدتي أسمعي : كان يا ما كان ، صحيح أنا شهريار في قصص ألف ليلة و ليلة و لكني اليوم ضعيف ، لا جيش لدي ، و لا أحد يطيعني أرجوك ، أرجوك يا صاحبة الجلالة ، لا تلدغيني .

ثم تقلب في فراشه ، و تلاشى كل شيء . نظرت غلى وجهه، إبراهيم ما زال تغط في نومه رغم ذلك ...

المشهد الثاني : رأيتني و إبراهيم على شاطئ بحر مجهول و هو يستعد للطيران . قال يخاطبني:

- لست وحدك التي تملكين جناحين . أنا أيضا عندي جناحان ، ليسا ذهبيين لكنهما قويان جدا و كبيران . انظري ما أقواهما ! ... أستطيع الطيران بهما كأني في طائرة ، و أحملك على ظهري بسهولة حتى لو كنت امرأة بدينة و ثقيلة ، فنعبر بلدان الأرض دون جوازات سفر و دون تأشيرات و أوراق و أختام وانتظار الدور طويلا على الحدود ... استطيع أن أطير وقتما أشاء و أسافر حيثما أشاء ، لا أحد يراقبني ولا سألني ... هيا

أركبي على ظهري يا غفران سنقوم برحلة إلى بلاد بعيدة ، و ندخل بيتا في مدينة كبيرة ، يسمونه " البيت الأبيض " .. لدينا مهمة كبيرة يا غفران ... هناك ناس يخططون للحرب و يتكلمون عن السلام ، لا يخافون من أحد ، و لا أحد يستطيع أن يمنعهم ، أو يعرقل خططهم إلا أنت ...

- أنا ؟ و كيف ذلك ؟ هل تهذي ؟

- لا ! لا ! ... أنت صغيرة لا يرونك ، تستطيعين الدخول إلى أية غرفة مهما كانت محكمة الإغلاق ... هيا ... تعالي اركبي ..

وفجأة تلاشى كل شيء.

المشهد الثالث : كنت و إبراهيم على سطح البيت الأبيض .

قال إبراهيم :

- هيا حلقي ثم اهبطي تحت باب هذه الغرفة التي نحن على سطحها . وعلى بابها توجد لا فتة كتبت عليها : * الغرفة بالغة السرية " ..." ممنوع الدخول إلاّ بتصريح إلكتروني و كلمة السر " . انتظري عندما يفتح أحد الباب و الإطار الخاص به ... و عندما تصلين ، تجدين عددا من الضباط يخططون و يتناقشون ... أعرفي الرئيس ، و الدغيه ... لا حاجة للشرح فأنت تعرفين جيدا الباقي .

- و كيف أخرج ؟

- كما دخلت . أنا أنتظرك هنا ...

- ثم اختلطت المشاهد و الأحداث . رأيتني الدغ ثلاثة من الجالسين في الغرفة السرية المحكمة الإغلاق . انطلقت بعدها صفارات الإنذار ، كما

شرعت بنادق آلية أشعة الليزر القاتلة عليّ . هربت نحو السطح حيث كان إبراهيم بانتظاري . امتطيت ظهره و حلق بي وسط إطلاق نار كثيف .

فجأة فتح إبراهيم عينيه و آني فقال :

- ماذا تفعلين هنا يا غفران ، قرب رأسي ؟

اليوم الأربعون بعد المائة

حلم آخر الليل :

عاد صديقي إلى شخيره و عدت غلى استكشاف ما كان يجري في رأسه . رأيت أني ما زلت على ظهره و هو يحلق فوق بحر مياهه تغلي ، و تنفث بخارا في أرجاء الفضاء .

قلت: إبراهيم ... لقد سئمت من الطيران . فلنهبط لنرتاح قليلا ... في مكان، ... في أي مكان .

ابتسم ضاحكا من طلبي و قال:

- لا يمكن أنظري جيدا إلى ما تحتنا ... هذه جزيرة سكانها صراصير عملاقة التهمت كل ما هو أخضر على سطحها و هي الآن تبحث عن الجذور و الصخور الطرية الخضراء التي كانت في أعماق البحر ، ثم زلزل قاع البحر ، فارتفع إلى الهواء ... و عن يمينك ترين جزيرة الخنافس السوداء ... انظري ... خنافس و خنافس و خنافس تبدو ز كأن بعضها يأكل البعض الآخر ... إنها تلتهم أكسجين الفضاء ، و تنفث غازا لا يصلح إلا لمن يرغب الموت . و هناك جزيرة للعقارب ... حدقي جيدا ، كل عقرب بحجم

قط مرقط ... يلعب بعضها مع بعض و كذلك يلدغ البعض الآخر ، تنفث سمومها في كل مكان قلت و أنا أكاد لا أصدق ما تراه عيناي :

- لكن أين نحن ؟ هل نحن على الطريق المؤدي إلى بيتنا .

- لا أدري بالضبط ... ربما الصحراء أصبحت صحراء جليدية .

- انظر هناك ... قرب الأفق ، أرى أرضا خضراء و أشجار ! أليس كذلك؟ أم أنه مجرد سراب ؟

- لا ... بل صحيح !

هبطنا قرب ينبوع ماء تنساب مياهه كأنها فضة سائلة في أشعة الشمس الدافئة. هو ذكرني بينابيع الأبوية ينابيع الحب والشعر والموسيقى ... شربنا من الماء ثم جلسنا تحت شجرة بدت لناظري كأنها الشجرة التي سبق و أكل آدم و حواء من ثمرها. و بينما كنت غارقة في ذكرياتي ظهر رجل من وراء الشجرة .

سأله إبراهيم عمّن يكون و من أين جاء ، فانحنى الرجل ساخرا بخبث وقال: احترامي سيدي ، أنت لا تعرفني أما نحن ... هي و أنا فنعرف بعضنا منذ زمن طويل ...

فأجابت بدهشة بالغة:

- آه ! إبليس ! ...

فرد بسخرية أكبر :

- أهلا بك و بالضيف الجليل في جزيرتي انتفض إبراهيم فاغرا فاه:

- إبليس ! إبليس ! ... يا للمصيبة !

وفرك عينيه غير مصدق . فرد إبليس مؤكدا :

- أجل ! أجل ! .. إبليس ... كيف حالك؟

- و ماذا تريد منا؟

- آه ! أيها الضيف الغبي ! أتسألني هذا السؤال وأنت في جزيرتي ، وفي بيتي ! تفضل بالجلوس ..

اتخذ إبليس مكانا له بالقرب منا . اعتدل في جلسته

و قال: أنا أؤمن بالسلام و الأرض الخضراء .

- ألم تر جزر العقارب والخنافس والصراصير .. كانت خضراء يانعة تغطيها الزهور و الأشجار و المياه العذبة، فضربوها بقنبلة على سبيل التجربة ما رأيك؟

قلت معترضة:

- هناك أيضا من جعل من الصحراء أرضا خضراء

- سيخربونها له ، ... كي تصبح الصحراء تأكل الصحراء و البحر يبتلع البحر و الحرارة تحرق الحرارة..

- ثم انتقل إلى موضوع آخر ، فقال:

- بما أنكم فلنشرب نخب هذا اللقاء الفريد ... ما رأيك يا سيدتي؟

وقبل أن يتم قوله، أخرج من جيب في قلنسوته ثلاثة كؤوس ملأها بمشروب غريب اللون و قال:

- قبل أن أغادر الجنة ، حملت معي بذورا من الشجرة المحرمة خبأتها في مكان لم يكشفه أحد من الملائكة الذين كانوا يراقبونني حتى باب الجنة، و كلما ضاقت علي هذه الأرض ، أصنع مشروبا من تلك البذور، حتى أبقى

إبليسا دوما ... وفي حالة أرتضيها لنفسي ... وقد صنعت لكما مشروبا لهذه المناسبة التي يمكن أن لا تتكرر ... فلنشرب نخب هذا اللقاء مع إبليس ...

لكن قبل أن يتم قوله، تحرك إبراهيم في نومه، مما جعلني أنسحب فلا أتذوق ما قدمه إبليس من حلم داخل حلم، بينما كان المؤذن يعلن بزوغ الفجر مرددا: الله أكبر، الله أكبر ..